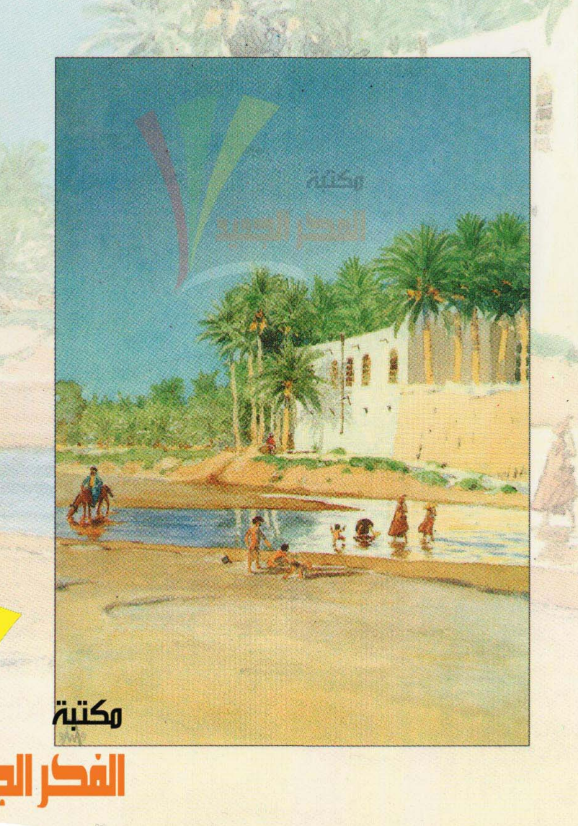
علي بدر

الوليمة العارية



منشورات الجمل

علي بدر، الوليمة العارية، رواية

علي بدر

الوليمة العارية

رواية

منشورات الجمل



ولد علي بدر ببغداد في عام ١٩٦٤. بكالوريوس في الأدب الفرنسي. فُصل من الدراسات العليا قسم الأدب الفرنسي في الجامعة المستنصرية. خدم في جبهات الحرب في حربي الخليج الأولى والثانية. نشر العديد من المقالات النقدية والقصائد في الصحف والمجلات العربية والعراقية. تنقل بين سوريا والأردن وليبيا والعراق في السنوات الأخيرة. حاز على جائزة الدولة للآداب في بغداد، جائزة أبو القاسم الشابي للرواية في تونس، جائزة المبدعين الشباب في الأمارات العربية المتحدة. صدرت له الكتب التالية: كلود ليفي شتراوس: **البنيوية الثقافة الفن**، ترجمة (بغداد ١٩٩٩)؛ غاستون باشلار: **لهب شمعة**، ترجمة (بغداد ١٩٩٩)؛ صلاح ستيتيه: **حمى الأيقونة**، ترجمة (بغداد ٢٠٠٠)؛ بيير جوردا: **رحلة الى الشرق**، ترجمة (دمشق ٢٠٠٠)؛ **بابا سارتر**، رواية (بيروت ٢٠٠١)؛ **شتاء العائلة**، رواية (بغداد ٢٠٠٢)؛ **الطريق إلى تل مطران**، رواية (بيروت ٢٠٠٣).

علي بدر: **الوليمة العارية**، رواية، الطبعة الأولى

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com



- ١ -

شقـاق

استنبول ١٩١٤




مكتبة
الفكر الجديد

في استنبول، كان القرن الذهبي يشق الأراضي الأوربية عند خليج البسفور، ومن بعيد كانت آيا صوفيا بلونها الليموني الشاحب وطرازها البيزنطي ومناراتها الأربع قد انتصبت مثل رماح غائرة في سماء رمادية، ومن بين الضباب، ظهر قصر طوبقاي الكائن فوق التل حيث يحكم سلاطين بني عثمان وهم يجلسون على عروش مدرعة بالذهب، وفي العمق. . . عمق مدينة استنبول كان مسجد السلطان أحمد بمآذنه الست، وريازته الحجرية يؤشر صراع الحضارات الدامي، صراع الأقدار والأفكار وقد ظهرت على وجوه المؤمنين وعلى أيديهم المكدودة المتعبة، وهنالك دزينة من الأعراق: أتراك، عرب، بوشناق، غجر، بلغار، أكراد، أرمن وشراكسة. . . وهم يدخلون البازارات المغطاة بالقباب، والمضاءة بالليل والنهار، وهي محاطة بالمساجد والمقاهي.



قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام ١٩١٤، كانت محطة حيدر باشا الواقعة في ضاحية من ضواحي استنبول الآسيوية مزدحمة بأعداد كبيرة من الناس: باعة صحف قادمون من شوارع باي أوغلو، عمال سكك ببزاتهم الزرق وهم يتجمعون على أكشاك بيع الكبدة المطهية على الطريقة الألبانية، جندرمة مسلحون باليطغونات والكونجيرات،



مسافرون بطرابيشهم الحمر وقد نشروا مظلاتهم على رؤوسهم، وبأيديهم حقائبهم، وهنالك الترامواي الكبير الذي أطلق صفارته الطويلة في الفضاء المبلل بالمطر، فتصاعد البخار الأبيض متكاثفا متقطعا بفعل الرطوبة والبرد بين عجلاته المتوقفة على سكك الحديد... بعد دقائق، خرج الناظر ببزته الزرقاء وشورابه البيض المفتولة من الكشك، وأخذ يقرع الناقوس الذي بيده بشكل متواصل، فتحرك الواقفون على الرصيف نحو العربات:

مرتزقة إنجليز، مندوبون تجاريون، عرب، بلغار، شركسيات محجبات مستلقيات على سجادة مزخرفة محروسات بعبيد وخصيان، جمركيون يشبهون قطاع الطرق يعتمرون الطرابيش والعمائم التي تشبه الأقماع، رجال يرتدون البذلات الصارخة والناصعة، وضباط أتراك يمسكون بأيديهم غلايينهم المصنوعة من خشب فاخر، ويدخنون.

بعد أن دارت عجلات الترامواي ببطء، دخل منيب أفندي المحطة وهو يركض، كان يمسك بيده اليمنى حقيبته السوداء المصنوعة من جلد البقر، ويضع يده اليسرى على طربوشه الأحمر من الأعلى، اخترق الزحام بصعوبة وهو يهرول حتى وصل إلى باب الترام الذي أخذ يسرع شيئا فشيئا، تعلق بباب العربة أول الأمر فكاد أن يسقط إلا أنه وازن نفسه، فسقط طربوشه على الأرض ولم يستطع تلقفه، مع ذلك نجح في الصعود إلى العربة وسط ذهول المسافرين، كان الناظر قد توقف عن قرع الناقوس، وأخذ الترامواي يسرع، دارت عجلاته فتصاعد البخار الأبيض من بينها وتلاشى في الهواء الرطب، وفي تلك اللحظة دخل المحطة شيخ يركض وهو يتلفت يمينا وشمالا، كان وجهه شاحبا وشعره طويلا يتسرب من عمامته على مثال شعر الأولياء، توقف أول الأمر عند الرصيف، تلفت يمينا ثم شمالا، فأخذ الواقفون على الرصيف ينظرون إليه بدهشة وتعجب، وهم يتابعونه بنظراتهم، وبعد ذلك انطلق وراء الترامواي، وهو يصرخ:



(منيب أفندي. . . منيب أفندي).

لقد حاول جاهدا اللحاق بالتراموای فلم يستطع، وكل ما استطاعه هو التعلق بنافذة العربة التي يجلس داخلها منيب أفندي وصاح:

(منيب أفندي. . . أمضيت الليل كله وأنا أقرأ كتاب الزهاوي الذي أعطيتني إياه بالأمس. . . وأنا أتسائل لماذا لا نحرق الزهاوي مع كتبه؟).

أفلت يده من نافذة العربة، فكاد يسقط على الأرض. انطلق القطار مسرعا من المحطة وهو يصفر صفرات متقطعة، بينما أخذ المسافرون الواقفون على الرصيف ينظرون إلى هذا الشيخ وهو يلهث. توقف قليلا، استدار، ثم غادر بين صياح الباعة المتجولين والمسافرين وعمال المحطة، وهو ينظر هناك إلى طربوش أحمر على السكة الحديدية يعبث به الهواء.

*

في العربة ابتسم منيب أفندي مع نفسه بعد أن أراح ظهره على كرسي الترامواي المنجد بالجلد الأحمر، كانت العربة مملوءة بالسراجين الذين يرتدون صديريات صفراء، وهنالك جندرمة مسلحون باليطغونات والكونجيرات جلسوا على المقاعد الأمامية من العربة، وبدو قادمون من مصر يرتدون العباءات المخططة، وأمامه مباشرة جلست سيدة إنكليزية شقراء، لا تتجاوز الثلاثين من عمرها، ترتدي قبعة بيضاء أنيقة، وجلس إلى جانبها تركي سمين بشواربه المفتولة وطربوشه الأحمر المدرع بمنديل من حرير.

مسح منيب أفندي نظارته الدائرية ذات الإطار المعدني بقطعة صغيرة من القطيفة الحمراء التي أخرجها من جيب جاكتته، ثم وضعها على عينيه، وأخذ يقرأ موضوعا للشاعر عبد الحق حامت منشورا في صحيفة (حريت أفكار). زفر من صدره حسرة مكبوتة، وهو يردد بصوت مسموع:



(لا حياة لنا إلا مع أوربا).

كان منيب أفندي -القادم من محلة الحيدر خانة في بغداد-وسيما بعينيه السوداوين ووجهه الحنطي، وكانت سترته البنية جديدة، وبنطلونه الصوفي يكشف عن حذائه المصنوع من الجلد الثمين، وما يميزه عن الآخرين هو أنه من دون شوارب، لقد كان متؤربا لا بملابسه وبالأناقة التي يظهرها حسب، إنما كان متحضرا بسلوكه أيضا، كان متمدنا على طراز الأوربيين، على طراز الشباب الشرقيين الذين تأثروا بالأوربيين والذين كانوا يقطنون الأستانة أوانذاك، مثل جميل أفندي الزهاوي، معروف أفندي الرصافي، وفهمي أفندي المدرس وغيرهم، وحين تصاعد صخب مواطنيه في العربة وشعر بأن الإنكليزية تضايقت من ذلك، عبر لها عن اختلافه: تأفف وهو ينظر نحوهم، هز رأسه هزات قصيرة، ثم التفت نحوها بأدب وتهذيب كبيرين، وقال لها بصوت مسموع وبإنجليزية فصيحة: (آم سوري..).

*

كانت المحطة المزدحمة في حيدر باشا في الجانب الآسيوي من استنبول هي المكان الذي افترق منه الشيخ أمين ومنيب أفندي كلاهما، غادر الشيخ أمين من البوابة الحديدية الضخمة التي تتوسط سور المحطة المشيد بالطوب الأصفر والمظلل بالأشجار الكثيفة إلى الشارع الواسع، وتوجه إلى اليسار أولا حيث مجموعة من العربات الصغيرة التي تجرها الخيول الهزيلة، كانت متوقفة قرب أكشاك خشبية لبيع الثوم والبصل والقباقيب الخشبية والأباريق النحاسية، وحين وصل إلى المكان تقدمت منه إحدى العربات المتوقفات عند الكشك حيث كان حوذيها الأسمر النحيف يرتدي طاقية سمرقندية ممزقة الحواف، ويمسك بيده سوطا أسود يهزه في الهواء ثم يخفضه.

صعد الشيخ أمين العربة وأمر حوذيها بالتوجه إلى مكتبة طوب سراي الواقعة على مسافة قريبة من المحطة، بينما كانت هنالك مجموعة



من المسافرين بطرابيشهم الحمر وقبعاتهم الإفرنجية يتوجهون إلى بوابة المحطة لمغادرتها، وهم يحملون حقائبهم بأيديهم وينشرون على رؤوسهم المظلات.

*

كانت السماء تمطر مطرا خفيفا ناعما، فتغتسل استنبول بمشهد شتائي صامت.

كان الشيخ أمين ومنيب أفندي كلاهما ينظران إلى هذا المطر الذي يهبط على استنبول، على السحر الشرقي القديم، على الترف الضائع والبرانص الموشاة، على المنارات وهندستها الباذخة، والأبعاد الضخمة لأجنحة الجوامع، على الألوان الصارخة والقانية والأسلحة البراقة، على الشرق النائم بعجائبيته الممتدة على مشارف أوربا.

وضع الشيخ أمين رأسه الملفوف بعمامة بيضاء ناعمة على حافة سجفة العربة السوداء، كان يصغي إلى صوت ارتطام حبات المطر الناعمة بالسقوف المعدنية للمنازل الكبيرة المشيدة على جانبي الشارع، كان يصغي إلى صوت المنائر الزرق الملونة بالموزائيك والمطعمة بالمينا وقد غسلها المطر، كان يصغي إلى هسهسة جامع طوب حنا اسكوتاري وهو يسبح تحت سماء رمادية ممحوة بالضباب، كان يصغي إلى صوت دربكة الحصانين على الشارع المرصوف بالطوب الأصفر، وقد كانت الحدوات تصدر صوتا مكتوما على الأرض المبللة بالماء.

انعطفت العربة الصغيرة ببطء في متاهة من متاهات الأزقة القذرة في استنبول، واتخذت زقاق أوجاغي وهو أضيق زقاق يصل الميدان الحيوي للمدينة برأس السراي، أخذت العربة تسير في شارع واسع مقطع بشكل هندسي يقود إلى رأس السراي بأشجاره الدلب والسرو وجدرانه المسننة وأكشاكه الخشبية، ثم توقفت أمام مكتبة طوب سراي.

كانت المكتبة فخمة من الخارج، فخمة بقبابها الحجرية الكبيرة التي



تنظم السقف، ومن الداخل كان عمودها المرمري الكبير يتوسط القاعة العالية، وقد انتشرت مخطوطاتها القديمة المصفوفة والمرتبة بشكل أفقي على الجدران في كل مكان، وعلى الأرضية كانت المصاطب تتوزع بشكل منتظم، هنا كان الشيخ أمين يمضي الساعات تلو الساعات في نسخ المخطوطات العربية القديمة، في هذه القاعة التي لا تضيئها سوى مجموعة قليلة من القناديل التي تعمل على الشحم والزيت، كان ينحني بصورة هادئة وهو يمسك قلمه المصنوع من القصب، ويغمسه في الدواة الحمراء التي يضعها أمامه، وينقل المعلومات على ورق مقطع على شكل مربعات، ومسبحته في اليد اليسرى يكرّ بها وهو صامت.

*

كان منيب أفندي ينظر إلى استنبول من نافذة عربة الترامواي، ينظر إلى الشحاذين الذين يختبئون تحت الأفاريز من المطر، إلى النساء اللواتي يسرن بجزمهن الصفر بهيئة لا مبالية، كان ينظر بأسف إلى المسافرين المحليين بضوضائهم التي تزداد كلما توقف الترامواي في محطة، ويصغي إلى قطرات المطر في الخارج وهي تخشخش على شجر السياج، القطرات الثقيلة التي تسقط من المواسير ترنّ، وحين يتحرك الترامواي يأسف للقذارة المتكومة أمام محلات الجزارة والبقالة والفاكهانية والمجبراتية، وإلى الشعر المتكوم عند واجهات الحلاقين. كان منيب أفندي يخجل لأن الأوربيين ينظرون إلى هذه القذارة التي تكفلت الكلاب بها، إلى المنازل التي تكاد أن تنهار لقدمها، فيرفع ياقته المنشاة إلى الأعلى بصورة مشمئزة، يعدل ربطة عنقه السوداء ويثبت نظارته الذهبية فوق أنفه الطويل، ويقرأ في صحيفة حريت أفكار مقالة عبد الحق حامت، ويتكلم بصوت مسموع مع نفسه:

(لا حياة لنا إلا مع أوربا).

*

كان الشيخ أمين يمضي الساعات الطويلة وهو واجم في مكتبة طوب



سراي، يمضي الساعات وهو حزين لأن الأستانة لم تعد الضربات المريعة للسلطان محمد الفاتح، ولم يعد ضياؤها الباهر القديم يلقي بأشعته على العالم الإسلامي الكبير، لقد رأى تهدم مدينة الإسلام التي كانت تنتعش تحت أشعة الشمس متلألئة في الأمواج مثل سلة من الأزهار، لقد رأى أريج الزهر وهو يغطي وجه آسيا التي يتبدى فيها لغز الروح أكثر مما يتبدى فيها لغز الجسد، رأى ديانات ترتفع وديانات تزول، بينما كان يحلم بانبعاث الإسلام من بخارى التي تتيه مناراتها المذببة وسط الضباب المغولي إلى شيراز بقببها الزرق وفسيفسائها الذي ينام على البحر الأسود. كان يحلم بالإسلام الذي يقلق وحدة المتوسط، يحلم بهدير البحر وقد اجتاحته أساطيل المؤمنين، يحلم بأحداث التأريخ التي تبعثها الروح الغزوية والسعي وراء اجتياح كبير.

كان الشيخ أمين يحلم بسحر العصور الآسر، حين كان التتار بسروجهم الصغيرة ورؤوسهم الحليقة يعبرون إلى الصوب الآخر من البحر، بينما كان منيب أفندي يرحل في الترامواي إلى أزمير وهو يحلم بالخلاص على يد الغرب، يحلم بالشرق وقد تهدم إلى الأبد وحل محله الغرب:

الجامعات محل الجوامع، المتاجر الكبيرة محل السلخانة والمصارين والدم الرائب، الترامواي محل الحمير والبغال، الطبيب محل المجبراتي.

كان يحلم بانهيار شامل، بتهدم عظيم يترك في الظل هذا الوجه الساكن، وجه الشرق العجوز، وجه آسيا التي تشيخ، والإسلام الذي يغرب بعد أن فترت قبضته على شبه جزيرة البلقان، كان منيب أفندي أسيرا لإحساس يدفع به على الدوام أن يقول:

(لماذا لا يرتمي العالم الإسلامي في حضن أوربا وينتهي كل شيء؟).

نقر بإصبعه على غلاف الكتاب الموضوع على ركبته، واسترجع هذا



الوجه المروع للشرق: امحاء المجد أمام نظارة الموت، الموت أمام خسائر الشرق الفادحة، زوال الفتوحات الباهرة، نهاية الإمبراطورية العربية بعد تغلغل السلاجقة في آسيا الصغرى، لقد أخذت قبضة الإسلام تفتر في القوقاز وجميع ممالك الشرق، كان ينظر إلى السيدة الإنكليزية الجالسة قبالته وقدأشاحت بوجهها عنه، فمسد شعره السرح بأصابعه النحيفة وقال في نفسه:

(لماذا لا تصبح بغداد أو دمشق مثل لوندرة أو باريز؟).

أخذ التركي الجالس أمامه والذي يرافق السيدة الإنكليزية يحشو غليونه بإبهامه وهو يتنفس بعمق كأنه يشخر، فخلع منيب أفندي نظارته الذهبية بيده، كان ضوء مصباح العربة يكشف عن يديه المرتجفتين وهو يقرأ.

*

كان الشيخ أمين يسير ومخطوطة الغزالي في يده، يحملها مثلما يحمل المهزوم أسلابه، ووراء الجامع كتلتان من الأشجار المبرقشة بخضرة شبيهة بخضرة الأمسية الشفافة التي دخل فيها أول يوم للأستانة، كان يريد أن يصعد إلى المرتفعات العالية ويسجد في الغيوم إلى السكون المشع، ويسبح في ذرات الأصيل، ما زالت الأوراق الهشة تهتز في الهواء المنعش، وآخر تيارات الإسلام تهب على الشرق، رياح رطبة متولدة من الأعشاب والعوسج، ورائحة القهوة والبحر تحت الشمس، وهنالك المقاهي العظيمة التي تفتح أبوابها حتى آخر المساء، هنالك الجوامع التي تطلق روائح البخور من محاريبها، الجوامع التي أدرك زوالها، وأدرك بأنها ستخبو وستحل محلها البارات ورائحة النبيذ العفنة.

سماء غائمة فوق المنارات الطويلة المدببة، وهو يسمع الإبل الضالة تنادي في الصحراء على الإسلام، كان يحلم بمرور القوافل الكبيرة على خوذات الفرسان، يحلم بخيالة يحملون ركائب السروج، وعند أقدام



المساكن ترقد النساء المحجبات بملابس سميكة، يحلم بالخيول الأفغانية بسروج مزركشة وسيوف لا ينضب الدم منها، بينما كان منيب أفندي يحلم بنساء الإسلام وهن بأكمام محززة، ويلبسن التوكة، والقبعة الكبيرة، وأقدامهن تنقل خطواتها مثل المهارى: الأحذية ذات الرقبة، البناطيل المربعة الصغيرة، وقبعات القش والخوص. صاح بصوت مسموع:

(الموضة...).

ففزّ التركي والإنكليزية الجالسان أمامه.

خجل من نفسه وهو ينظر من باب العربة.

كان يحلم بالموضة وهي تدخل أرض الإسلام، الأزياء لها لهفة تجيش في أعماقه، تجيش وتصعد: ماذا لو تحولت بغداد أو دمشق كلها إلى قصور بيض مثل قصور الأوربيين، وتحولت الصراصير إلى سرطانات البحر، والمدن التي بلون العظام البالية إلى منازل فخمة يشكل المرمر أبهتها والخشب، والنساء يسرن بقصات شعورهن الأوربية وهن يرقصن الفالس، وهناك سفن جميلة في دجلة يتأمل سيلها بعيدا عن الذين مضوا بحكاياتهم الضائعة في شوارع قديمة لا تتسع لإنسان وحماره، كان يحلم بالموسيقى وهي تنبعث من شرفات المنازل البيض، ورائحة الطعام الباذخ، والرجال يعتمرون الطاقيات ويدخلون إلى حانوت ضيق تحت الظلال.

كان كل واحد منهما يتساءل أين خلاصنا؟ منيب أفندي يصرخ:

(العلم... أوربا!).

الشيخ أمين يصرخ:

(الإسلام... الأمة!).

*



هبط منيب أفندي في محطة أزمير وهو يفكر بآمال تنبعث من جديد، وهو يفكر بآسيا وهي تغرب مثل لغز الحياة المضطرب والمتبدل في مضاءة الفجر القلقة. كانت أشجار المحطة ممحوة بسواد الليل، وتلمع في طرف كل غصن قطرة شفافة، أخذ يتدافع بين العمائم والطرابيش والقبعات والملاءات بحثا عن من يوصله إلى بغداد. وهذا هو آخر يوم رأى فيه الأستانة، وكان يدرك أن الإمبراطورية العثمانية كانت تحتضر أمام فتوة الغرب، كان يرى الإسلام في تقهقره المريع، والعرب وهم يدخلون مرة أخرى إلى التاريخ.

*

بعد شهرين من هذا الزمان تقريبا اندلعت الحرب العالمية الأولى، فعاد الشيخ أمين إلى بغداد من محطة حيدر باشا، المحطة ذاتها التي غادر منها منيب أفندي إلى أزمير، كان يرتدي ملابسه الدينية ويحمل معه ما نسخه من المخطوطات التي اطلع عليها في مكتبة طوب حنا اسكوتاري وفي مكتبة طوب سراي، وقد وضعها في حقائب كبيرة وحزمها بقوة حذرا من أن يفقدها أو أن تتلف في الطريق، وعند وصوله إلى الموصل غادر في الكلك المتجه إلى بغداد، في الطريق سلبه البدو حقائبه ظنا منهم أنها تضم أشياء ثمينة يمكنهم الاستفادة منها.

وفي بغداد، التقى الشيخ أمين مرة أخرى منيب أفندي، هناك في القهوخانة الكائنة على نهر دجلة تجدد الخلاف الذي قسم الانتلجنسيا العراقية شيوخا وأفندية إلى قسمين، لقد شهدوا مرحلة من أخطر مراحل التأريخ، وقد تجدد النقاش مرة أخرى حول معرفتين وثقافتين وتأريخين مختلفين، لقد انقسمت الأمة بين العمامة والبرنيطة، بين العباءة الدينية والبذلة الإفرنجية، بين المخصرة والكرفاط، وقد أصبح الزي هنا نوعا من الرأسمال الرمزي وهو يحدد المصائر التي كانت تتجدد وتتحول لا على الأرض حسب، إنما في الضمائر أيضا، وإن كانت هذه التجربة هي تجربة مختلفة من الناحية النوعية عن كل تجربة سابقة، وقد حدثت في



مدينة كانت أبعد ما تكون عن الأمن والحضارة والمدنية من كل مدن الإمبراطورية العثمانية، لقد حدثت في مدينة كانت مثل مخيم الهجرات الكبير وهو يتدثر بملاءات دامية، بينما رائحة الفساد تنبعث من كل مكان، إلا أنها استطاعت بعد أن شهدت هذه التجربة، لا أن ترشحها حسب، بل وتعممها أيضا، وقد ظهرت عبر دهاليز موتها الأسود، ومن أعماق الظلام الذي يلفها شاهدا وسببا على موت الإمبراطورية العثمانية، وعلى تقهقر نظام معرفي- رمزت له العمامة- بأكمله، أمام نظام معرفي جديد قادم من الغرب تبناه الأفندية، فكانوا مثل ضاربي الرمل وقد صنعوا لنا بامتياز فوضانا الملحمية، كانوا يحملون الكلمة اليونانية (Efendis) التي استعملها الأتراك في القرن الثالث عشر بطريقة مختلفة تماما عن استعمالها من قبل البغداديين، فقد كانت لقبا للولاة وللأمراء ولأبناء السلاطين ومشايخ الإسلام ورؤساء الديانات في الثقافة التركية، وكان قاضي استنبول يسمى إستنبول أفنديسي، و كان كبار الضباط يلقبون بالأفندي، وزوجة السلطان هي قادين أفندي، بينما كان أهالي بغداد يطلقونها على الكتاب والموظفين في الدولة، وعلى العرضحالجية، والقراء الصغار، وأبناء التجار، وعلى كل من يجيد القراءة والكتابة من الكتبة والشاكردية الذين كانوا يرشحون للكتابة بعد امتحان صغير في الولاية، وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أخذ البغداديون يطلقونها على كل من يرتدي الملابس الإفرنجية والطربوش التركي وهم من الموظفين الصغار، والكتبة، والقضاة، والصحفيين، وصغار الضابطية في الجيش والجندرمة، وجميع الذين ترتبط معارفهم بالثقافة اللاتكية حصرا، أما قبل هذا التأريخ فقد لبس الأفندية وأرباب الأقلام والعرضحالجية في بغداد القواويق، وهي قلنسوة عالية يلف حولها شاش كان الترك يغطون بها رؤوسهم قبل قبولهم الطربوش غطاء للرأس.

*



أثناء الحرب العالمية الأولى، لم يبق في بغداد غير فقرائها، أما المساكن الفخمة والقصور الأنيقة التي تطل على نهر دجلة، والتي شيدتها الأسر الموسرة والجاليات الأجنبية الثرية التي كانت تقطن بغداد فقد هجرها أهلها، وأصبحت مثل قبور بواجهاتها العريضة وقد غطتها الرياح بطبقة خفيفة من رماد الحرب، بغداد خالية، فلم يبق في أزقتها سوى جندرمة يطاردون الهاربين من الزجري والسفر برلك لإعدامهم، أو إعدام المتعاونين مع الإنكليز، وفي كل مكان هنالك عربات تحمل ضحايا الأوبئة إلى المقبرة.

بغداد نائمة وفي عتمة ليلها جنود يشيدون عنابرهم عند مدخل المدينة في باب السلطان، جندرمة يحفرون الخنادق قرب الثكنات، ملازمون حذرون يسيرون في الأزقة الضيقة يحملون بنادقهم وقسطوراتهم، قطارات تحمل الجنود والعتاد والذخيرة ترابط عند حدود المدينة، وفي النهر أكلاك تشاهد وهي طافية تحمل البنادق والقنابل والمدافع الخفيفة، ومن داخل المدينة كانت منازل التجار قد استولى عليها الضباط وحولوها إلى مستشفيات حربية، أما منازل الفقراء فقد حولوها إلى منازل للذخيرة، والمشهد الجديد هو مشهد الممرضات الألمانيات الشقراوات اللواتي يسرن برفقة ضباط أتراك ويعبرن المدينة.

أما خارج سور المدينة فقد كانت التلال الخضراء تمتد حتى تتلاشى، ولا شيء سوى حطام لطيارات محطمة ألمانية وإنجليزية، وجرحى يعصبون رؤوسهم بالضمادات ينتظرون حملهم في القطارات، وهناك جرحى وصلوا إلى المدينة وهم سابحون بدمائهم يدخلون إلى الجوامع بحثا عن شيء يأكلونه، أما الهاربون من الزجري والسفربرلك فقد كانت الجندرمة تلاحقهم من مكان إلى مكان، وعند البازار الكبير المحاذي للسور من جهة الكرنتينة كانت هناك على الدوام جثث المشنوقين التي تتأرجح في الهواء، والمخوزقين على المنصات الخشبية شبه المهدمة.



بغداد ساكنة في الربيع، وفي دروبها الملتفة آلاف من الرجال والنساء وهم ينظرون إلى جثث أبنائهم المرمية في المقابر وينتظرون زوالها، مثلما ينظر أهل بابل في الربيع زوال الطيور المهاجرة عند منحنى النهر.

*

لقد كان الصراع مستمرا بين منيب أفندي والشيخ أمين، وكل واحد منهما يحمل في يده رهانه، رهان الدولة الإسلامية التي تتقهقر ورهان الغرب الذي يتقدم، وكان كلاهما بين نارين نار الاستبداد العثماني ونار الاحتلال الكولنيالي لمدينتهما، وفي الطرف الآخر، كان حارس القشلة محمود بك البغدادي، والذي كان ضابطا في الجندرمة العثمانية هو الذي شهد هذا التحول بأكمله، عبر امتياز واحد، امتياز من يطل من برج القشلة ويرى بغداد برمتها من الأعلى، فالمسألة هنا - وعلى خلاف كل مرة-لا تتعلق بمن يسرد الأحداث، إنما بمن يرى الأحداث، ويشهد على عصر بأكمله، فمحمود بك الذي يطل من برج القشلة وحده الذي عرف ما حدث في هذه المدينة الآسيوية لحظة صعود الغرب في الحرب العالمية الأولى، لحظة دخول الجيوش الكولنيالية المحتلة ببهرجتها العسكرية المهيبة وقد اصطف جنودها وضباطها وممرضاتها من إنكليز وسيخ وهنود وكركة تحت سعف النخيل وظلال البساتين عند النهر، وفي الليل وقفوا بملابسهم الكاكية المميزة تحت شعاع الفوانيس المرتعش في الجادة الجديدة.

كان محمود بك ينظر من نافذة البرج المطل على المدينة إلى تقهقر الإمبراطورية العثمانية، وفي الوقت ذاته إلى دخول طلائع الغرب لتحل محلها إلى الأبد، وقد شيدت نظراته معمارا من الحكي يقارب أو يناظر المعمار المشيد على الأرض، فقد تكونت مدينة بغداد من الأزقة الملتوية- مثل خطوط طيران السنونو الملتوية على بعضها وهي تحلق في طيرانها اللعوب- ومن الطرقات التي لا تؤدي، والدروب التي تلتف



وتتشربك على نفسها، وكانت القرائن على الأرض تحدد ذاكرة محمود بك وهي تدور مثل الدروب الصغيرة بحلقات ولوالب لا تنتهي، وسوف تشهد حتى النهاية ما شهده محمود بك، فإن صنع منه الإنكليز وليمة عارية يوم دخولهم إلى بغداد، فقد كان هو أيضا شاهدا على وليمة عارية.



ـ ٢ ـ

ليلة في حياة حارس القشلة

بغداد ١٩١٧




مكتبة
الفكر الجديد

قبل يوم واحد من دخول الإنكليز إلى بغداد، أول المساء، عاد محمود بك على جواده الأبيض إلى برج القشلة همايوني، وهو يسير ببطء شديد بمحاذاة الحائط، كانت جادة قنبر علي الضيقة مقطوعة هذه الليلة، ومياه المطر الموحلة تتقلب وتدور حتى كاد أن يسقط مرتين في الترعة، كاد سير السرج المصنوع من الجلد الأسود أن ينقطع به، إلا أنه وقف قريبا من حظيرة الخيول، تحت مصباح الزيت المطفأ، عدل طربوشه الأحمر بيديه كلتيهما وسار.

(مساك الله بالخير...). قال له ميرزا صالح وهو في طريقه إلى الميدان.

(عريف عبد الله... غايب... هذا اليوم... اعذره...). قال شوكت أفندي وهو يركب جحشه الأبيض بعد أن وضع وسادة من الريش على ظهره وأنزل قدميه من جهة واحدة.

قبالة بوابة القشلة الكبيرة كانت عربة اللاندون المتوقفة، طويلة، مائلة نحو الحائط، وأقدام الحوذي الحافية والمشققة متشبثة بالخشبة الطويلة الموضوعة خلف الجياد الأربعة، قال له:

(دير بالك من الخشبة... أقدامك مطينة... والسماء تمطر) فهز له رأسه.



كانت جياد عربة اللاندون شقراء وأكفالها مدورة، وقد حزت بها سيور الجلد، فانسلخ اللحم، وظهرت رغوة صفراء بين السير الجلدي واللحم المسلوخ، الذيول مرفوعة، والسرقين الذي يتصاعد منه البخار يتساقط على الوحل، فيصدر صوتا مكتوما بعد ارتطامه بالأرض.

سار ببطء شديد، ووراءه دربكة البغال والحمير، وصياح المكارية والحوذية والشقاوات، وقد عرف بأن عليه أن يمسك العنان بقوة، ويعدل رأسه إلى الأعلى، كان طربوشه الأحمر يحز جبينه، أما النياشين الحمر فقد كانت لامعة على كتفه الأيسر، وقد أمسك بيده اليمنى عصا التبختر المصنوعة من خشب الجوز.

(باد شاهم جوق يشا). صرخ قبل أن يصل إلى رأس جادة السراي.

كان مقهى الشاهبندر مزدحما بالأفندية وأصحاب الجراويات التي يلفونها على رؤوسهم، وأصحاب العرقشينات البيض التي يرتديها العرب بدلا من الطرابيش التركية، وأصحاب العمائم الجالسين على التخوت الخشبية والمفروشة بالبسط الصوف التي نصلت ألوانها، وفي تلك اللحظة تعالى صياحهم وصراخهم المسعور، ثم خرج من بين أقدامهم ديك أحمر اللون يخر الدم من منقاره، ففاجأتهم صيحة محمود بك القوية وفززتهم، فتركوا الديوك وسط حلبة المصارعة بين التخوت، ووقفوا منتصبين حتى مر دون أن ينظر نحوهم.

(عليك أن تكون كثير التحكم بنفسك، أن تكون قويا هذه الأيام التي تمتحن فيها الأمة الإسلامية) قال له الشيخ أمين أمس مساء عند الميضأة في جامع الآصفية، قالها وهو يخرط الماء من ذراعيه مرة بعد مرة.

(اهرب. . . اهرب. . . النصر للأمة الأقوى والأمة الإنكليزية أقوى من الأمة العثمانية. . .). قال له منيب أفندي حين رآه في خان رحمين بصري بين تجار الفوط والجراغد والعباءات وهما في طريقهما إلى القهوخانة، كانت جادة خليل باشا مزدحة بالناس، فبعد أن سمعوا بأسر



طوزند تجمعوا، وغنى لهم صالح شمولي الكمانجي (عبدك وأريد أنخاك) فغنت الأمة كلها وراءه.

*

سار محمود بك على جواده ببطء، دون أن يلتفت، كان اللمبجي يسير بمعطفه الكاكي وغطرته البيضاء بعد أن وضع عليها طربوشه الأحمر الممزق الحواف، يسير بجردله الأسمر ومشعله الطويل الذي يوقد به الفوانيس الألمانية الكبيرة واللوكسات وقناديل الزيت من عقد الصخر إلى الأكمكخانة. بمواجهته كان جدار برج القشلة همايوني يرتفع عاليا مثل سور عظيم، لونه أصفر قاتم، مصنوع من الطوب الكرماني، الشبابيك العظيمة مرقومة بقضبان حديدية، صلبة، سوداء، وهناك خصيان السراي، وجنود القلعة، والبكجية أو حراس البوابة، وجندرمة القشلة همايوني، وحين مر قرب بوابتها العظيمة على جواده الأبيض، سمع الأوامر العسكرية من وراء الجدار، قوية، حادة، مرتجفة.

مر من مدفع القلعة أو الطوب الذي يستقر منذ قرون عند الباب، طوب أبو خزامة موضوع على منصة مبنية من سلاسل ضخمة، وأمامه هرم صغير من الكرات الحديدية السود.

أدار جواده جهة البوابة التي يحرسها الخفراء بالبنادق والسيوف، وتقدم ببطء ببزته العسكرية ونياشينه الحربية وطربوشه الأحمر. صرخ آمر المخفر بالتركية... فوقف الجندرمة بالملابس المعتمة، والطرابيش المائلة، والبساطير السود، والحراب المشكوكة... وقفوا جميعهم. أدوا التحية، فتح الحارس الباب، دخل. هنالك عربات خشبية كبيرة محملة بالبارود، عربات خشبية كبيرة محملة بالملابس، عربات صغيرة تجرها البغال محملة بالأطعمة، ورائحة القلاطة التركية، وخبز البقسماط تفوح عبر الشقوق.

كان الباب الداخلي للبرج مغلقا بالمزلاج، وفيه لفة حديدية تنزلق بقوة، وبصوت عال، فتحها الحارس، فصرّت بصوت مسموع في كل



القشلة، وحين دخل سمع صوت ارتطام المزلاج وراءه، صوت الذراع الطويلة المائلة، وحافتها الحديدية المدورة وهي ترتطم بالحافة المقطوعة الحادة.

نظر وراءه: هنالك عربة... وقف أمامها بضعة ضباط، وتحت القمرة الكاكية وقف السلاحدار حاملا سيف الوالي وعلى رأسه قلنسوة من القطيفة الحمراء، وجهه أبيض، ويداه طويلتان خمريتان، كان يتحدث مع رجل يحمل كتابا كبيرا، وقد وضع عمامته مردودة للوراء، فتدلت خصلة من شعره الأشيب على جبينه، وقد عرفه إنه شيخ الإسلام، ما أن يراه يضحك... يتذكر سخرية منيب أفندي منه: عباءته البشت مثل الخيش الفارغ، وقد قصها من الجانبين، فهبطت يداه بأكمام عريضة، وعمامته البرشانة مكورة:

(برشان... دستارلي). صاح منيب أفندي ساخرا.

ساعة القشلة متوقفة هذا اليوم، عقاربها في الساعة الزوالية الإفرنجية تدور على حروفها اللاتينية الكبيرة، أما عقاربها في التوقيت المحلي فواقفة، ولم يدق ناقوسها ليوقظ الجنود الخيالة للتدريب مثل كل يوم، سمع الكهيسي يتحدث عن نفر الجندرمة الذي يحمل الهندر ويقوم بنصبها كل مساء، برجها فارغ، وقد ارتفع وجهاها مثل مئذنة، ومن خلفها ثمة باب خشبي أحمر داخل ساحة القشلة من جهة اليمين، يفضي إلى ممر طويل مبلط بالمرمر، والفوانيس الكبيرة تلقي بنورها الباهت تحت السقف المائل، تحت السقف المموج.

وقف محمود بك هناك أول الأمر قبل صعوده إلى البرج، سار تحت الضوء، ضوء أصفر ذابل يسقط على الأرض، ويقطع العتمة بشكل حاد، وإلى اليسار هنالك الجنود التفكجية وبضعة جندرمة يتلقون الأوامر: طرابيشهم مثل الأقماع المفلطحة، بينما السيور الجلدية العريضة تتوتر على كروشهم، أما شواربهم، فقد صعدت إلى الأعلى، وشعراتها دخلت في أنوفهم.



(نصف وجوههم شوارب). يقول منيب الذي حلق شواربه مثل خواجة، كتلة من الشعر المبعثر تندفع للأمام وتهتز في العتمة حين يتكلمون. صمت... (... تعال). ركض من العتمة نحوه إلى النور.

(أفندينا...) صرخ.

كرشه جاء قبله، بسطاره معوج من الأمام، وقد برز رأسه إلى الأعلى بقوة. البنطلون مثل القمع الفارغ، انضغط عند حجليه وانفتحت فوهته لتحتضن كرشه، ارتد رأسه إلى الوراء، طربوشه المستطيل ارتد إلى الوراء، أسنانه الأمامية مخلعة، حواجبه السود كثيفة، عيناه غائرتان تحت الشعر، وشواربه مثل شعفة متناثرة من الشعر ملزوقة وسط وجهه، وقد لف حول رقبته كوفية مصنوعة من الصوف، ووضع يده على سيفه: (أفندينا...). صرخ. وضرب قدمه على الأرض، فكاد يسقط للوراء.

(عفارم... حوادث أكو؟).

(حوادث ماكو... أفندينا).

(عفارم... القلغ والحبس خانة تمام؟).

(تمام... أفندينا).

دار دورتين على القلغ والحبس خانة، وقد تكوم المسجونون في الظلمة واحدا فوق الآخر، بعضهم تعلق بالكوة الصغيرة ليتنفس الهواء: مجانين، شحاذون، هاربون من السفر برلك، لصوص، قطاع طرق، سياسيون، كانت هناك ضجة من الحديد تهتز في العتمة، العريف تحت ضوء الفوانيس يدور معه، وكلما يواجهه يرفع يده للتحية، الأرض الرطبة كامدة في الظلام، وبقع من الماء تلمع وتهتز كلما خبطت بها بساطير الجندرمة. (كل نفر حاضر).

(كل... أفندينا).

(... شاتردر).



استدار بسرعة، كاد طربوشه أن يسقط على الأرض، فتلقفه بيده. كان ظهره مقوسا لأن كرشه قد سحبه إلى الأمام، وحزامه الجلدي العريض قد انعكص، وهبطت جاكتته وهي تحتضن الكرش، أما مؤخرته فقد ارتدت إلى الوراء. لحظة... ثم هرول، وهو يمسك سيفه بيده، وباليد الأخرى يمسك البنطلون العريض كي لا ينزل للأسفل، ومن بعيد كان ألاي جاويش بزيه المعتاد وخلفه القابجية وهم ينادون بالتركية: (يارن ألاي... يارن ألاي).

وقد عرف محمود بك أن موكب طوغان باشا ركابدار السلطان سيصل غدا، ركابدار الأودة همايوني الذي يحفظ نعال السلطان، ويمسك له ركاب الفرس حتى يثبت قدمه فيه، سيأتي إلى بغداد غدا، هذا يعني أن بغداد ستصمد يوما آخر.

صعد محمود بك إلى البرج، فتح الباب الخشبية لحجرة المراقبة، دخل إلى العتمة، مد يده إلى الأعلى وأشعل الفانوس المعلق على الحائط، خلع طربوشه ووضعه على مسمار مثبت قرب الفانوس، كانت طاولة الكتابة أو البشتختة والكرسي الخشب قريبين من نافذة البرج الحديدية، تحرك نحو الطاولة الخشبية، وقف عندها ونظر من النافذة فرأى بضعة نساء يحملن وليدا يدرن به حول مدفع القشلة حماية له من الأمراض. وهنالك عاقر تضع البوشي الأسود المصنوع من قماش البازمة على وجهها خمارا، وتشعل حول المدفع الشموع، وتعقد بسلاسله أشرطة من القماش. منيب أفندي يسخر من طوب أبو خزامة ومن كراماته، والشيخ أمين يقول هو الذي حمى بغداد طوال هذه السنين.

رفع رأسه قليلا فرأى اللمبجي ما زال يشعل الفوانيس في الزقاق المقابل للقشلة واحدا بعد آخر، عبود ابن خديجة... عبود اللمبجي، كان يعمل قبل المشروطية في خان الأورطمة... تذكر وجهه الأسمر، كان يعمل في الخان المسقف، يتحدث على الدوام بالتركية مع موظفي الرسوم التابعة للولاية. نظر إليه الآن... قذر، لحيته لم يمسسها



الموس، معطفه العسكري الطويل ممزق منذ حرب القفقاس. . . يضع الكوفية على رأسه ويتحدث مع عمر أفندي في نهاية الزقاق المبلط بالصخر، كان الماء يصعد شيئا فشيئا، يعبر عمر أفندي وصوته يختفي في الظلام، ينعطف يمينا ويتلاشى في الطريق المؤدي إلى جديد حسن باشا. . . كان عبود وسيما، لا بد أنه كان يحب واحدة من بنات عقد الصخر أو من بنات الدنكجية أو من بنات باب الأغا؟ سنية بنت المميز. . . لا. . . مريم بنت سمعان. . . لا. . . بائعة الفجل التي كانت تأتي من الشوصة تحمل على رأسها كور الفجل مثل عرف الديك، يصعد ويهبط، يصعد ويهبط. . . لا. . . الأرمنية التي كان بيتهم قرب القونصلخانة، الأرمنية التي تلبس الإزار الملون، وتضع الخمار الحريري الخفيف على وجهها.

مرة حين كان محمود بك صغيرا:

صعد على سطح بيت معالي سعيد الخوجة، قبل أن يصبح رئيس ركن في الجيش العثماني، وأخذ ينظر من رازونة السياج، رآها داخل الحوش وهي تربط الوزة من قدمها، ثم تشد الحبل بباب القن، ومن خلفها يثغو خروف صغير، هنالك معزة سوداء، وديك رومي يطلق صوتا غريبا في الباحة. أطل برأسه وهو ينظر إليها، انحنت بمؤخرتها الكبيرة فارتفع ذيل الدشداشة، ظهر ساقاها البيضاوان وقد ربطتهما عند الكاحل بخلخالين ذهبيين.

هبط والدها من السلم بهدوء، وجهه الأحمر، قامته القصيرة، وكرشه الصغير هو ما يجعله مخيفا. كان صوت صندله يطبّ على السلم حتى يصبح في الحوش المبلط بالطابوق، الحوش الذي تطل عليه الشبابيك الخشبية المزخرفة بالشناشيل، صلعته الكبيرة يغطيها بالطربوش حتى في المنزل، ويمسك بيده المهفة، يهفّ وصوت الخروف يدوي في الباحة أجشا ومخنوقا، كان هنالك باب موارب صغير، وبالقرب منه تخت خشبي تجلس عليه امرأة كبيرة في السن، صغيرة الجسم، نحيفة،



وشعرها مكشوف، ترطن على الدوام بلغة غريبة مع امرأة قوية الجسم، سمينة، ترتدي فستانا مخططا، وسيقانها الغليظة تمدها وهي تغسل الطناجر والصحون القاشانية والأكواب البورسلين على النافورة الصغيرة وسط باحة المنزل.

كان محمود ينظرها وهي تجلس على التخت بقميصها الواسع المصنوع من حرير أبيض، ينظرها فيبحّ صوته، زيق الصدر مفتوح، وشعرها الأسود الكث منثور على أكتافها.

(بياتريس..). تصيح أمها وهي تغسل الأواني على النافورة.

حين يراها في الطريق يشم فيها رائحة النظافة، يشم فيها رائحة الأرمن الذين يستخدمون الصابون.

هل كان ابن خديجة يحبها؟ لو لم يكن أخذوه بالسفر برلك إلى الحرب، لكان تزوجها. هل كان والدها يوافق أن يزوج ابنته للبقال المسلم؟ كل المسلمين في قنبر علي سي لا يغسلون وجوههم كما يقول المسيحيون:

خرج آرى من منزله، سار في شارع محلة قنبر علي أصفر مثل الليرة الرقراقة، ضربته الشمس فاحمر خداه البضان، والتمع شعره الذهبي الذي هبطت خصلة منه على جبينه، اقترب منه محمود وقال له: (تعال... نلعب). صرخ بوجهه باستهزاء: (نلعب... ها.. روح اغسل وجهك... وسخ!). ذهب إلى الترعة وأخذ يغسل وجهه، يغسل ويغسل، ومع ذلك بقي وجهه أسمر، ولم يصبح وجهه مثل وجه آرى أبيض، ولم يصبح شعره أصفر مثل الليرة الرقراقة.

*

كان عبود جالسا في متجره في خان الأورطمة، وهو يدخن بشبوقه، يدخن فيصعد الدخان وراءه، وحين دخل محمود متجر عبود ليشترى كيلة رز عنبر كما أوصاه جده، وجد بياتريس هناك وقد أزاحت الخمار عن



وجهها، كانت تنظر نحوه بعينين ذائبتين وقد احمر خداها من الخجل. حين اقترب أكثر، ناوله عبود ابن خديجة ثلاث ملبسات وقال له: (روح من هنا..).

وضع الملبسات الثلاث في قبضة يده، ضمها بقوة، وركض في الزقاق المؤدي إلى منزل جده القريب من خان الأورطمة، وعند بركة الماء الكبيرة التي بناها الباشا سري الكريدي، بركة الماء التي ينكسر فيها الضوء، رمى محمود الملبسات الثلاث، كان بغل سعدون المكاري يقف عند الترعة يشرب ثم يرفع رأسه ويهزه ليطرد الذباب الذي يتجمع على عينيه وعلى فمه، رماها في المزبلة التي هم الزبال بحملها وهو يدق بناقوسه على الناس (زبال... زبال) فتح يده، لم يضع الملبسات في فمه، رماها في الزبالة، ولم يقل لأحد أنه رأى بنت الأرمني مع عبود ابن خديجة، أبدا... لكنه حقد عليه وكرهه، وفرح حينما أخذه جندرمة القشلة همايوني للسفربرلك.

قبل أن يذهب محمود إلى استنبول ليدرس في المدرسة العسكرية رأته سعدية بنت سمعان، فسألها عن بياتريس، قالت له بأن بنت بطرس الأرمني تزوجت بعد المشروطية وراحت إلى الموصل، كان من الممكن أن تتزوج عبود ابن خديجة، لو قالت لوالدها بطرس إن عبود ابن خديجة قال لها بأنه يريد الزواج منها، أو لو وقفت هي أمام والدها وقالت له إنها تريد الزواج من البقال المسلم.

سيرفض بطرس أول الأمر بالتأكيد، لكن أمها التي كانت تغسل الأواني قرب النافورة وسط الحوش المبلط بالطابوق ستتوسله أن يقبل بالبقال المسلم، سيرفض هو في النهار وسيقبل في الليل، ثم ستتوسله جدتها التي كانت تجلس على التخت الذي اشتراه بطرس من خان اليهود في المربعة أو تحت التكية، أو لا هذا ولا ذاك، إنما بياتريس ذاتها ستقف أمامه بزيقها المفتوح، ستقف أمام بطرس الجالس على التخت وبيده المهفة، تقبل قدمه أول الأمر، ثم تقول له:



(لو تزوجني للبقال المسلم. . . لو تقتلني).

وفضل أن يزوجها للبقال المسلم بدلا من أن يقتلها، أو يزوجها بالقوة لأرمني يعرفه، يقول الشيخ أمين: (المسيحي يمشي وراء المرأة حتى لو ضربته بالكالوش).

(احترام المرأة واجب. . .). يقول منيب أفندي الذي أثرت عليه الفكرة القردية التي جاء بها جميل أفندي الزهاوي من استنبول إلى بغداد، جاء بها من الزنادقة الأتراك: صفاء بك، وتوفيق أفندي فكرت، وعبد الحق أفندي حامت، كما يقول الشيخ أمين، هذه الفكرة يؤمن بها كل الأفندية الذين يقرءون الكتب المصرية. . والمجلات المصرية مثل المقتطف والهلال والجامعة، مع ذلك، لو تزوجت بياتريس في بغداد من عبود ابن خديجة لرآها محمود بك كل يوم تقريبا في الجادة، أو لراقبها من نافذة برج القشلة همايوني، أو رآها يوم الأحد عند الكليادسي، وحين يمر تنظره من الشناشيل وهو يسير على جواده الأطهم، والنياشين تلمع على أكتافه، والجندرمة يسيرون خلفه، قلبه يدق، ويداه ترتجفان، وصوت سنابك الخيل تدق على الأرض الصلبة، وحين يصل إلى برج القشلة همايوني، يرسل ثلاثة من الجندرمة إلى عبود ابن خديجة زوج الأرمنية بياترس بنت بطرس، ويرميه في القلغ أو الحبس خانة. عند ذاك فقط تعرف بياتريس أهميته، ويعرف عبود ابن خديجة الذي أعطاه ثلاث ملبسات -كي يصرفه- أهميته:

تأتي بياتريس وهي تضع الخمار الخفيف أو البوشي على وجهها، وتمسك الإزار الملون الملفوف على بطنها، وخنصرها الأبيض السمين معصور بالخاتم الذهبي الذي يلمع على ضوء فانوس البرج المثبت في الحائط أمامه. تحني رأسها قليلا ثم ترفع يدها إلى وجهها وتنزل خمارها: ملامحها هادئة، شاحبة، رقيقة، وناعمة، يكشف الموسلين الأبيض الشفاف عن جيدها الأبيض وخصلات شعرها الشقراء وهي تتساقط على الرقبة.



ينهض محمود بك من مكانه في البرج، يضع الريشة الطويلة في دواة الحبر ويخطو أمامها.

بين لحظة وأخرى ينظر إلى حاجبيها المقوسين، إلى شفتيها الحمراوين، إلى جبينها الأبيض الواسع، ثم يصرخ بقوة، فيصعد الجندرمة إلى الحجرة أمامه.

ستعرف بنت الأرمني لحظتها من يكون، لم يعد الطفل الذي يضعون بيده ملبسات ثلاث، سترى بعينيها مقدار السلطة التي يملكها، وسيعرف عبود ابن خديجة من هو محمود ابن نجيبة. وسيعرف أهل قنبر علي وأهل القشل وأهل جديد حسن باشا من هو محمود بك، سيمسك عصا الجوز بيده ويخطو متبخترا أمامها، وسترى بياتريس الجندرمة الذين تخافهم، والذين وضعوا زوجها عبود ابن خديجة في القلغ، وهم يحنون رؤوسهم ويتمتمون: (نعم أفندينا. . . نعم أفندينا).

فيأمرهم: (أطلقوا سراح عبود من الحبس خانة. .) بصوت عال.

(حازر أفندينا. .) وقد هزوا رؤوسهم، ووضعوا أيديهم على صدورهم.

(اعتذروا للخاتون. .) يقولها بصوت واثق.

(عبيدك خاتون. . . خدامك خاتون) وهم يرفعون أيديهم على رؤوسهم ويخفضونها، يرفعون أيديهم ويخفضونها. يمد يده في الجرار ويخرج الملبسة التي كان عبود قد أعطاها له منذ كان صغيرا «لو لم يرمها في الزبالة طبعا» وقد بهت لونها وشحبت وذابت، قدمها لها فامتنعت قليلا، ثم أخذتها، أغلقت الباب وراءها وهبطت السلم.

كل هذا، كان يمكن أن يكون. . . لو أنه لم يرم الملبسات الثلاث بالزبالة، كل هذا كان يمكن أن يكون لو لم يأخذ الجندرمة عبود ابن خديجة للسفر برلك، فباع أهله دكانه في خان الأورطمة، وحين عاد وجد بياتريس وقد تزوجت من ابن عمها الأرمني الذي يسكن في



الموصل، واشترى دكانه رحمين بصري التاجر اليهودي الذي يسكن تحت التكية قرب بيت ناجي الباججي، وكل شيء تغير في بغداد مع الحرب، وما كان بعد أن فقد ذراعه سوى أن يحمل جردل النفط على كتف الذراع المقطوعة والمشعل باليد الأخرى، ويوقد فوانيس ولوكسات الولاية من باب الشيخ إلى عقد الصخر.

*

استدار محمود بك نصف استدارة فارتطمت قدمه بالطاولة التي أمامه، جلس على كرسي الخيزران ووضع ساقا على ساق، فأصبح الحائط الأبيض أمامه، كانت عصا الجوز بيده اليمنى يرفعها ويخفضها، يرفعها ويخفضها. . . ثم أخذ يضرب بها على بسطاره الأسود الثقيل، أخذ يضرب بعصبية تقريبا، لأنه شعر بحزن خفيف مر في نفسه لم يستطع أن يتغلب عليه، لقد أحبها فلماذا ينكر، لقد أحب بنت الأرمني، أحبها وخاف منها في آن واحد، كان يشعر بشيء غامض في جسدها، شيء مكتوم في جسدها الأبيض لم يستطع حل لغزه طوال السنوات التي مرت، شيء لم يعرف كنهه ذلك الوقت، ومع ذلك حاول أن يجد له حلا مع بعض الأرمنيات اللواتي جئن إلى بغداد راقصات بعد المشروطية، بعد انتصار الدستور، والراقصات والملاهي وشرب العرق واحدة من فضائل الدستور بل هو كل فضيلة الدستور، حتى ظن أكثر أهالي بغداد أن الدستور هو العرق أبو العقدة وراقصة في ملهى الهلال، وحين عادت بهيجة الوردية وهي أكبر عاهرة في الولاية إلى بغداد سماها الناس (دستور خاتون)، لأنها الشيء الوحيد الذي تغير بعد عودة الدستور، ولو لا الراقصات اللواتي جئن بعد الدستور ما كان لمحمود أن يعرف هذه المشاعر التي كان يحس بها، يشعر بها دون أن يعرفها، أو يدركها أو يفهمها على الإطلاق، وفي اليوم الذي ضاجع به الراقصة الأرمنية التي تعمل في ملهى الهلال في الميدان اقترب من معرفة هذا السر:

البياض هو الذي يخيفه. . . إنه النظافة بعينها، النظافة والبياض



يتوحدان في جسد كل أرمنية، لا بل في جسد كل مسيحية، كان يشم بها رائحة الصابون التي يحبها ويشتهيها والتي يخافها أيضا، الوجه البيضوي الأبيض، والرموش السود المخضبة بالسورمة، وحمرة الشفاه مودة المسيحيات في عقد النصارى وقنبر علي تلك الأيام، وحين دخل ملهى الهلال في الميدان أول مرة، بعد إعلان المشروطية، رأى الراقصات القادمات من حلب ومن ماردين فأخذت يداه ترتعشان، واضطربت قدماه:

كان الملهى شبه مظلم، وقد انتشرت التخوت والطاولات التي تحمل زجاجات العرق المخمر في القوش وبعشيقة، كانت رائحة الخمرة قوية نفاذة وصوت الموسيقى عاليا، وقد وقفت رحلو الحلبية على المنصة، وجهها مكشوف، وشفاهها مخضبة بالحمرة، وأمامها راقصة أرمنية تهز وقد كشفت عن أعلى صدرها الأبيض وهي تحمل العصا، فانقلب الملهى رأسا على عقب، لقد خر الأفندية صرعى لرفعة ساق من الراقصة الأرمنية كشفت قليلا عن فخذها الأبيض، كل الأفندية خلعوا الطرابيش وأخذوا يلطمون على رؤوسهم، وحتى منيب أفندي الذي كان جالسا مع معروف أفندي الرصافي يشربان الخمرة ويمصان النراجيل المعمرة بالتبغ والأفيون، أخذا يلطمان على رأسيهما، ما كان لأحد أن يصمد لغمزة من هذه الدلوعة أو ابتسامة من طرف الفم، وحين اتهم الشيخ أمين مرة منيب أفندي إنه يحب الفكرة الأوربية لأنه يحب الخلاعة والمياعة، قال له منيب أفندي:

(ليش هذي عيب... منو ما يحب نسوان الدلاعة والمياعة...).

وحتى الشيخ أمين، ضبطه محمود بك أكثر من مرة في بروذل ماريا هانم، مع القحبة الفرنساوية التي فتحت فيما بعد قحبة خانة مستقلة في شارع بي أوغلو في استنبول، وقد ارتاده كل البغداديين الشيوخ والأفندية، وأولهم معرف أفندي الرصافي.

*



سافر معروف أفندي الرصافي إلى استنبول على البغلة البيضاء التي أعارها إياه عبد اللطيف أبو كران، وهو يرتدي العباءة والعمامة والكلاش، كان ذلك بعد أن حدثت الحركة المشروطية والانقلاب العثماني ضد السلطان عبد الحميد، وقد دعاه أحمد جودت صاحب صحيفة إقدام التركية ليعمل معه، وبعد أيام من وصوله نفدت نقوده، فسافر إلى سالونيك ليلتقي بمحمود شوكت البغدادي الذي كان قائد الجيش هناك، وفي الطريق ألقى عليه الدرك القبض ظنا منهم أنه من الحركة الإرتجاعية التي قام بها رجال الدين لنصرة السلطان المخلوع، وقد ضربوه وسجنوه وحين أطلقوه، عد هذا من جناية العمامة عليه. في منزل عبد الله آيدن، في أزمير، أمام بلقيس التركية التي تزوجها فيما بعد، رمى معروف أفندي عمامته وعباءته وكلاشه، وارتدى الملابس الإفرنجية، وضع الطربوش الأحمر على رأسه، وقبض على عصا مفضضة كان شباب الأتراك يحملونها للزينة، لقد أصبح جديدا في كل شيء، أصبح جديدا في ملابسه ومطاعمه وأفكاره، لقد أصبح من جماعة الدستور، وخاض في الحياة العمومية، لهو وسكر وعربدة في بروذل ماريا هانم، ولا ينكر الشيخ أمين تردده على البروذل في تركيا، ولا على منزول القحاب في الميدان والذي يقع في الجهة المقابلة من رأس الكنيسة، وحين سأله محمود بك:

(كيف... ؟).

قال له: (المسيحيات مشركات... حلال على المسلمين... جعلهن الله لي بقرة...).

ما كان الشيخ أمين يهمه بطبيعة الأمر أن يصبح ثورا مع بقرة فرنساوية في بروذل ماريا هانم، أو في قحبخانة باي أوغلو وسط مدينة استنبول، أو مع آثورية أو أرمنية أو هاربة مسيحية أو معيدية في منزول الميدان الذي تديره معاني خاتون وأخواتها، أو ملهى الهلال في الميدان الذي تديره رحلو خاتون التي جاءت من حلب بعد المشروطية، ومعها



راقصات عديدات، لهن كل هذا اللحم الأبيض والشعر الأشقر، فهو ثور هائج يتمتع ولا يشبع، وأقسم منيب أفندي بأنه رآه أكثر من مرة يشرب الخمرة مع أحمد الملي وحمدي المدرس، وهم يغنون:

(وحللها ابن مريم للنصارى ويشربها اليهود على الكليم).

وحين علم يسري باشا بهذا الأمر، غضب على المدرس ونفاه إلى جزيرة رودس، وأحيانا يسهر الليل كله في قصر آل كبة على الجانب الشرقي من نهر دجلة مع عبد الغفار الأخرس وحيدر الحلي، وجعفر الشرقي وعباس العاملي والسيد كاظم مرزا الذي يشربها «حسوة من بعد حسوة» وحين يفرغ الزجاجة المضلعة ويضربه هواء دجلة البارد، يعدل عمامته بيديه ويغني قصيدة السيد الحبوبي:

(يا غزال الكرخ وواجدي عليك).

فيقول الشيخ أمين: (حلال على السيد.. ليش لا.. يكسر خمار الصبح ويؤذن الفجر...).

*

عدل محمود بك طربوشه الأحمر بيده، وهو جالس على طاولة الرصافي ومنيب أفندي، مز من عرق بعشيقة مزة أو مزتين، وحين صدح صوت رحلو الحلبية (حنا يا قطر الندى) ضرب الكحول برأسه، خلع طربوشه ونهض من مكانه وأخذ يتطوح مع الراقصة البيضاء، ضابط صغير في الجيش العثماني يتطوح في ملهى الهلال مع الراقصة الأرمنية، بينما هاج وماج رواد الملهى وهم يتطوحون ويصرخون مثل المجانين، وحين انتهت وصلة الرقص بعث على سليم اليهودي وقال له:

(أعطيها كل ما تريد... بس هذه الليلة... وإذا رفضت خلي تعرف أنه أنا بالضابطية العثمانية... وأقدر كل شيء أسوي).

ما كان له إلا أن يستخدم نفوذه، بغدادي يصبح بالجندرمة، بالضابطية العثمانية، من أجل ماذا غير القوة والسلطة والنفوذ؟.



وحين نام معها في الحجرة الخلفية للملهى، تحت مصباح الزيت الذي يقوقئ، في الحجرة التي تملأها العناكب، بدد خوفه للمرة الأولى من بياتريس، بدد خوفه من البياض والنظافة ورائحة الصابون، انتقم للمرة الأولى من شيء أقوى منه ومن ضابطيته وهو البياض... لقد شعر لا بالراقصة الأرمنية تحته إنما بأمة النظافة والبياض كلها تحته، لقد شعر بالفرح والخفة تجتاحانه، لقد أدرك للمرة الأولى ما معنى القوة، بل ما معنى أن تكون قويا:

أن تكون قويا يعنى أن تكون رمزا للسلطة العليا، أن تنتقم من كل شيء ومن أي شيء، حتى ممن تحبه أو ممن تخافه، حتى لو كان هذا الشيء قادما من طفولتك، أو من مراهقتك، من مكان بعيد أو من مكان قريب، وإلا ما معنى أن تكون ضابطا بالجندرمة العثمانية؟ ما معنى أن تكون في الضابطية العثمانية؟ وأنت تخاف لا من امرأة إنما من بياضها ونظافتها، القوة الحقيقية هو أن تضاجع أرمنية، راقصة في ملهى الهلال، حتى ترى أمة النظافة والبياض كلها تحتك تخافك وترهبك.

وبعد أيام حين عرف بأنها ستسافر ليوم أو يومين للموصل، تشجع، لقد شعر بقوة غير معقولة في نفسه، وقف عند الباب وفتل لها بشاربه، عدل طربوشه بيديه، نكت كتفه بأصابعه، وقال لها بكل وداعة ومياعة: (سلمي لي على بياتريس...).

-(أوي... بياتريس منو؟... ما أعرفها).

ما كان عنده غير غازيت تركية شاحبة اللون، على غلافها الأسمر صورة لواحدة تشبهها، لم تكن أرمنية في واقع الأمر لكنها تشبهها، البياض ذاته، والنظافة ذاتها، وما كان بإمكانه إلا أن يشم- ولو خيالا- رائحة الصابون منبعثة منها، غازيت يحتفظ بها منذ أن كان طالبا في المدرسة الرشدية الكائنة في الصوب الثاني من دجلة، فيمر ظهيرة كل خميس بمكتبات الأكمكخانة ودكاكين الوراقين في سوق السراي، ولا سيما على مكتبة سليمان أفندي الآلوسي، سليمان الوراق، الذي يتربع



في دكانه وسط الكتب العتيقة والغازيتات المصرية والتركية والفارسية والسورية، وسط دكانه بالضبط، منتصف شارع الأكمكخانة قبالة منزل الطبيب اليوناني يانقو الذي يزور مرضاه على حماره الأسود:

كان محمود بك يسير وهو يرتدي البذلة الإفرنجية والطربوش الأحمر، يسير في الشارع على حصانه الأطهم وهو ينظر إلى أمام، لقد حلم محمود بك بهذا الزي منذ أن كان في مدرسة الملا بايز في الحيدرخانة، منذ أن كان يجلس مع التلاميذ الصغار وهم يرتدون الطاقيات في الساحة المسقوفة وقد وقف أمامهم الملا بايز بعباءته السوداء وقصبته الطويلة وهو يرتدي العمامة البيضاء، منذ أن كان في مدرسة منيف أفندي في محلة الميدان، منذ أن كان في مدرسة الحاج حسن الأفغاني الكائنة في مسجد نجم الدين، والتي كانت مخرجا للمدرسة الرشدية التي تخرج الأفندية، وبعد أن ارتدى البذلة الإفرنجية والطربوش دخل شارع الأكمكخانة، فسمع من وراء السياج صوت هدية بنت حجي سلطان وهي تصيح:

(دادا حليمة شوفي منو... محمود صار أفندي... الخالق الناطق كوجكسي الضابطية التركي).

*

دخل دكان سليمان أفندي الآلوسي الوراق، الجدران دون ملاط ورفوف الكتب تصعد إلى السقف، وهنالك أكوام من المجلات والصحف العربية والتركية مكومة على الأرض، يتربع أمامها، يأخذ واحدة بيده يتصفحها، يرميها ويلتقط غيرها ثم يتصفحها، ويقلب الكتب المرمية يمينا وشمالا، يقلب المجلات التركية والمصرية مثل الهلال والمقتطف والجامعة التي يقرأها سرا كل الأفندية في ذلك الوقت ويحرمها كل الشيوخ والملالي والسادة وعلماء الدين لأنها تريد التشبه بالكفار، ومن تشبه بكافر فقد كفر، كما صاح المؤذن في جامع سراج الدين:



(كَفَرَ من قطع على الخوان اللحم بالسكين.. لأنه تشبه بالإفرنجة أعداء الدين). فكيف بالأفندية أصحاب الحركة الدستورية وتفريق الأمة العثمانية، وأعداء الخلافة الذين يريدون التفرنج والتشبه بعاهرات لوندرة وباريز.

كان سليمان أفندي الآلوسي طويلا، خشن الشعر، وله لحية صغيرة مدببة، يصبغها بالحنة بعض الأحيان، يجلس على الدوام في مقدمة الدكان، يجلس متربعا على دكة مستطيلة عالية وهو يقلب الكتب ويعلق عليها، وفي يوم وصل محمود بك قريبا من دكانه هبط من حصانه وربطه في وتد قريب من دكان رجب شمدين أغا، ودخل دكان سليمان الوراق. لقد رآه وهو يقلب كتب جميل أفندي الفلسفية التي صدرت في استنبول و القاهرة، كان يمسك «عليا الفلسفة» في يد و«الجاذبية وتعليلها» في اليد الأخرى، بيد أنه كان ذلك اليوم فاقدا لأعصابه، ما كان قد رآه مرة مذ أخذ يتردد على سوق الوراقين في الأكمكخانة فاقدا لأعصابه بهذه الصورة الفظيعة، يقرأ فقرة أو فقرتين من كتاب الزهاوي وشفتاه ترتجفان، ثم يبصق بعنف على الأرض، وحين يشعر باليأس تماما يصرخ بأعلى صوته:

(هذا الملحد... يستأهل الحرق...).

في الواقع ما كان لعاقل في القشلة أو في الحيدرخانة أو حتى في الجوبة أن يصدق الفكرة القردية التي يروج لها الأفندية في الخطط الإسلامية، فكيف يصدقها محمود أفندي، ما كان له أن يصدق بأن جده، وجد بياتريس، وجد منيب أفندي، وجد الشيخ أمين، وجد الزهاوي، وجد الآلوسي، وجد الوالي، وجد السلطان قرد، ولو كان على هذا الأمر لهان، ولكن إذا قبل بالفكرة القردية سيقبل بأن جد الرسول قرد، لأن أكثر ما يهم الناس في الخطة العراقية هي أنسابهم وأصولهم والوصول بها حتى آدم، هذه الجينالوجيا التي يحفظونها عن ظهر قلب:

(جبار ابن مطلك ابن عبيد ابن كاظم ابن نوشة ابن سلمان ابن حميد



ابن جزوة. . . ابن. . ابن. . ابن زين العابدين ابن الحسين ابن علي ابن أبي طالب. . .).

يفتخر أي واحد منهم بأن نسبه يعود للإمام علي مثلا، أو للرسول، أو لعمر ابن الخطاب، وحتى أوراها أفندي إبن الكرجية ادعى بأنه سيد، وإنه من أقرباء المسيح، وكان النصارى في العقد وسوق حنون يقبلون رسغه ويسمونه (مولانا).

كانوا يفتخرون لو كان واحدا من الأجداد تاجرا، لو كان مختارا، لو كان جندرمة، حتى لو كان شقاوة من الشقاوات (بس مو قرد. .). لذلك كان سليمان أفندي يرجف من الغضب وهو يتحدث بأعلى صوته مع رفيق أفندي الذي يملك مجلدخانة الكتب المجاورة له، يتحدث عن الزنادقة والملحدين أعداء الدين في الأمة العثمانية، ويترك محمود يفتش بالصناديق التي تضم عشرات الكتب والمخطوطات والمجلات دون أن يكلمه، يتحدث عن الفكرة القردية التي يروج لها شبلي شميل في الخطة المصرية، عن تنصير أمة المسلمين، وعن رخرخة الغيرة الشرفية لنسوان الأمة والتي يروج لها قاسم أمين بك في الخطة المصرية:

صرخ وهو يمسك كتاب تحرير المرأة الذي أصدره قاسم بك أمين في القاهرة ويبصق في الهواء:

(توف على قاسم أمين. . توف على أعداء الدين).

كل شيء يهون عليهم إلا شيء واحد، هو أن تتسلط المرأة وتصبح مستقلة عن إرادة راكبها في الليل والنهار، أن تتحرر يعني أن تتعهر، أن تتحرر يعني أن تضرب الرجل بالكالوش، مثل الإفرنجيات، وقد روى سليمان الوراق لجلاس المقاهي أنه قرأ فقرة في كتاب الطهطاوي في رحلته إلى باريز -قبل أن يحذفها الأفندية في الطبعات اللاحقة طبعا-أن المرأة الإفرنجية تأمر زوجها أن يغادر أحيانا من المنزل ليبيت عند أحد أصدقائه، لأنها عزمت صديقها لينام معها، وإذا رفض فإنها ستضربه بتاسوتها.



(توف على جميل أفندي. . . لك هذا تحرير لو تعهير). صرخ المجلدجي وقد جن جنونه، بينما كان سليمان أفندي يزبد ويرعد وهو يقرأ فقرة أو فقرتين من مقالة جميل أفندي الذي اتبع خطا قاسم بك في دعوة المرأة الإسلامية لترك الحجاب وتقليد المرأة الإفرنجية، كان يصرخ، يلطم، ويزبد، و محمود أفندي يقلب في صندوق الكتب المجلات التركية والمصرية التي تدعو لتحرير المرأة الإسلامية، يقلب مجلة من هنا، مجلة من هناك، وخياله منشغل بالصورة ذاتها، صورة بياتريس التي كان يراها من على سطح بيت معالي سعيد الخوجة قرب القنصلخانه، يطل من رازونة السياج على بيت بطرس وهم يتجمعون في العصرية أو في الظهرية على النافورة الكبيرة التي تتوسط المنزل، كان بطرس أفندي يجلس ببطنه العظيمة على التخت، وزوجته تسوى شعرها المسرح بيدها فتظهر ذراعها البيضاء، كانت بياترس تمسك جردل الماء وتملأه من حنفية النافورة وتنظف البيت، وكي لا يبتل ذيل الثوب كانت ترفعه قليلا وتعقده- أحيانا يراها تثرثر وهي تشرب القهوة، بينما يجلس والدها يقرقر بالنارجيلة، فيتصاعد دخان التبغ الممزوج بالأفيون في الهواء.

لو تحقق ما يريده جميل أفندي وسارت بنات الباشوات والأغوات والبكوات والسادة والأشراف في جادات بغداد سافرات مثل أي خواجية أو إفرنجية، يدخلن القهاوي ويدخّن النراجيل، ويلبسن الفساتين المكشوفة، وشعورهن على الأكتاف تنزل من البرنيطة، لرأى بياتريس بالبرنيطة والفستان الأحمر ولجلس معها في القهوخانة على الدكة الخلفية التي يجلس عليها كل يوم مع منيب أفندي و سيد عباس أغا، لثرثر معها وهو يشرب القهوة وتحتهما الملاءة البيضاء المفروشة، ولاستمع لصوتها الهامس، بدلا من الجلوس في القهاوي مع التجار والعربنجية والمكارية والحمالين والجندرمة، لو كان ما أراده جميل أفندي قد تحقق لرأى كل نسوان الأشراف دون خمار، لا بوشي ولا لزمة، دون عباءات دون إزارات، ولهذا كان الأشراف في قهوخانة سبع يقرءون بصحيفة المؤيد



مقالة يطالب فيها جميل أفندي من نساء المسلمين نزع الخمار والتشبه بالكفار، وهم يصرخون (رأس الكفر جميل أفندي. . .).

*

ذهب محمود بك يوما إلى قهوخانة الشابندر في رأس السراي ليجلس مع جميل أفندي، فجاء القهوخانجي وقد تدلى على كتفه منديل شاشي منقط بالأحمر، وهو يحمل القهوة المصبوبة بالأكواب القاشانية والبقراج ذا العروة النحاسية والشيشة المعمرة بالتنباك، وضعها عند قدمي جميل أفندي، أشعلها بالجمرة الملتهبة، وبقبق بها، ثم ناوله القصبة ومضى.

كان جميل أفندي يضع على أنفه نظارة دائرية، ولحيته المدببة قد وخطها الشيب، وتدلى شعره الطويل من حافة الطربوش على رقبته، بينما لف جسده النحيف بمعطف طويل من الصوف مثل فلاسفة أوربا، كانت بغلته التي يركبها على سرج حصان مربوطة في رأس الزقاق، وقد اتخذ كرسيا مصنوعا من جريد النخل قريبا من الفسحة الداخلية للقهوخانة، كي ينظرها من بعيد ويطمئن عليها.

جلس هناك وقد وضع إلى جانبه مجلات تركية ومصرية مثل: حريت أفكار، ثروت فنون، سبل الرشاد، والمقتطف، والجمامعة كما وضع أيضا كتاب فلسفة النشوء والارتقاء لشبلي أفندي شميل، وكتاب سر تقدم الإنجليز السكسونيين لأدمون ديلامون، والذي ترجمه أحمد فتحي باشا زغلول في القاهرة في العام ١٩٠٠، وعلى ركبته وضع بعض الصحف التركية.

*

كان ذلك اليوم هو أحد أيام شهر أبريل في بغداد، وقد جلس محمود بك قبالة جميل أفندي الزهاوي أول مرة في قهوخانة الشابندر، وقد استمع لما يقوله، نظر إليه بعينين جائعتين لا تشبعان، نظر إلى هذا الكائن التي كفرته كل الأمة، واحترمته أيضا، بفضول.



شمس يخفت شعاعها شيئا فشيئا وهي تميل نحو جهة الغروب، ونهر يتقلب بلون الرصاص الذائب يسيل في النهر ويهدر بقوة، ومفازة من النخيل والقرنفل على مقربة من القهوخانة تحمل رائحة شذية، ومن بعيد كانت بضعة نساء يسرن وقد حملن الجرار واتجهن صوب الترعة، وبين التخوت كان جميل أفندي بجسده النحيف وقد لف رأسه بطربوش أحمر، ولفاعة فارسية على عنقه رماها للوراء، كان جالسا هناك وقد وضع ساقا على ساق، يتنحنح قبل أن يتكلم، ينظر بعينين مدققتين وبطريقة فلسفية يضع قصبة النارجيلة على ركبته، وحين يتكلم، يتكلم بهدوء أول الأمر، ينغم صوته بطريقة غريبة لم يألفها الأفندية في بغداد من قبل، وشيئا فشيئا دخل بنقاش حاد وعنيف عن أعظم الاكتشافات الأوربية في الفكرة التطورية والتي تعني الفكرة القردية بطبيعة الأمر، وللمرة الأولى شاهد محمود بك الزهاوي وهو يدافع عن أفكاره بعنف، فالعنف مظهر من مظاهر النقاش عند كل واحد منهم، عند الأفندية وعند المعممين على حد سواء، وكانت العامة يعجبها أن ترى المتناقشين وهم يصرخون ويشتمون، لأن كل واحد منهم كان يؤمن بفكرته مثلما يؤمن أي ملة بشيء تعلمه بالكتاتيب، ويريد أن يفرضها على الذين يجالسونه بالقوة، مثلما يريد أي سلطان جائر أن يفرض فكرته على الناس، وكان مشهدا مألوفا في القهوخانات في بغداد أن يتناطح المتناقشون- بعد أن يعجزوا عن الكلام-بالرؤوس، أو ينهض أحدهم ويهف رأس الذي يجلس قبالته بالنارجيلة، فبعد أن يعجز العراقي عن إقناع الآخر بفكرته ماذا يفعل؟ هل يسكت؟ ينهض من مكانه، يخلع جراويته أو كاوريته أو طربوشه ويقول له:

(أخا القحبة. . . تعترف بأن الشعر راح يتخلى عن القافية مثلما تخلى القرد عن ذيله وصار إنسان. . . لو أطيّح حظك وحظ اللي خلّفك).

*



وقد أدرك محمود بك ذلك اليوم أيضا أن جميل أفندي يريد الوصول إلى مبدأ البقاء للأصلح، فلو صدق هذا المبدأ، لصدق منيب أفندي حين قال أن الأمة الإنكليزية هي الأصلح، لأنها هي الأقوى، وداروين هو نبي جديد، ورسول مبعوث نسبة للزهاوي وللأفندية في بغداد، ولأنه كذلك-بل وأكثر- فقد كفر كل من لا يؤمن به، كفر كل من رأى الحق بعينيه الاثنتين ولم يؤمن. وقد رأى محمود بك جميل أفندي في دهشته وتعجبه من الناس الذين لا يرون الحق الذي يبدو لعينيه قريبا، وهو بعيد عن عيون الناس، كان يعتقد اعتقادا جازما أنهم يرونه مثلما يراه، والفرق في صدق الطبائع ونزاهتها وفطرتها، والناس، كل الناس كذابون ومخادعون فينكرونه، أرادهم أن يروه بعيونه لا بعيونهم، ولذلك شتم الكلية السورية الإنجيلية التي طردت أدوين لويس لأنه امتدح نبي الفكرة القردية، وكفّر العلماء في النجف لأنهم طردوا السيد هبت الدين الشهرستاني بعد أن لخص الفكرة القردية في مجلة العلم، وكفّر وهو في طريقه كل من تطاول على شبلي أفندي شميل، أو يعقوب أفندي صروف، أو من آمن بالفكرة القردية، مثلما كفّره الملالي والسادة والشيوخ والمؤذنون في الجوامع، هو، وشبلي أفندي شميل، ويعقوب صروف، وكل من آمن بالفكرة القردية.

ومع ذلك كان محمود ينظر بعينيه الجائعتين اللتين لا تشبعان إلى هذا الرجل النحيف الذي يتناول فنجان القهوة ويشرب، ثم يبقبق بالنارجيلة المعمرة بالتنباك، يرفع رأسه وينفخ الدخان في الهواء، كان ينظر إلى هذا الكائن الذي يشبه الصرصار، إلى هذا الضعيف وهو متعجب عجبا شديدا، فمحمود بك الذي عاش تحت ظل البطش والعسكرة والقوة لا يحترم الضعيف حتى وإن تكلم عن القوة.

كانت القوة هي العنصر الخالد والباقي والمقدس في مجتمع يضعها فوق الحق، وحين تحدث الزهاوي عن الكون الذي لا يتناهى إنما هو ناموس دوري، وقد حكمته ونظمته القوة كما يقول الفيلسوف الألماني



نيتشة، فغر محمود بك فمه لأمرين، للقوة التي يتحدث عنها من لا يملكها، وللفيلسوف الذي سمع باسمه للمرة الأولى، وتلفت إلى الجالسين أمام الزهاوي والذين أطرقوا رؤوسهم، دون أن يجرؤ أحدهم بالسؤال عنه، على طريقة البغدادي الذي يتيه بألف درب في المحلة دون أن يسأل، لأن (السؤال. . . مذلة).

وقد بقي على عجبه ودهشته من هذا النحيف وهو يعدل جاكتته، ويرد طربوشه إلى الوراء، ينظر إليهم بإمعان، وينعطف بالحديث مرة عن نيتشة الذي يسميه نيجة، مرة عن ديلامون، مرة عن كوبرنكس، ومرة عن نيوتن الذي اكتشف الجاذبية، عن نيوتن الذي أدهش أوربا بمكتشفاته- وقد فندها الزهاوي جميعها- لقد فند هذا النحيف ذلك اليوم أمام محمود بك نظرية نيوتن الجاذبية، وذلك بعد اكتشافه للنظرية الدافعية، فصاح الذين يجالسونه مباشرة (الله أكبر. .). وقد سمع محمود بك أحد الجالسين خلفه وهو يقول: (هذا فيلسوف هذا. . . آني بضربة واحدة أكومه فوق التخت. .).

ومع ذلك تيقن محمود بك من عبقرية الزهاوي الطبيعية- حتى وإن لم يكن قويا وبإمكان أي واحد بضربة واحدة أن يكومه فوق التخت- تيقن من عبقرية اكتشافه أن المادة لا تجذب المادة إنما تدفعها، وبذلك أصبحت نظريته الدافعية تصحيحا للنظرية الجاذبية، وقد أدرك أن المحاججات التي وضعها الرصافي في المقهى والتي نقلها عن لويس شيخو كاذبة، لقد كان الأب لويس شيخو مجنونا، ومتهورا، وأحمق، كما يقول الأفندية في بغداد، لذلك لم يكن قادرا على تصديق آراء الزهاوي بنيوتن، ولأنه كذلك (يغار. .).

يغار هذا الجاهل من عالم مثل الزهاوي.

صحيح هو على خلاف مما تعلمه ألوف العلماء الذي درسوا في الجامعات، ولكن هذا البغدادي قام بعد أن درس في الملالي والتكايا والجوامع بالرد على مشاهير العلماء في الغرب، فإن قال شيخو عن كتب



الزهاوي بأنها ملهاة يتلهى بها من لا معرفة له بالعلوم الطبيعية، وهي أقرب للهذيان من كتابة رجل عاقل.. ذلك لأنه يغار، وقد صرخ صالح شمدين أغا:

(لك هذا لويس شيخو يغار... لأن البغدادي وحده اللي قدر يطيح حظ العلماء الأورباويين).

طبعا القضية بالنسبة للأفندية في ذلك الوقت منو يقدر يطيح حظ منو.

الزهاوي يطيح حظ نيوتن لو نيوتن يطيح حظ الزهاوي؟

وقد وقف محمود بك على أعظم الاكتشافات في بغداد العثمانية، لقد اكتشف لهم هذا البغدادي أن الأرض لم تنفصل عن الشمس كما كان يعتقد كوبرنكوس، إنما هي سيارة تدور مع غيرها حول الشمس ثم كبرت جراء ما ابتلعته من الأثير فصارت شمسا- فبلعوا ريقهم حينما قال لهم أنها ابتلعت الأثير- بينما التفت إليهم كاظم زاده وقال:

(أمة فيها الزهاوي من يغلبها).

*

وقف الزهاوي على قدميه، رفع بنطلونه إلى بطنه المشفوطة وجلس، وأخذ يتحدث لهم عن السوبرمانية التي قرأ عنها في قصيدة التأريخ القديم لتوفيق فكرت، والتي أخذها عن فيلسوف الأمة الألمانية نيتشة الذي اكتشف الناموس الدوري، دون أن يدرك محمود بك أن السوبرمان هو الغربي الذي جاءهم طائرا بألف سلاح، إنه الأوربي الذي يزحف ويزحف عليهم بهدوء أول الأمر، ثم بقعقعة السلاح، وإن ارتعدت فرائص الشيوخ لهذا الزحف، فقد فرح به أكثر الأفندية في بغداد، الأفندية الذين يؤمنون بما قاله قاسم بك أمين عن تحرير المرأة ومخالطتها للرجال، والذين تأثروا بشبلي أفندي شميل ويعقوب صروف والدعوة العصرية لتقليد الإفرنجة القذة بالقذة.

*



تحدث جميل أفندي طويلا ذلك اليوم، تحدث عن آخر المخترعات الأوربية، وقد سكر الجالسون في خدرهم على صوته العذب المموج، تحدث جميل أفندي ذلك اليوم عن تطور العلوم في أوربا، عن ثقافتهم وفلسفتهم ومخترعاتهم ومصانعهم وساستهم -وهو لم ير في حياته أوربا- تحدث لهم عما سمعه وقرأه وعرفه وتمنطق به فنطق به، تحدث لهم عن نسائهم ورجالهم وتعليمهم، وذكر لهم أسماء لم يسمعوا بها وقد سمع بها وقرأ لها من ديمون ديلامون إلى نيتشة، من كوبرينكوس إلى نيوتن، تحدث لهم في بغداد التي لم تكن غير ظلام لا يشعله إلا لمبة الآويزة، وسقاء على الحمار يجلب ماء الطين إلى البيوت، وجسر الدوب الذي تعصف به الرياح كل يوم وتقطع شرقها عن غربها، فيجيء الناس بالدوب على زفة المزيقة التي يستأجرونها من الشريعة، لم تكن بغداد غير الدروب الموحلة وظلال داكنة بلون الموت، وعند باب السلطان ما زالت الشمس حمراء تصبغ الأزهار البرية في تراب السهول الممتدة، وتسكن نيران المواقد - بسبب الريح - في البيوت، وبسبب صوتها الأجش، وقد نامت الوجوه المعذبة التي شوهتها الزخارف التافهة على التراب.

*

خرج محمود بك من القهوخانة وقد سكر على حديث جميل أفندي، سار في الجادة الموحلة ثم صعد عربة تكلك يجرها بغل، وأخذ يتخيل نساء بغداد وهن يلبسن التوكة والبرنيطة والسروال، ويرقصن الفالز مثل الإفرنجيات حينما كان يتطلع إليهن من وراء سياج القنصلخانة الفرنساوية في محلة الدنكجية، كان يتخيل منازل المولة خانة التي تشبه القبور وقد تحولت إلى منازل فخمة، وقد ترك أهل بغداد الحمار، والبغل، والتخت روان، وعربة التكلك، وصعدوا الأوطومبيل مثل الفورد أم اللوكية التي لا يركبها في بغداد إلا خليل باشا. كان يتخيل بياتريس بملابسها الإفرنجية البيضاء، في حجرة القصر ذات الشرفة الطويلة والمطلة على النهر جالسة، وسوف تتحول الحجر الرطبة والأبواب



الخشبية الواطئة والعتمة الغامضة في البيوت البغدادية إلى أنوار مثل أنوار القنصلخانات الإفرنجية. . . . امرأة تدخل حجرته النظيفة وتسمعه يقرأ بصوت عال، تسمع صوته السريع والملهوف، وتجلس معه سافرة مثل الخواجيات، تجلس على الكرسي الخيزران، بينما لهب المصابيح يعكس ظليهما على الجدران المطلية النظيفة.

*

نظر محمود بك من نافذة القشلة همايوني، نظر إلى الأرض الموحلة، نظر إلى الفلاح الذي يسير وهو يرتدي قميصا خشنا كالحا، و يجر بيده الخشنة حبلا مربوطا بمنخر بقرة صفراء وراءه، نظر إلى الحمار الذي تغطس أقدامه في الوحل، نظر إلى العساكر وهم يتجمعون حاملين الأسلحة والسيوف، نظر إلى الألدشات القلينجية وهم مجموعة من المشاة سلاحهم السيوف، نظر إلى الخفير قرب طوب أبو خزامة وهو يصفر بالبوق النحاسي الذي تنتفخ فوهته، لحظات تجمع خفراء القلعة على صوت البوق وهم يرتدون ملابسهم ويتحسسون أسلحتهم، ويلبسون بساطيرهم ويضعون سيوفهم إلى جانبهم، سمعهم وهم يتحدثون عن فتوى الجهاد ضد أوربا، فأخذت قدماه ترتجفان من الترقب والخوف، مر خليل باشا وهو يسير بسيارته الفورد أم اللوكية قادما من عقد الصخر، كان صوته مبحوحا وأجشا وهو يصرخ: (سننتصر على أوربا).

*

ركض الجندرمة بخطوات مضطربة متلاحقة، نظر إلى الفانوس وهو يهمس بصوت هادئ بين النور والعتمة: (أوربا جاءت). أغمض عينيه وتجمد، فتح عينيه. وفي هدوء الليل الخارجي سمع وقع سنابك الخيل على الشارع، وهنالك بضعة بلديين بالطرابيش وهم يتحزمون على الزنوط والبشوت، ونساء ينظرن من الرواشن والنوافذ والكوى، وقد خرج النصارى على الخيول والارهوانات والبغال والحمير والكدش، سمع ضجة الجندرمة مختلطة مع بعضها. وهنالك ضربات خفيفة على الحجرة



التحتانية من البرج، خطوات ثقيلة وسريعة، وأبواب تفتح وتنغلق بصورة ملحة، انفتح الباب واندفعت خطوات على السلم، الصاغ مأمون فارع الطول، بملابس ركوب الخيل الرمادية، بطربوشه الأحمر، بحزامه الجلدي العريض الذي يلف به كرشه، ببنطلونه العريض، وقد فتل شاربه وشهر سيفه.

لماذا شهر سيفه؟ كما شهره ضد عبد العظيم زادة في قضية أرملة حمدان أغا؟

تجمع أهل محلة القشلة على خليل باشا بالجلابيب البيض وقد وضعوا الكلاوات والجراويات والطرابيش والفينات والعقل والكشائد على رؤوسهم وأمسكوا بالعصي، وهم يصرخون على الفور دون تردد، دون توقف، أمام خليل باشا (الله ينصرنا على أوربا. . . أمة الكافرين أعداء الدين).

كان خليل باشا هادئ الصوت وهو يتحدث مع الكاتب باشي بالتركية، ومن بعيد ثمة صرخة صغيرة حادة تجيء فيهتز نور اللمبة في العتمة المضطربة. رفع محمود بك رأسه، فرأى حصانا يسير في الليل وضربات سنابكه على الأرض الصخرية، والصاغ مأمون يشهر سيفه مثلما شهره ذلك اليوم، يوم أرملة حمدان أغا، يوم صرخة العلوية على الظالم، وما كان الظالم إلا التجار البزركانية الأتراك والشراكسة والداغستانيين، حين طاردوا العلوية وهي من أسرة نقيب البصرة، فالتجأت إلى عبد العظيم زادة واختفت عنده في منزله، غير أن الجلاوزة دخلوا بيت الشريف وجروا أرملة حمدان أغا، جروا العلوية من شعرها وعذبوها وأخذوا من المنزل طناجر الإسكة، صناديق الليرات، والظروف المصنوعة من الجلود التي تسمى البطط، وبقجا من فرش الحرير، والبكرجات الذهب، وطرز الركوب، والبنش، والتحف، وأواني الصيني، والزجاج المذهب، والكاسات البلور، والفناجين البيشة، فخرجت العامة من المولة خانة يتصايحون، يحملون أطراف دشاديشهم



بأيديهم، ويصرخون مثل المجانين، كانوا غاضبين على الجلاوزة الذين دخلوا بيت الشريف وجروا العلوية، كانوا غاضبين على ما فعله البزركانية الأتراك والشراكسة والداغستانيون بها، يصرخون وهم يحملون الأعمدة الكبيرة بأيديهم، ويصيحون بأعلى أصواتهم، توجهوا نحو سرايا الباشا مندفعين بقوة، وحين وصلوا قريبا من حامية السراي خففوا سرعة أقدامهم وصعدوا من نبرة صوتهم، فتصدى لهم البكجية الحراس، والألدشات القلينجية وهم المشاة المسلحون بالسيوف، وجنود الحرس الواقف أمام بوابة السراي واشتبكوا معهم، فأرسل الباشا أحد خصيانه وهو يحمل الفرمان البيورلدي راكضا من السراي إلى القلعة، يأمر الجندرمة بضرب أهل المولة خانة.

صعد محمود بك على جواده الأطهم ذي الرشمة المصنوعة من الفضة مثبتة في برقع جلدي بين عيني الحصان، كان يربطه في الساحة القريبة من اصطبل القلعة، وتبعه عدد من الجندرمة الغاضبين، وضعوا بنادقهم القبغلي والمارتيني على أكتافهم، وشهروا سيوفهم، ثم تسلقوا خيولهم بسرعة، وجروا وراءه، كانت صدورهم مملوءة حقدا، وانتفخت أوداجهم، وأخذوا ينفخون من الغضب بقوة، وفي الشارع الذي يربط بين القلعة والسراي دربكت سنابك خيلهم بحدواتها الحديدية على الأرض الصلبة.

كان محمود بك يحمل سيفه إلى الأعلى ويتقدمهم، ومن بعيد رأى حامية السراي مشتبكة مع أهالي المولة خانة الذين يتقدمهم الشقاوات ومكارية العلوة والآداب سزية والشلايتية: كان سالم الأسود، وربيع ابن بهية، وعبود المكاري، وأولاد ناظم زادة قد وصلوا إلى باب الحرم عند وصول محمود بك إلى بوابة السراي، فرفع سيفه إلى الأعلى وصاح بصوت عال (هاااااا)، ضرب الأسود على رأسه أول الأمر وفلعه نصفين، ثم استدار بحصانه الذي يمسك بعنانه بيد واحدة، ويرفع بيده الثانية سيفه الذي يقطر دما، وتوجه نحو سلمان زادة بكرشه ورأسه



الكبير، وحين توقف بحصانه على مقربة منه، رفع سلمان زاده يديه إلى الأعلى، غير أن محمود بك شك السيف في صدره مباشرة وبقوة حتى أنفذه من ظهره، ففغر سلمان زادة فمه وصاح (آآآآآآآآآه. . . . .).

هذه ال(آه) يعرفها من زمان، لقد رآها على فم سلمان زادة مرسومة منذ عشر سنوات ولكن بمناسبة مختلفة طبعا. كيف؟

قبل عشر سنوات تقريبا، لم يكن محمود بك يعمل في الضابطية العثمانية، إنما كان يعمل في متجر من متاجر عبد العظيم زادة في خان كهيسي، وقد أرسله لينادي شريكه سلمان زاده من بازار الدواب في سوق الغزل. خرج محمود من متجر عبد العظيم زادة وتوجه إلى بازار الدواب، وقف بين قلل السمن، ومصارين البقر والخراف المعلقة، يهش من على وجهه الذباب، تلفت أول الأمر يمينا وشمالا فلم يجده، سأل بعض تجار الجاموس أين يجد سلمان زادة؟

خرج معه أسطه محمود الكرماني من متجره، وأشار له بإصبعه إلى متجر في نهاية السوق، وقال له: (. . . هناك). سار محمود في البازار المصطخب ذلك اليوم بمربي الخيول ورعاة الأغنام وتجار الجاموس والبقر والدجاج والقادمين من كل مكان، وعلى حافة البازار في سوق الغزل وقبل وصوله إلى المنارة كانت هنالك بضعة محلات تبيع في الهواء الطلق الأرواب العسكرية والإيزارات العتيقة المرمية دون أكمام، والمداسات المصنوعة من السختيان، وبنطايل الجندرمة السميكة، والطاقيات الحمر المثقوبة من الوسط والمعلقة بالسقف بحبال مجدولة، وحين وصل إلى المتجر الكائن في نهاية السوق قريبا من المنارة، وجد سلمان زادة وقد ارتدى قلاشين أحمر يشبه الوزرة في الحمام، وجزمة من السختيان بأقفية قديمة، لقد كان وسخا، ولحيته طويلة، وحين قال له أن عبد العظيم زادة يريدك صاح: (آآآآآآآآه. . . نسيت). نفس ال(آآآآآآآه. . .) طبعا. ثم قال:

(إمشي معاي. . .).



أخذه إلى مكان قريب من البازار، وقال له: (أنت تغدى وأنا رايح أبدل ملابسي).

وصاح على يوسف: (يوسف بروح أمك صب له غدا).

في الخان كان مربو الخيول والجاموس والأبقار يجلسون على ركبهم، ودخان شواء التكة يخرج من الباب الخشبي المخلع، وفي الداخل رائحة الشوربة وهريسة الرز وعصيدة الدخن، وحين جلس صب له يوسف الشوربة بالمغرفة وقد رأى فيها شيئا أسود ولم يكن يعرف فيما إذا كان دخنا أسود، أم ذبابا، غير أنه أغمض عينيه من الجوع وأكل.

ثم جاء سلمان زادة وقد ارتدى عرقشينا بيضاء وضعها على رأسه، وصاية خضراء لفها على جسمه بحزام أسود، وكانت فلوسه في زناره وحين خرج قال:

(آآآآه... -نفس ال «آآآه...» بطبيعة الأمر ولكنها أقصر-نسيت أجلب طرطور اللباد الذي أوصاني عليه عبد العظيم زادة).

هذه ال(آآآه) يعرفها، وأول ما وضع سيفه في صدر سلمان زادة، وصاح آآآآه نظر بعينيه مباشرة، وبقي مفتوح العينين، فقال محمود بك في نفسه:

(أنا ضابط صغير... كوجكسي أعمل بالفرمان... المهم هو حفظ الأمن والنظام في بغداد).

ضرب سلمان زادة بقدمه وأسقطه على الأرض، ثم استدار بجواده، رفع سيفه وغار على المشاغبين، فهربوا أمامه، بعضهم دخل في المنازل، والبعض الآخر ارتد راكضا إلى زقاق علي باشا مدرسي، وبعضهم ركض باتجاه المولة خانة، رفع سيفه وأشار إلى الجندرمة أن يتبعوه، فدربكت سنابك خيلهم وراءه... وقبل أن يصل محلة المولة خانة وجدها مشتعلة، فقد وضع الباشا مدفعا هناك وسلط النار عليها:

كان هنالك ثلاثة من حرس السراي يقفون عند المدفع، وضابط



يقف على مبعدة منهم وبيده ورقة، يصرخ: (الآن ارمي).

(دوم... دوم)

مدفع يدك بيوت المولة خانة، وجندرمة على خيولهم يطاردون المشاغبين ويضعون في صدورهم الحراب، مدينة مشتعلة وجندرمة يخلعون الأقفال، ويكسرون الأبواب وينهبون، وقد شاركهم العامة بذلك:

جاء الناس من المحلات الأخرى، من المحلات المحيطة بالمولى خانة، من محلة القشل، من أبو سيفين ومن الحيدرخانة، كان بعضهم يدخل السوق القريب من المولة خانة فينهب ما تقع عليه يده من البضائع المكومة في الطريق وقد تركها أهلها بسبب نار المدفعية التي ما زالت تدك، والبعض الآخر يدخل البيوت بعد أن يكسر أبوابها، يحمل الأثاث على ظهره ويهرب، وبعضهم جاء من الصوب الآخر من النهر، جاءوا بالزوارق وهم يحملون عدة السرقة، يكسرون أبواب البيوت ويحملون الأغطية والفرش وأدوات الطبخ والملابس بالصرار وأكياس الخيش ويركضون باتجاه النهر، لقد حلل الوالي دماء أهل المولة خانة ونساءهم وأموالهم، فجاء الناس من كل مكان للسلب والنهب، يسرقون ويهربون.

*

حين حلت صلاة العصر، توسل بعض وجهاء المحلة الباشا وهم يبكون، لا أن يرد عنهم الجندرمة، أبدا، إنما ليحميهم من أهل المحلات القريبة منهم. فالجندرمة أهون من الأهالي الذين يسكنون قربهم والذين بعد أن سمعوا بالنهب والسلب أخذت أيديهم وشواربهم ترتعش، دماؤهم تغلي وبطونهم تقرقر، وكان كل واحد منهم جاء وبيده كل الأدوات الجارحة الممكنة فعندما لا يجد شيئا يسرقه يحطم من المنزل بابا أو يحطم جدارا.

بعث الباشا رفيق بك وهو يسير بهدوء على فرسه، وفي يده اليمنى



يحمل الفرمان. قرأ على الناس الذين تجمعوا من كل مكان على المحلة المنهوبة، كان الدخان يتصاعد من كل جانب من جوانبها بعد أن سدد الباشا قنابل الطوب عليها.

قال رفيق بك إنه يحمل فرمان بيورلدي عفا به الوالي عن أهل المولة خانة، وعلى الجندرمة الانسحاب بعد أن يتأكدوا من عودة الأمن إليها، المواد المنهوبة والمسلوبة لا ترد لأهلها، ومن مات فقد مات بذنبه ومن يتمادى فيخوزقه الوالي في الساحة. مسح أنفه بمنديله، نظر إلى محمود بك نظرة ذات معنى، استدار بحصانه وسار نحو السراي، بينما وقف محمود بك لساعة أو ساعتين ليتأكد من حفظ النظام ثم يعود إلى القلعة، فقد عاد أهلها بهيئة أحمال على اللاندونات التي تجرها الكدّش، والتختروانات التي تشبه المحفات وفيها نساؤهم وأولادهم وأنزلوها قبالة أورسيات منازلهم ومخادعهم المهدومة، وارتدت الناس عن المولة خانة، كان البعض قد تأخر فأخذ يضرب يدا بيد ويقول (فاتتني. .) وهو ينظر إلى الذين نهبوا وسلبوا بعين حاسدة.

*

كان خليل باشا وكاتب باشي والططر أغاسي وهو رئيس سعاة البريد بزيه وطرطوره الذي يتدلى من رأسه واثنين من الضباط واقفين هناك، والأرض المبللة تلمع على ضوء اللوكس الذي وراءهم، ومن وسط العتمة كان رفيق بك يتكأ على سيارة خليل باشا، ومن بعيد كانت دقات سنابك الخيل ترن على الأرض، أما نور الفوانيس فقد كان يرسم خطا مرتعشا على القمة.

نظر إلى الضباط المحيطين بخليل باشا، كان هنالك طابقور من العربات القديمة ترتبط ببعضها كالسلسلة مثل القلعة، وهناك بلوك من المشاة من الآلاي الأول يرأسه بكباشي، ثم نظر إلى رفيق بك، وجهه النحيف من بعيد لم يتغير، الوجه الذي أمر بفك حصار المولة خانة هو الوجه ذاته الذي أمر بقتل صفاء الدين الشامي قبل عام حين وقف



وشواربه ترتجف، كان يرتدي الضلمة لباس التتار المصنوع من الجوخ، مفتوح الصدر وشد وسطه بحزام مخطط، كان يقف هناك وقد هبطت قطرة من العرق من حز الطربوش واستقرت على أنفه، قال: (اقطعوا لسان صفاء الدين الشامي. . . اقطعوا لسان كل من يعمل مع الإنكليز. . أو من يعمل بالقضية العربية).

هرعوا طائرين على خيولهم ومحمود بك يتقدمهم، وصلوا إلى منزل نور الدين زوج أخت صفاء الدين في الحيدر خانة أول الأمر، كسروا الباب ودخلوا، صرخت أبنته وقد استيقظت من نومها فجرت أمها نحوها وهي تحمل الفانوس، كان الجندرمة قد قلبوا الملايات والشراشف والدواشك، بعضهم كان ينزل إلى السرداب ببطء، وبعضهم كان يصعد السلم، ونور الدين كالملسوع يفاوضهم (والله صفاء الدين ما جاءنا اليوم. . .).

جلب لهم الأكواب القاشاني، والصحون، والقدور وأعطاهم إياها، فتح صرة المجيديات وأعطاهم.

جمعوها في عربة التكلك كلها، حزموها وأخذوها، وراحت العربة تسير بقرقعات وطقطقات على أحجار الشارع تتبعها الحوافر متعاقبة، بعد أن أخذوا أكياس الدقيق والعدس والماش والحمص وحملوها على الخيول، ونقلوها إلى منزل رفيق بك المطل على النهر.

ذهبوا إلى بازار الخيل والحمير والدواب والجاموس والكدش، قرب باب الطلسم من جهة بستان جميل الملي، كان هنالك تجار إيرانيون يقودون خيولا هزيلة يجلبونها من شيراز، وخيولا مساطة بقوة، خيولا مقروحة متورمة، ويسيرون في البازار. على التخوت الخشبية يجلس قرغيزيون يرتدون العباءات من وبر الإبل ويضعون على رؤوسهم طراطير اللباد. وبين هذه الضجة كان محمود بك على فرسه وقد تبعه عدد من الجندرمة الراجلة والخيالة يبحثون عن صفاء الدين الشامي، كانوا يسيرون وسط الضجيج وسط خوار الحمير وصهيل الخيل وثغاء الحملان، حر لا



يطاق، غبار يصعد، وروائح عرق وبول وروث في كل مكان، ومن بعيد رأى محمود بك عجوزا أعرج من طاشقند، كان يعمل في اسطبل بيت كمونة، رآه هناك يسقي الخيول بجردل أسود كبير، وعلى الأرض قربة مثقوبة مرمية، وقد أحاطتها بركة من الطين، تقدم نحوهم وهو يعرج، كانت الأرض حوله موحلة قذرة، وهنالك حجر أبيض يلتصق بالجدار مثل دكة، وشجرة تنخفض عليها وتضوع منها رائحة طيبة. قال له محمود بك:

(قول. . . وين صفاء الدين وإلا سأسوطك بهذا السوط) وأخذ يلوح له بسوط تتري أبتر.

بكى القرغيزي من خوفه وذعره، وأخذ شاربه الأبيض يرتجف، لقد أخافه محمود بك بوجهه الجامد وببذلته المزينة بالنياشين، أخذ يبكي، حاول أن يقبل حذاءه، إلا أن محمود بك ركله بقدمه وأسقطه على الأرض، ورفع سيفه بوجهه:

(أين صفاء الدين وإلا فلعت لك رأسك).

(لما رآكم هرب. . .). كانت سنه الذهبية قد سقطت من ارتجاج أسنانه ببعضها.

ثمة خروف وراءه واقف على الأرض المعشبة الخضراء، خلف الدكة المسطحة، فأشار محمود بك برأس السوط إلى أحد الجندرمة الذين معه وكان يرتدي قلباغا من الفرو موبرا، وعيناه تبسمان، فهبط من على الحصان، وهرع نحو الخروف، واحتضنه، وحمله، وضع بطنه على ظهر الحصان، وبخفة امتطى الحصان، كانت رقبة الخروف ويداه من جهة، وإليته وأقدامه من الجهة الأخرى، وهو يثغو ويبعرر.

نخس حصانه بالمهماز وصاح (يا هوووووووو) وتبعه الجندرمة طائرين على خيولهم إلى منزل صفاء الدين في رأس القرية، وحين دخلت خيولهم الشارع المظلل بالشجر، ترجلوا قرب بيت غنيمة، كان الهواء عذبا، ومنازل المسيحيين مضاءة بالفوانيس وتدلت تعاريش العنب على



واجهاتها، ربطوا خيولهم على جذوع الشجر وساروا ببطء نحو منزل صفاء الدين، وقلباغاتهم المصنوعة من الفرو الموبر على رؤوسهم.

شهر محمود بك سيفه، أمر أحد الجندرمة بخلع الباب، فتقدم بعد أن نزع قلباغه وضرب بالسيف على أحد الأقفال فكسره، ثم تقدم الثلاثة وراءه وخلعوا الباب من مكانه ورموه وسط الشارع، كانت الأرض رطبة منداة وحين ركض محمود بك بعد أن وضع يده على طربوشه كاد يسقط على الأرض الزلقة إلا أنه تمالك نفسه، وأشار إلى الجندرمة بسيفه أن أدخلوا، فانفتحت أمامه فسحة مظللة تشكل الحوش العالي، وفيه أعمدة مبنية بالطابوق، وقد علقوا على الحائط سيفا وقرون غزال وسبع عيون لطرد أعين الحاسدين، ركض الجندرمة داخل الحوش، وما أن دخل محمود بك حتى واجهته شفيقة الحلبية زوجة صفاء الدين الشامي بملاءتها السوداء وقد لفتها على نفسها، وكان برقعها الخفيف الأسود المخرم يكشف قليلا عن وجهها الأبيض وعن تقاطيعها العذبة، سحب أقدامه حين ارتمت عليها لتقبلها، وهي تتوسله أن يترك زوجها، قال لها:

(أنا لا باشا ولا سلطان... أنا ضابط صغير كوجكسي يعمل بالفرمان...).

كانت رائحة زيت الزيتون والخل الحلبي تفوحان من السرداب، فتقدم وهو يحمل سيفه، هبط درجة، درجتين، كاد أن يتدحرج في العتمة، لم يكن يحس بشيء، ولكنه سمع تنفس صفاء الدين الواقف هناك بعد أن تلفلف بالبطانية وهو يرتجف، اقترب منه، فكبت أنفاسه، ضربه أول الأمر على رأسه بقبضة سيفه وشج له رأسه، فصرخ صفاء الدين وركض أمامه على السلم، خرج من السرداب، فتلقفته طعنات الجندرمة، طعنوه في جنبه، وفي بطنه، وفي صدره، فازدادت سرعته كأنه يحلق طائرا من غير صوت وسقط عند النافورة، صمت تماما، تمدد، وأصبح الحوش أبيض من صرخات أمه وزوجته التي سقطت فوقه، ومن تحت العباءة كانت قدم زوجته قد خرجت بصندلها الجلد



وشرابته السورية الصغيرة، وقد مسكت بكاحلها لاستيكة عريضة.

*

صعد خليل باشا في سيارته الفورد أم اللوكية، صعد وراءه رفيق بك، سارت بهما على الطريق الجديد. كان ضياء اللمبة يرتجف في البرج، يلقي بنوره على أوراقه وطاولته ومن الزقاق القريب كان هنالك بغل عريض الكفلين واقفا تحت الفانوس لا يتحرك أبدا، كان البغل مربوطا ولكن صاحبه غائب: (هل خوزقه خليل بياشا؟)، تساءل محمود بك مع نفسه:

(ماذا يفعل سعدون المكاري في الليل؟).

إنه هارب من الزجري، الجندرمة تبحث عن الخونة والهاربين، والإنكليز على حدود بغداد.

(شيسوي هذا المكاري في الليل. . .).

ما كان للبغل أن يكون وحيدا في الليل، وما كان لسعدون أن يترك بغلته هكذا ببلاش، إلا إذا خوزقه خليل باشا واستولى الجندرمة على بغله، أكيد وإلا ماذا يفعل البغل تحت الفانوس قرب القشلة همايوني؟ ثم أين هو سعدون المكاري؟ سعدون زوج العوربية التي تبيع البيض عند باب الأغا، قرب الخبازين الأفغان الساكنين في صبابيغ الآل؟.

كان محمود بك يعرفه، من زمان، من اليوم الذي حرض فيه الشيخ أمين الناس على قتل جميل أفندي الزهاوي لأنه قال (أصل الإنسان قرد. . .):

*

في جامع الآصفية، ظهيرة يوم ساخن في الصيف، وبعد أن أنهى الشيخ أمين صلاة الجمعة، اعتلى منصة الخطبة متكئا على سيفه، وصرخ بالناس:

(أن لا إله إلا هو القادر على كل شيء).



ثم انعطف شيئا فشيئا على تفنيد النظرية التطورية، النظرية القردية التي بثها اليهود والنصارى لخراب الأمة الإسلامية، فالتطور يعني التعهر عند أصحاب الفكرة القردية، وكما قال السيد جمال الدين الأفغاني أن النملة عندهم ستتحول إلى فيل لأن كلاهما يملك خرطوما، ثم حدثهم عن وجوب قتل الزنادقة والمرتدين، حدثهم عن وجوب قتل أعداء الدين.

اهتاج الناس وأخذوا يصرخون بقوة في الجامع، تعالى صياحهم بعد أن فقدوا أعصابهم، فرفع لهم الشيخ أمين كتاب الزهاوي الذي يروج فيه للفكرة القردية، فتلقفوه من يده ومزقوه، وخرجوا من الجامع وهم يركضون في كل الشوارع، متوجهين إلى منزل جميل أفندي في جديد حسن باشا.

*

هرعت العامة من بوابة جامع الآصفية متدفقة في كل الطرقات، متجهين من منافذ مختلفة إلى منزل جميل أفندي، كل واحد منهم يهرول وهو يرفع ذيل دشداشته بيده، منهم من وجد له سلاحا في الطريق فتناوله واستمر في طريقه، ومنهم من ذهب إلى منزله ليجلب له عمودا أو توثية أو سيفا، كانت وجوههم زرقاء من الغضب والحقد، وقد تقدمهم الشيخ أمين بعد أن ارتدى ملابس الجهاد: عمامة بيضاء لفها على رأسه وقد انسدل منها شعره على أكتافه، طوله الفارع، ولحيته المدببة التي وخطها الشيب، جواده الأبلق الأصيل، وسيفه النهاوند في غمده المزخرف، وحين سار قليلا في الساحة المقابلة لجامع الآصفية تخيل نفسه قائدا في جيش الفتوحات الإسلامية كما صوره ابن الأثير أو الطبري، لحظة اختفت من ناظره المنازل العتيقة في الدنكجية وما حولها وظهرت أمامه ساحة الحرب ضد المشركين، وهو القائد مثل خالد بن الوليد أو المهلب بن أبي صفرة وقد تقدم جيش المؤمنين، وهكذا تقدم الشيخ أمين صفوف المسلمين، رفع سيفه إلى الأعلى وصاح:



(أيها المؤمنون. . إلى النصر إن شاء الله). فطار به الحصان، طارت عباءته بالهواء وصاح (الله أكبر الله أكبر على الكافرين).

فصرخت الحشود وراءه: (الله أكبر على الكافرين).

هرع العجم وراءه أيضا لنصرة دينهم، وقد رفعوا عمدان البيوت وركضوا بطراطيرهم المصنوعة من اللباد، وسراويلهم الملونة، وكانت النسوان تهلهل من فوق السطوح، والكلاب تنبح في الأزقة دون أن تعرف ما يجري، والديك الرومي الذي يسميه أهالي بغداد علي شيش يصيح من سطوح المنازل ويمتد خرطومه الأحمر أمامه، وحتى الديوك والدجاج فقد خدعتها الضجة وأخذت تشاركهم بصياحها، كانت الجماهير تتدافع بين الأزقة وتركض مع الحمير والبغال والخيول التي ضربها بعض الشقاوات بفروع من عيدان الخيزران، كانت وجوههم السمر واضحة التجاعيد وقد لوحتها الشمس وهي ترفرف من الغضب، بعضهم شمر كميه وكشف عن ساعديه، وبعضهم قبض على أعواد الجريد وأخذ يلوح بها، أطفال يركضون بدشاديشهم وقد ملئوا جيوبهم بالكعوب، صيادو السمك جاءوا من جهة النهر بعد أن تركوا سناراتهم وشباكهم، وهجموا معهم بالمجاذيف، تجار يقفون ببطونهم الكبيرة وكشيداتهم السود وعكازاتهم التي يتكئون عليها عند رأس الزقاق، وهم يحرضون الجماهير ويرمون لهم البيزات ويقولون: (انتصروا لدينكم).

غضب يجتاحهم، غضب يجتاحهم وقد هبطوا من عربات التكلك، وعربات اللاندون والتخت روان وتوجهوا نحو منزل الكافر، مهاجمون نزلوا من عربات الخشب التي تجرها الخيول والحمير الجريحة المقرحة، عربنجية وحوذيون يمسكون القمجيات ويصيحون: (وين يروح الكافر منا).

وفي منتصف الطريق وقف أحمد زادة بحماره عند ركن المنزل، رمى طاقيته على الأرض، كان شعره أبيض، ولحيته بيضاء، وهو يمسك بقضيب من حديد ويشتم شتائم بذيئة.



ركض حامد الجزار وطرح العجل على الأرض، ذبحه، كره من عنقه، ورش دمه على الجدار الذي يلمع، ثم بقر بطن العجل، وعلقه بخطاطيف، وقال: (هذا العجل غدائكم إذا قتلتم هذا الكافر).

أما المقاتلون الذين أصبحوا في المقدمة، فقد شوه الغضب وجوههم، عيونهم احمرت وأصبحت مثل الدم، أنوفهم انفتحت على وسعها وأخذت مناخرها تصعد وتهبط، شفاههم تلوت من الحقد ولم تعد عارفة ما تقول، بينما صعدت شواربهم إلى الأعلى وأخذت ترتجف نهاياتها، لقد وضع هؤلاء الأبطال دشاديشهم بأحزمتهم، وكشفوا عن سراويلهم، وكل واحد منهم كان يريد أن تراه فتاة من اللابسات البوشيات على وجوههن فوق السطوح، من الواقفات مع الماعز والخراف والدجاج الذي يقوقئ، يريد واحدة أن تنظره وهو يسيح دم جميل أفندي على الأرض.

ومن بعيد وقفت بائعات الرشاد والفجل والبيض والخبز ونظرن من بعيد، وقد وضعن الأطباق على رؤوسهن، ينظرن إلى هذا العالم المتقلب، واحدة تقول للأخرى: (يا... قرد... شنهو... قرد؟).

وكان سعدون المكاري أكثر الواقفين أمام المنزل حماسة، أكثرهم اهتياجا أكثرهم غضبا، وأكثرهم صخبا، لقد خلع الطاقية المثقوبة التي كان يضعها على رأسه ورماها على الأرض، وقد تناول رفشا بيده وانهد على منزل جميل أفندي، كان يصرخ بأعلى صوته:

(ياجماعة هدوني عليه وآنه اربد لكم راسه ربد بهذا الرفش.. هالقرد ابن القرد... ولو آني ما أعرف شنو معنى قرد..).

وكان بائع السوس يوزع مشروبه على المجاهدين عند الدكة مجانا، وكان الجميع يطلق عليهم التبريك والدعوات ويرفعون أيديهم للأعلى ويدعون الله أن ينصرهم.

*



سماء صيفية ساخنة، وقد ارتفع الغبار إلى الأعلى بسبب ركض العامة، صخب في الزقاق المؤدي إلى منزل جميل أفندي الزهاوي، وصياح من أعلى السطوح، فجأة صرخ عبد العليم أبو شجة وهو واحد من أكبر أشقياء بغداد وشطارها، ووقف أمام باب المنزل بعد أن ضرب غطرته في الهواء مرتين وأنزل جراويته من رأسه وسحب خنجره وقال:

(يا ناس أنا عبد العليم أبو شجة.. أنا شقي باب الشيخ وقنبر علي والحيدرخانة.. هذا اللي شتمني وقال جدي قرد.. راح أسويه إلكم اليوم قرد ابن قرد).

دق المتطوع الباب، باب منزل جميل أفندي بعنف، صمت. انتظروا لدقائق ولم يفتح أحد. صرخ عبد العليم أبو شجة: (لك جميل... اسمعني زين... ترا... راح أكسر الباب..).

انفتح الباب بهدوء، خرج جميل أفندي وهو يرتعش، كل ناحية من جسمه تهتز مثل سعفة، كان نحيفا، قصيرا، يرتدي روبا بنيا من الصوف، وقد رمى طرطوره وراءه، نظارته الدائرية مائلة على أنفه، وعيناه منتفختان، وقد وقف أمام هذا العملاق مثل جرذ يرتعش من الخوف، مد عبد العليم يده وقبضه من زيقه ورفعه إلى الأعلى، وصاح به: (.. لك.. آني جدي قرد.. ؟).

(لا والله العظيم أنت جدك رسول الله... بس آني جدي قرد ابن قرد).

فانفجر العامة بالضحك، لقد أخذت الجماهير تضحك وتقهقه بأعلى صوتها، وأخذت الكلاب تهز ذيولها من الفرح، والنساء تهلهل فوق السطوح، والأولاد يقفزون ويغنون، ثم تركه عبد العليم شقي قنبر علي، فك يده من زيقه فانخبط جميل أفندي على الأرض.

وفي تلك اللحظة تدخل الجندرمة وفرقوا الناس.

*



في طريق عودته إلى منزله في قنبر علي، رأى محمود سعدون المكاري راكبا بغلته دون بردعة، يمسك بيده عصاه الطويلة التي تشبه القصبة، ويتحدث أمام القهوخانة بصوت عال عن ما فعله الجمهور بجميل أفندي هذا اليوم، ما فعلته العامة -بعد فتوى الشيخ أمين- بالكافر الزنديق عدو الدين، كان سعدون يفتح فمه الخالي من الأسنان، ويصرخ بأعلى صوته أمام القهوخانة، يهبط من بغلته، يرمي عصاه من يده، ويمثل لهم كيف داس في بطن هذا القواد ابن القواد الذي شتم أهالي بغداد، شتم خاصتها وتجارها وباشواتها وقال عنهم أولاد القرد، إن كان سعدون لا يعرف معنى القرد، فقد عرفه اليوم، لأن العامة في بغداد لا تسميه قردا إنما شادي، وقد عرف هذا اليوم أن القرد هو الشادي، وإن جميل أفندي شتم أهل بغداد وقال عنهم أولاد الشادي، وبعد أن أنهى فصله المتحمس فطس رواد القهوخانة من الضحك.

كان محمود بك مندهشا ذلك اليوم من حماسة الشقاوات والحوذية والمكارية وشذاذ العامة والشلايتية والأداب سزية في الدفاع عن دينهم بمواجهة الفكرة القردية، وبمواجهة الأفكار التي بثها اليهود والنصارى الأوربيون لتهديم الدين وذلك بعد تعهير الأمة وإشاعة السفور وخروج المرأة في الأسواق والقهاوي والمايخانات وتمكينهن من أزواجهن حتى يضربنهم بالكالوش، فهي فرصة، فرصة توفرها المناسبات الطارئة-وما أكثرها في بغداد-لهؤلاء الناس ليعودوا إلى المجموع، فرصة يحتاجونها للشعور بأنهم لا يختلفون عن أي واحد بالمحلة، ولا أي واحد من الطرف، لذلك فهم أكثر حماسة حتى من أصحاب القضية نفسها، وقد عرف محمود ذلك اليوم نوعا جديدا من السعار الذي يجتاح العامة في بغداد، نوعا من الهياج الذي يدفع الجمهور لتهديم كل شيء بمجرد كلمة، كلمة واحدة حتى وإن كانوا لا يعرفون معناها، سعار يدفع بالأمهات إلى تقبيل أولادهن المشاركين بهذه الحملة المقدسة ضد جميل أفندي، فرحات لأن الأولاد الصغار أصبحوا رجالا، فتمسح كل واحدة



منهن وجه ابنها بذيل ثوبها من العرق، وتربت على كتفه مفتخرة به، من يدري بكرة أو بعد بكرة، يشارك بالنهب والسلب، ويجلب ما يحتاجه بيته من بيوت الناس: ف(الولد صار رجال).

*

بعد شهرين من الحملة التأديبية التي شنها العامة بتحريض من الشيخ أمين على الكافر، بعد شهرين فقط من دخول عبد العليم أبو شجة تأريخ العامة في بغداد وحكاياتهم الليلية وسوالف نسوان المحلة والحديث عن الكيفية التي أدب بها الكافر جميل أفندي، بعد شهرين فقط من تحول عبد العليم أبو شجة إلى واحد من أخلاف الشطار والعيارين في بغداد والذين يتحدث عنهم نعمان القصخون في قهوخانة المصبغة، دخل عبد العليم شقي قنبر علي هو وجماعة من اليرمازية في الصباح إلى خان الدفتردار الذي كان خانا لخزن القطن والصوف، ونهب داود أفندي الصيرفي الذي يتاجر بالليرات الذهبية في خان الباشا، حين كان في زيارة لعباس أغا الصواف.

داود أفندي الصيرفي اليهودي الذي اشترى نصف القوارب الإنكليزية من شركة بيت لنج، وتزوج بعدها واحدة من المدامات الاسكتلنديات اللواتي جئن نهاية القرن التاسع عشر في زيارة سياحية للدولة العثمانية ودخلن إلى إيران، لقد سلبه عبد العليم أبو شجة في وضح النهار، وعلى مقربة من الجندرمة الذين كانوا يقفون برأس الخان دون أن يتدخل منهم أحد، ولم يكتف بهذا، إنما قام بسلب رضوان أغا في قصره الذي يقع قريبا من قصر الدفتردار، سطا عليه في الليل هو وجماعة من اليرمازية، خلع باب القصر وألقاها وسط الطريق، وجرده لا من ليراته الذهبية وخشالات نسائه إنما جرده حتى من الأثاث والمواعين القاشاني وملاعق الفضة، وإن كانت العامة تقول (حيل برضوان أغا لأنه هو الذي حرض رفيق بك على قتل صفاء الدين الشامي) إلا أن العامة ارتاعت لأن عبد العليم أبو شجة لم يكتف بهذا، فقد قتل في اليوم التالي



حمدي جلبي في مقهى التجار، واغتال طه باشا العون في الشارع المؤدي إلى جامع الخفافين جامع الصاغة القديم، بعد أن تهدم خان جغان الذي بناه الوالي جغالة سنان زادة، فاستاء التجار، وارتاع الأثرياء، وغضبت العامة، فذهب منعم أغا وسالم زادة للباشا في مجلسه وحرضوه على قتل عبد العليم شقي قنبر علي:

(باشا دم عبد العليم عليك هو وجماعة اليرمازية... وشوالين من الليرات علينا..).

عاب سركون أفندي تاجر التبغ في خان الجركسي على التجار لأنه لم يكن أحد منهم يتحدث عن واجب الباشا في حماية الناس في باشوية بغداد وسناجقها، وبدلا من هذا، كان محمود بك يسمع في كل مكان النغمة ذاتها، في أيالة شهرزور، في أيالة البصرة، و في السناجق المحيطة بها:

(لو سمع السلطان لفعل كيت وكيت).

وبعد يومين التقى محمود بك، في خان الأسكجية- بجميل أفندي، وهو أول من قاوم الاستبداد الحميدي وأيد عودة الدستور، كان جميل أفندي يبحث عن حذاء عتيق ليشتريه من الخان، حيث كان تجار استنبول يشترون كل الأحذية العتيقة المرمية في لوندرة وباريز ويجلبونها إلى السلطنة، وفي بغداد كانت تباع هذه الأحذية في خان الأسكجية الذي يقع بالقرب من جامع مرجان:

كان الوقت ضحى، وأصوات الباعة تتداخل مع بعضها وتأتي من كل مكان، أحذية عتيقة بعضها معلق من أشرطته ويدور في الهواء، وبعضها مرمي على شكل أكوام على الأرض، دخل محمود بك إلى الخان ومن بعيد لمح جميل أفندي وقد ربط بغلته بوتد في مقدمة الخان وجلس على الأرض وهو يجرب أحذية مبعجة من كل جانب وقد أصلحت نهاياتها على قدميه، فاقترب منه محمود بك، سلم عليه، إلا أن



جميل أفندي كان منشغلا بتجريب الحذاء على قدمه، ومن دون أن يلتفت إليه قال:

(انظر هذا الحذاء... لبسوه الإنكليز سنوات وما زال فيه عمر حتى نلبسه... الحذاء العثماني بعد ما يساوي شي... خلي ندوّر لنا عن حذاء إنكليزي... فرنساوي..).

وقد عرف محمود بك مقصد جميل أفندي الزهاوي، ولكنه كتمها في نفسه، وحدثه عن عبد العليم شقي قنبر علي، وجماعة اليرمازية، ولو كان السلطان عرف بهذا لفعل كيت وكيت، رفع جميل أفندي رأسه إلى محمود بك وقال:

(كان السلطان يعرف... يسمع.. ولكنه ما فعل لا كيت ولا كيت..).

وفي اليوم ذاته دخل مقهى الشط في شريعة المصبغة ورأى هناك أبن صفو، جالسا مع إبراهيم صالح شكر الذي كان يصدر صحيفة الرياحين في بغداد بعد قيام المشروطية وعودة الدستور، وقد قال ابن شكر دون حرج ولا خوف:

(أن السلطان هو المسؤول...).مما أغضب ذلك محمود بك فأخذ يشتم ويسب، فارتاع ابن صفو ونهض من مكانه قائلا:

(يا جماعة ما أريد مثل هذا الحديث بقهوخاني). بينما أيد الأفندية الذين تأثروا بالفكرة القردية كلام إبراهيم الصحافي، مثل سلمان أبو خرطوم ونجيب زادة الذي قرر أن يسمي نفسه نجيب ابن الشادي لأنه آمن أن أصل الإنسان قرد:

(لو ما قرد ابن قرد ما صار ابن الشابندر غني وآني فقير). وكل الذين آمنوا بالأفكار الأوربية وخصوصا النصارى مثل: داود صليوة، يوسف أفندي رزق الله، وصالح كبو، وجميل متي، وحنا ميخا الرسام، ورزوق أفندي عيسى، حينما كانوا جالسين في القهوخانة التي يديرها ابن



صفو ويجلس فيها كبار التجار والأدباء في بغداد، مثل: إبراهيم أفندي حلمي العمر الذي كان يعمل في صحيفة الرياض مع سليمان الدخيل، وجيه بك مدير الزراعة، وكاظم الدجيلي الذي كان يعمل مع أنستاز ماري الكرملي في مجلة لغة العرب، وإبراهيم منيب الباججي الشاعر، وعبد اللطيف أفندي ثنيان الذي قال:

(التجار يسلبون الناس والباشوات يسلبون التجار والباب العالي...) وسكت.

ولكن محمود بك لم يوافقهم، قال لهم أن الباشا لم يقصر، حتى لو أخذ شوالين من الليرات، بل فعل ما ينبغي عليه أن يفعله، ذلك أن الباشا بعد أن استلم الليرات هاجم عبد العليم أبو شجة وجماعة اليرمازية مع عدد كبير من الجندرمة، لقد خرج بنفسه للقبض عليهم، فعاقبهم عقوبة قاسية وعنيفة، لقد أدخلهم في أكياس الخيش وخاطها عليهم من الأعلى وقام برميهم من جسر الدوب في نهر دجلة- كما رمى محمود بك معاني الجورجية هو والخصيان الخرس الثلاثة من هناك- ولكن بعد أشهر، ثلاثة أشهر فقط من هذه الحادثة، قام الباشا نفسه بتحريض جلاوزته على نهب وسلب التجار، كما كان يفعل عبد العليم أبو شجة وجماعة اليرمازية.

واليوم؟ هل أخذ الجندرمة سعدون المكاري وخاطوا عليه كيس الخيش، وذهبوا لرميه من جسر الدوب في نهر دجلة؟. قال محمود بك في نفسه وهو ينظر من نافذة البرج إلى البغل الواقف تحت السراج، أمر طبيعي لو جاءه الآن رفيق بك وأمره أن يضع عبود المكاري في كيس الخيش ويرميه في نهر دجلة، لفعلها دون تردد:

(ضابط صغير.. كوجك سي في الجندرمة العثمانية يعمل بالأوامر والفرمان.. ماذا يفعل هل يرفض؟).

قبل عشرة أعوام، طلب منه رؤوف باشا المملوكي أن يرمي إحدى



محظياته في نهر دجلة، ولم يرفض أبدا، لقد رمى محمود بك معاني الجيورجية، هو والخصيان الخرس الثلاث في نهر دجلة من جسر الدوب، لقد تألم عليها، هذا صحيح، تألم عليها لأنه رآها أكثر من مرة قبل اليوم الذي رماها فيها في نهر دجل، في المرة الأولى كان قد رافقها إلى خستخانة المجيدية، وهي المرة الأولى التي تخرج فيها معاني محظية المملوكي خارج قصر سيدها، خرج معها بعد أن أمره الباشا أن يذهب برفقة الخصيان الذين حملوها على هودج صغير ومضوا بها إلى الخستخانة التي تطل على دجلة.

(لو لم يحبها الباشا لفضل أن تموت على أن يحملوها إلى الخستخانة). قال أحد الجندرمة.

وما كان محمود بك يعرف إنها جميلة لو لم تتقيأ في الطريق، فقد هبطت من الهودج وجلست على الأرض وقد أحاطها خصيان الباشا ووصيفاتها، رفعت الياشماق عن وجهها وتقيأت، كان محمود بك واقفا قبالتها ينظر مندهشا هذا الجمال الجيورجي الذي لم يستطع المرض أن يطفئه، وحين أطال التحديق بها بدأ الخصي بالتبرم، فلوى فمه وضرب الأرض بقدمه، كي يشيح محمود بك وجهه عنها. ولم يستطع محمود بك أن ينسى هذا الجمال بعد ذلك أبدا، وقد بقي طوال فترة حراسته لقصر الباشا القريب من قصر عبد الله بك الشاوي شيخ العبيد المطل على نهر دجلة، خلف القلعة تقريبا، يحاول اختلاس نظرة ولو من بعيد لجمالها، فقد كانت جدران القصر عالية، والنوافذ مغلقة بإحكام، ومحمود بك يقف أمام السور يفتش الحرس ويحاول أن يسمع صوت المحظيات الغامضات في الباحة، أو يختلس نظرة خاطفة لواحدة منهن وهي تعوم في الماء أو تلعب بالكرة الملونة في البستان، وفي المساء يمكنه أن يمر لتسليم الباشا رسالة فيرى المخصيين عند السور يحرسون الأودالك، وفي البركة الرخامية محظيات عاريات يجلسن على الدكات، ويحاذر محمود بك أن تتحرك عيناه إلى جهة البركة أو إلى جهة البستان،



يبقى صامتا أمام الباشا حابسا أنفاسه محاذرا أن تخونه عيناه وتميلان شمالا أو تميلان يمينا، هذا يعني أن الباشا المملوكي سيغضب منه، وسيرميه في البركة، ثم يأمر خصيانه الخرس بالركوب على عنقه في الماء حتى إغراقه، فرؤوف باشا غيور، سريع الغضب، لقد عرف أحد الأيام أن قاسم بك الذي كان يعمل فيما مضى أستدارا يشرف على خدم المطبخ والشرابخانة والغلمان في استنبول، وهو معروف لأنه من أمراء الطبلخانات وقد كان سفرجي السلطان وخوانسلارا، وقع بغرام إحدى محظياته، فدعاه للغداء في الأفنية المجملة بالدواوين، وطلب من محظيته أن ترتدي ملابس حريرية شفافة دون سروال، وأجلسها بينه وبين ضيفه، ثم أمر الخصيان بتقديم أطباق السمك، والزيت والخيار المطبوخ والطرشي، وكرات الرز والخروف المحشي بالفستق، وأخذ يعانقها أمام ضيفه، وحين انتهيا أخذهما معه إلى حوض الموزائيك والفسيفساء والمرمر، وطلب منها أن تتعرى تماما وتجلس بحضن ضيفه، ففعلت، وبعد ذلك سحب خنجره وانهال عليها طعنا حتى الموت.

لا يخاف أحد من الباشوات والسلاطين والأمراء مثلما يخافهم محمود بك، ولا يخاف العامة وجمهور بغداد كما يخافون محمود بك. كان محمود بك من حراس رؤوف باشا المقربين، وكان للباشا سلطات أكبر من سلطات الوالي بسبب الرشاوي التي يدفعها للأستانة، وقد عرفه جميع العامة في بغداد، لأنه سليل علاء الدين باشا، الذي يطلق عليه العامة بالمحظوظ، لأنه المملوكي الذي نجى من مذبحة محمد علي اللاز الذي أنفذ سيفه بمماليك بغداد في زمن السلطان محمود الثاني، وقد عمل رؤوف باشا دفتردارا في باشوية بغداد، وفي دفترداریة الروملي والأناضول، وفي زمن الاتحاديين أصبح مسؤولا عن المشتغلين بالقضية العربية، وقد كان أغا التبديل والتي يطلقها الأتراك على المخبر الذي يتجسس متنكرا بتبديل قيافته، وأغات التبديل هو مدير الأمن ورئيس المخبرين، وهو معروف مثل كل مماليك بغداد القادمين من الكرج ومن



تفليس منذ تولي سليمان أبو ليلة ولاية بغداد-بالرغم من أن هذا الأخير كان محبوبا لدى العامة- بإسرافهم لا في الملذات، والخمور والمحظيات إنما بالظلم والشناعة والابتزاز، ومن هنا يأتي نفوذ محمود بك على الناس، يأتي من حراسته لترف الباشا وحراسة ضجره، وتراخيه، وحراسة محظياته اللواتي حين يغضب يبيعهن في سوق النخاسة، أو يغرقهن في النهر، أو يذبحهن، أو يحبسهن دون طعام حتى الموت، أما مهمات محمود بك الأخرى فكثيرة، وأهمها:

يسير وراء الباشا عند صلاة الجمعة، أو يرافقه إلى جامع الحيدرخانة أو إلى جامع الأحمدية قرب السراي، ثم يقف على مقربة منه وقد أحاطه المخصيون والعبيد والوزراء والإيكوغلوات والباشوات، وهم يعتمرون الطرابيش المدرعة بالذهب. ومن مهماته أيضا القيام بجمع الغرامات أو بتر الأعضاء، أو العقوبات الأخرى التي يأمره الباشا بها.

*

خلف الأروقة العالية للحمام، أو على مقربة من النافورة التي تتوسط القصر، أو الحوض المطعم بالمينا الزرقاء، كانت محظيات رؤوف باشا يتمددن باسترخاء ويتلذذن بمرور أيدي الجاريات الصغيرات الناعمات على أجسادهن. ينمن بترف، ووصيفاتهن الغامضات يضفرن لهن ضفائرهن، أو يقلمن أظافرهن، أو يقمن بتزيينهن قرب البركة الرخامية، حيث يتعرين أمام الباشا وهو جالس في الظل، ثم ينهض ويدفعهن واحدة بعد أخرى في البركة، كان محمود بك يقف خارج القصر ومن بعيد تلوح له قرى العرب المخربة، الرجال الذي يحرثون الأرض بالنير على الأبقار الهزيلة، النساء المريضات، الأطفال الجائعون وقد انتفخت بطونهم وشحبت وجوههم، ومن خلفه موكب فخم، موكب خلف أسوار القصر: بريق الحرير المقصب، روائح عطور، بخور، حناء، وفي الأودالك نساء يرتدين السراويل الحريرية المزنرة بزنارات ملونة، كواحلهن مشدودة بخلاخل فضية، وقد غطين صدورهن بأطواق



الورود، بينما يجلس على وسادة الديوان العالية المماليك وهم يدخنون التبغ والأفيون.

كان محمود بك يشعر بالمحظيات اللواتي يستلقين على الأرائك الوثيرة، ويلفن العصابات الحريرية على الرؤوس، ويستحمن في برك الماء، ويتعطرن بالعطور، وفي قصر الباشا الطعام المتبل على الموائد، والخمور التي تضوع روائحها من السراديب، وحناء المحظيات في الحرم، والحيوانات الغريبة في الباحة الأمامية للقصر، وفي المساء الولائم الفاخرة والحرير الكشمير والمجوهرات والرقص، هكذا يعيش المماليك في بغداد، هكذا يعيش الباشوات والبكوات والعسكرية اليوزباشية وشيوخ العرب الذين كانوا بخدمة السلطان، شيوخ الشاوية والعقيل، وما كان من محمود بك الذي يخشاه العامة إلا أن يخشى من المماليك، فلو رأوه سيقطعون رأسه، ويجعلون المحظيات يغمسن ذيل أثوابهن في دمه، ثم يدخلنه في فروجهن كي ينجبن. كان يتساءل في نفسه هل يمكنه أن يمس معاني محظية رؤوف باشا المملوكي، هل يمكنه أن يلمس شعرها، سيقانها، يديها، صدرها، هل يمكنه ذلك وهو كوجك سي ضابط صغير في الجيش العثماني يعمل بالفرمان.

كان يعرف أنه لا يستطيع أن يلمس أية واحدة منهن على الرغم من إنه كان بإمكانه أن يقف وينظر من شق في الجدار، كان يمكنه أن يرى محظية على السلم وقد ارتدت سروالا أزرق شفافا، وقد لفت خصرها بزنار بنفسجي، كانت قد خرجت لتوها من الحمام، وقد حلقت عانتها ووضعت مكانها ذنب حصان كما يريد الباشا، ولكن لو رآه الباشا يفعل ذلك، لو شك فقط بأنه فعل ذلك، لأمر أحد العبيد بفقوء عينيه الاثنتين.
ومع ذلك فكر محمود بك مرة بما يلي:

فكر بارتداء زي امرأة كي يدخل في الأودالك أو الحرم، وستكون محظية الباشا معاني الجيورجية هناك، جالسة على الأريكة باسترخاء وهي تمسك بيدها المحناة قصبة النارجيلة تدخن وتنفث الدخان في الهواء،



حين تراه تنهض من مكانها، فترن العقود والخواتم والحجول الذهبية بأيديها وعنقها وسيقانها، يهتز نهداها الممتلئان أمامها، وشعرها الأشقر المعطر بالمسك يهبط على كتفيها، فيرمي محمود بك ملابسه التي تنكر بها إلى الأرض ويحضنها، يشم بها رائحة المحظيات اللواتي يضمهن الحرم، رائحة معتقة لأجساد بكر افتضها أحد المماليك، ستأخذه إلى السرير، تقبله، وتأخذ ملعقة الفضة تغمسها بماء الورد وتضعها في فمه، ثم تخلع ملابسها قطعة، قطعة، وتكشف له عن جسد أبيض مثل الفراء، وسيلمسها بعيدا عن المملوكي الغيور، وعبيده الشرسين، وخصيانه الخرس، وموسيقييه المكفوفين، سينام معها في الناموسية الشفافة، وقد علقت على الجدران السيوف والخناجر والطبنجات المطعمة بالفضة والمرجان، وبعد ذلك فليدخل المملوكي الشرس، فإنه سيذبحه هو والمحظية الجيورجية ولن يظهر أثر منه سوى بقعة دم على السجادة الداكنة الحمرة.

وهكذا شعر بالراحة، شعر بالراحة وهو يفتش الحرس وقد انتفض جسده كله رغبة بالمحظية التي رآها -قبل أن يرميها من جسر الدوب- مرتين، الأولى: حينما رافق موكب خصيانها لخستخانة المجيدية. الثانية: رآها بثوب العيد الطويل وكانت أكمامها واسعة وشفافة، وقد كشفت عن ساعديها، وقد تزنرت بزنار من المخمل المرتق بالفضة والليرات، نظرها ونظرته، ولكنه خاف، ارتعب، ما كانت له القدرة أن يكلمها خوفا من الخصيان الخرس، خوفا من أن يجلدوه بالسوط بعد أن يكتفوه بإذلال ثم يقطعون رأسه، أو ينهال عليه العبيد بالخناجر، أو يبيعونه بسوق النخاسين بقطع من السلاح.

وفي يوم كان يقف عند البوابة من الجهة الخارجية للقصر والمطلة على نهر دجلة، فجاءه مسعود حارس الحريم، وقال له: (أفندينا. . . يريدك). ارتعش، قال: (حاضر. .) وهو يرتجف مثل السعفة، حين شعر محمود بك بالخوف ذلك اليوم من الباشا المملوكي بدأ بالحساب من



الواحد للعشرة لكي ينسى خوفه:

(بر، أيكي، أوج، درت، بش، آلتي، يدي، سكز، طوز، أوت).

دخل القصر ووقف أمام باب الأوداليك، وبعد لحظات جاءه طوسباغي الحارس الأخرس الذي يسمونه طوسباغي وتعني السلحفاة بالتركية، لقبحه وشراسته وقسوته فهو من يقوم بقتل المحظيات أو بيعهن في سوق النخاسة.

أخذ محمود من يده اليمنى وأدخله إلى حجرة صغيرة شبه مظلمة تقع بمقدمة الحرم، هناك كان بمواجهته رضا أغا رئيس الجندرمة، الضابط التركي ذو الشفة المشرومة الذي يرتدي على الدوام قلباغا من الفرو الموبر، وفي الزاوية البعيدة عن الدكة الأمامية للحرم محظية شقراء، عارية، راكعة على ركبتيها، وقد أوثق المخصيون يديها وجسمها بالحبل الخشن وشدوه عند ظهرها، وطرحوا بالقرب منها شوالا كبيرا من الخيش.

انحنى محمود بك للباشا وهو يرتعش: (أوامر أفندينا).

لم يتكلم الباشا إنما أشار إلى طوسباغي برأسه، فتحرك الأسود نحو الجارية وسحبها من كتفيها، ونظر مباشرة بوجه محمود بك، وفي تلك اللحظة وقعت عيناه في عينيها الخضراوين مباشرة، لقد عرفها على الرغم من تغير سحنتها، على الرغم من ذبول عينيها وشحوب وجهها، على الرغم من خيط الدم الأحمر الذي يسيل من جانب فمها، على الرغم من الكدمات الزرقاء على جسدها، على الرغم من آثار السياط على ظهرها ومؤخرتها الوردية، لقد عرف معاني الجيورجية التي رآها للمرة الأولى حين أخذها إلى خستخانة المجيدية والمرة الثانية من شق الجدار وهي ترتدي الفستان بأكمامه الطويلة، المحظية التي حلم بها، أحبها واشتهاها، كما أحب بياتريس الأرمنية واشتهاها، وهذه هي المرة الثالثة التي يراها فيها.



فغر فمه أول الأمر، وفتح عينيه كأنه لا يصدق ما يرى، فغر فمه وفتح عينيه للحظات قصيرة فقط، لحظات لم يكن بإمكان الباشا ولا بإمكان رضا أغا ولا بإمكان طوسباغي الانتباه إليها أو الشعور بها، وإلا لعرض نفسه للمصير ذاته، لحظات فقط ثم حبس أنفاسه، وكتم شهقته، بلمح البصر أعاد فمه إلى حالته الطبيعية، وأعاد عينيه، دون أن يستطيع أي واحد من الحاضرين الانتباه، ولكي يضمن محمود حياته بمنأى من البطش، فقد عود نفسه على المواقف المفاجئة كهذه المواقف، فهو يعرف في اللحظة المناسبة كيف يتصرف غريزيا لكي يتفادى طعنة في خاصرته. قفز من مكانه أمسك شوال الخيش بيديه وناوله إلى طوسباغي، رفع المحظية من كتفيها بعنف، وحين مانعت ضربها بقبضته بقوة على بطنها وأدخلها إلى الشوال، وما أن وضعت أقدامها أسفل، تلصص بنظرة حنونة إلى ساقيها الملساوين، تلصص بنظرة إلى بطنها الناعمة، إلى صدرها البارز وقد أحاطه الحبل وحز به فانسلخ طرف النهد وقد تلطخ الحبل الخشن بالدم، كان عطرها فاغما، وسحنتها باهتة، وقد نظرته هي بعينيها الذليلتين والسوداوين بسواد السورمة، نظرته نظرة لوم، نظرة باكية ذليلة، إلا أنه خاف، خاف من طوسباغي أن يضعه بالشوال بدلا عنها، ويرميه من جسر الدوب في نهر دجلة.

قسا عليها أمام الباشا ليرضى عنه، أدخلها بعنف، كان شعرها كثا وطويلا، فظهر من المكانات التي زروا فيها الخياط في رأس الكيس، فأدخل شعرها بخنجره، وحين انتهيا من ذلك طرحاها على الأرض، فنهض الباشا من مكانه وأخذ يسحق بقبقابه المرصع بالذهب على رأسها بقوة، وهي تئن، ثم أمرهما مشيرا برأسه إلى رميها في النهر، فحملاها هو وطوسباغي وثلاثة خصيان خرس على الجياد، وذهبا بها إلى نهر دجلة، وهناك ومن على جسر الدوب، رمى محمود بك الجارية الجيورجية في النهر، ارتفع الشوال قليلا ثم غطس.



كان محمود بك يقول في نفسه: (عبد مأمور... عبد مأمور من قبل الباشا).

ولا أحد يعرف معنى هذا الكلام مثلما يعرفه محمود بك، ولا حتى الذين يقتلهم الباشا أو رضا أغا، أو رفيق بك، أو محمود بك نفسه، فهو ضابط صغير، كوجك سي في الجندرمة العثمانية، لا في المركز العام للجيش الذي يديره أنور باشا، ولا في الينجرية التي كانت في باب الأغا -قبل أن يقضوا عليها- كل ما يريده محمود بك هو أن يبقى بمنأى عن طعنة طوسباغي الذي قتل سعيد بك، موظف الدفتردارية أمامه، ومنذ ذلك الحين صار يخافه، في أول الأمر كان يظن أن مهمة طوسباغي هي مهمة نسوانية بالأساس، وكل ما يفعله لا يتجاوز الأودالك مكان الحريم، ولا يصل السلاملك مكان الرجال، لأن طوسباغي يشبه السود الذين يعملون في دار السعادة أغاسي، والذين يعرفون بأغا البنات أو القيزلر أغاسي ولا يكون إلا أسود خصيا، يشرف هو ومن تحته من الأغوات على الحرم، ويقوم بالاعتناء بفراش الباشا وتهيئة الحريم وتبديلهن، وكان معظمهم يقدمون هدايا من ولاة مصر إلى السلطان، ولكن شيئا فشيئا أدرك محمود بك المهمات الموكولة لطوسباغي، فهو الذي قتل حماد الدرويش الذي كان يعلق برقبته العقود ويربي القطط، ويكشف عن بعض الكرامات في القلندرخانة، وهو الذي قتل الشيخ أحمد الوفائي بمسجد الإسماعيلية، شيخ الكبابجية كما يسميه أهل العامة في بغداد، حفيد وفاء خاتون الجلائرية، وحين سأله مرة منيب أفندي بأنه يخاف من السلطنة أكثر مما يخاف البشر العادي من عامة الناس قال له: (ليش هذا عيب؟... مو رجال اللي ميخاف..).

كان محمود بك يشعر بالرعب كلما تذكر طعنة طوسباغي لسعيد أفندي مصطفي أمامه وأمام رؤوف باشا وقد طرحه على الأرض (طراب...).

كلما تذكر سعيد بك الأصلع بخاصرته المفتوحة وقد أمره الباشا



برميه في بالوعة القشلة (جش. . . .).

هل يجعل محمود بك مصيره مثل مصير سعيد بك مصطفى؟. ولا سيما أن الاتحاديين اتهموه بالعمل مع الثورة العربية، وقد قتلوا ثلاثة منهم في سوق الجوخجية، وطارد الجندرمة بعض التجار في خان البزازين، دخلوا إلى الخان من جهة سوق الصيارفة، من فتحة قريبة من دكان سلمان أفندي هارون الجواهرجي، وصاح تاجر البشت جعفر أغا حمندي بأعلى صوته، فهرب التجار المشكوك بتعاونهم مع الإنكليز، إلا أن الجندرمة قبضوا على جعفر أغا، فتوسط له أحمد دله الذي كان يملك سوق البزازين بعد أن أخذه من آل الكهية وأخرجه من القلغ.

وفي اليوم التالي، قرأ خليل باشا خطابه على أهالي بغداد وجمهورها، وحذرهم من الشريف حسين الذي خان الدولة السنية وتحالف مع الإنكليز، فهاجت أهالي بغداد وماجت ضد المتعاونين مع الأمة النصرانية ضد أمة المسلمين، من أتراك وألمان، وحين قال محمود بك للشيخ أمين ولكن الألمان نصارى أيضا، قال له:

(لا. . لقد أسلم الملك الألماني غليوم على يد الشيخ هليل. .)

شيخ هليل، الشيخ البغدادي الذي كان مؤذنا في جامع القبلانية، والذي رحل كداعية إسلامي هو وعبود ابن بهية إلى أوربا، وهناك وبعد مناظرة قوية مع شيوخ النصارى، كان الملك غليوم قد استمع إليها، اقتنع بمحاججات الشيخ هليل، وأصبح مسلما على الطريقة الحنفية، ولكنه يخشى أن يعلن إسلامه في الوقت الحاضر، وهو أمر معروف، ولكن سعيد بك ينكر هذا الأمر، ينكر إسلام الملك غليوم، وينكره كل أصحاب الفكرة القردية ودعاة خلاعة ومياعة النسوان والمشتغلين بالقضية العربية، ومن هب ودب من كارهي الدولة السنية، من فرس ويهود ونصارى، فكل أصحاب القردية يدعون إلى خلاعة النسوان نسبة للشيخ أمين، لأن الله قال لليهود كونوا قردة خاسئين والقرد يعرض مؤخرته



للناس، وهكذا فإن القضية ثلاثية: دارونية قردية، قردية خلاعية، ويهودية.

أما الشيء المهم في نقاش العامة في بغداد وجمهورها هو طهور ملك الأمة الألمانية، هل تطهر أم بقي قضيبه على حاله؟ وقد تبرع عباس مرزا مطهراتي الكاظمية ومحلة أبي الجوادين بطهور الملك غليوم على حسابه، دون أن يأخذ منه بيزة واحدة، على الرغم من صعود ثمن الطهور تلك الأيام إلى خمس بيزات للقضيب الواحد، ولكن الشيخ سالم الأعظمي مطهراتي الأعظمية والشوصة والسفينة، احتج لأن غليوم على مذهب الحنفية ومن المستحيل أن يسلم قضيبه لواحد من الشيعة الرافضية، ويتحدث أهل الأعظمية الذين يجلسون عصر كل يوم تقريبا قرب جامع أبو حنيفة النعمان عن طهور الملك غليوم وما جرى هناك في ألمانيا:

جلس الملك غليوم باشا على الأرض ذلك اليوم، وكان حاجبه يمسك المبخرة ويطوح بها على رأسه من الأعلى وتحت جلبابه من الأسفل، وهذا الجلباب ذاته الذي أهداه عدنان الأعظمي الذي يسكن الشوصة، إلى قتصل ألمانيا في بغداد، وقال له: (هذه دشداشة بيضاء جديدة ليصلي بها شيخ غليوم يوم الجمعة...).

دخل عليه الشيخ سالم الأعظمي وهو يحمل جراب المطهراتي، ومعه مساعده جلال الذي يشبه الثور، أخرج الموسى وقليلا من الرماد والزيرقون وسائلا يسميه المطهراتية (عنبق)، أمسك جلال غليوم باشا من ركبتيه وجلس على بطنه، وبلمح البصر بتر الشيخ سالم الأعظمي قلفة غليوم الذي بقي يصرخ والحاجب الأشقر يطوح بالمبخرة ويترنح فوقه بكل سرعته، سكب على قضيبه السائل، وشده بقطعة قماش بيضاء وهو يصيح: (ما شاء الله... ما شاء الله).

وبعد ذلك قام غليوم وهو يمسك دشداشته البيضاء من الأمام وسار بعد أن باعد قدميه وهو يبكي ويولول، وقد نصح الشيخ سالم غليوم (أبو



جاسم) لأن اسمه السري محمد، أن يفعل ما يفعله الأطفال المطهرون في بغداد، أن يضع قضيبه في كوم من الرمل الساخن الذي سفعته الشمس، فهو أطهر له وأجلب للشفاء السريع. ومع ذلك لم يأخذ الشيخ سالم بيزة واحدة من الألمان على عناد الشيعة، ولكن الشيعة يعتقدون أن هذه كذبة من كذب السنة الناصبة، فالملك غليوم قد طهرته الملائكة، وإنه شيعي ولكنه لا يريد أن يحرج السلطان العثماني، وقد حقد المسيحيون في بغداد على كذب المسلمين الجهلة والمتخلفين الذين يبترون القلفة التي أثبت الأطباء في أوربا أهميتها في إطالة العمر وتكثير الرزق وإدامة العقل، كما قال الأب يوسف حداد في كنيسة الكرمليين في بغداد، وهو أول من نشر مقالة عرض فيها لكتاب (نقدات العقلية الصافية) للفهامة العلامة الألماني كانطة، والمقالة الثانية تحدث فيها عن مضار الطهور في الخطة الشرقية، ولا سيما تأثيرها على العقلية الصافية التي أحرزتها الأمة الأوربية بسبب نبذ العادات الشرقية الضارة مثل الطهور والحجامة والسحر.

*

تعرف محمود بك على موظف الدفتردارية الجديد في القشلة همايوني، سعيد بك مصطفى الذي جاء منقولا من أيالة شهرزور من محضر شرعي شريف، بسبب شكوك الأستانة بولائه، وفي ظهيرة يوم من أيام تموز القائضة، دخل سعيد بك الساحة الداخلية للقشلة بوجهه الأسمر وبذلته الإفرنجية السوداء، وطربوشه النظيف الأحمر، وهو يحمل بيده مذبة مصنوعة من ذنب الخيل يهش بها، لقد كان أنيقا، متبخترا، وسعيدا بوظيفته الجديدة.

قبل وصول سعيد بك بيومين إلى الدفتردارية التي تقع تحت البرج الذي يقضي محمود بك خفارته به، قال عبد الله جامعي، التركي، الأشقر، النحيف، القادم من أدنة، والذي يعمل منذ سنتين في خدمة السلاح الدار، إلى محمود بك حين التقى به في رأس السراي:



(إن الموظف الجديد يعمل في القضية العربية. . فخذ حذرك منه. . .).

وما كان محمود بك يصدق الإشاعات التي تدور في القشلة همايوني عن كل موظف جديد، ولا سيما إشاعات هذه التركي الذي يدعو إلى الطورانية والحركة القومية التركية، ترك أوجاغي، والذي يظن أن الأتراك عرق نقي جاء من آسيا الوسطى، ويدعو إلى تنقية اللغة التركية من العربية، وقد أراد أولا أن يغير اسمه إلى اسم تركي هو آغور، وغير أسماء أبنائه من سعيد ومحمد إلى هولاكو وتيمور، وكان يغني كل صباح مفتخرا برايات جنكيزخان وهي تخفق على صفحات تأريخ الأتراك:

(جنكيز خانك بايراغي آنلي شاني صنلا ندي).

فهو ما أن يواجه شخصا عربيا جديدا حتى يبدأ بعد مغادرته مباشرة بإطلاق الإشاعات عنه كأن يقول: ماسوني مثلا، أو يقول: من أصحاب التطورية والفكرة القردية، وهي مكروهة عند أكثر الأوساط الرسمية في القشلة همايوني، أو يقول إنه من المشتغلين بالقضية العربية وهي تهمة كافية لإعدامه، أو يقول إنه من الموالين للحلفاء، وهذا يعني جاسوس خطير، وقد تعود محمود بك أن يسمع من عبد الله جامعي هذه الإشاعات ولم يعد يصدقها، يقول البعض أن أخباره صحيحة طالما هو يعمل في سلاحدارية القشلة همايوني، والبعض الآخر يقول بأنه كما كان يعمل لأبي الهدى الصيادي في الأستانة ويوصل كل شيء بتقاريره إلى السلطان عبد الحميد، فإنه يمالأ الآن الاتحاديين ويوصل تقاريره بالتفصيل إلى المركز العام، ولذلك كان محمود بك يخاف منه كثيرا ويخشاه.

*

صباح كل يوم بعد أن ينهي خفارته في برج القشلة همايوني، يهبط محمود بك السلم فيلتقي بسعيد بك عند الفسحة المبلطة بالطابوق أمام ديوان السلاح دار، وهو يصفر بفمه الممتلئ بالأسنان، ويحرك مذبته



يمينا وشمالا، يتحدث معه عن أشياء متباعدة، أحيانا يهبط محمود بك من برج القشلة ويذهب لزيارته في مكتبه الجديد في الدفتردارية، وحين يخرج سعيد بك لأمر قصير من مكتبه يسمع الموظفين يتهامسون عنه بصوت خفيض، وما كان أحدا قادرا على أن يتحدث عنه بصوت عال بطبيعة الأمر، ولكنه كان يسمع مثلا: (أنهم يدفعون له أجرا محترما).

ولكن لم يكن محمود يعرف من هو الذي يدفع له، يخمن أحيانا بأنهم يقصدون الإنكليز ويخمن أحيانا أنهم يقصدون الدفتردارية التي تعين فيها، أو أن يسمع إنه من أنصار عبد الحق حامت وصفاء فكرت الذين يؤمنون بأفكار الانقلاب الفرنسي وبشعارها الذي يرفعه شباب الأتراك هذه الأيام: (عدالت حريت مساوات) وكان يعرف بأنه من أصدقاء القنصل الفرنسي، وكان يذهب للقنصلخانة المطلة على النهر من جهة الدنكجية، وقد طلب الباشا رؤوف، المسؤول عن المشتغلين بالقضية العربية، ورضا أغا رئيس الجندرمة من محمود بك شخصيا كتابة التقارير عنه، وطلبا منه رصد تحركاته، وقالا له إنهما يشكان به، ربما هو من المتعاونين مع الإنكليز أو مع المشتغلين بالقضية العربية.

وقد عرف محمود بك أن صديقه البغدادي الجديد يصرف أكثر راتبه على راقصة شامية في ملهى الميدان، راقصة اسمها (وفيقة الدمشقية) جاءت إلى بغداد بعد المجاعة مباشرة، هي وأمينة، وجورجينا البيروتية، وسليمة أم عظام التي أخذت تعمل في ملهى الهلال مع رحلو الحلبية، وإن سعيد بك يبذر الباقي على المايخانات، وعلى علاقاته الكثيرة، فهو صديق أكثر الأفندية في قهوخانة الشط وممن يؤمنون بالتطورية وتحرير المرأة، فهو صديق يوسف غنيمة، وداود صليوة، وعيسى رزوق، والتاجر مراد أفندي، وهارون سليم الطرزي، وصفاء الدين الشامي الذي قتله رفيق بك لأنه يعمل بالقضية العربية، كما إنه صديق جميل أفندي الزهاوي وإبراهيم حلمي العمر، وسليمان الدخيل، ووجيه بك فكرت، وكانت الإشاعات تنتشر عنه في كل مكان، وذلك بسبب علاقته مع



القنصل الفرنساوي في بغداد، وأمين صالح أفندي الحلبي الذي كان يدرس في باريس وجاء إلى بغداد وكان يحرض شباب بغداد على القضية العربية والأفكار الانقلابية في العدالة والحرية والمساواة، وكان على صلة بكل الشباب الذين كانوا يقرءون المقتطف وحريت أفكار ولغة العرب لأنستاز ماري الكرملي، و كل الذين يؤمنون بالفكرة القردية، ومشكلة سعيد بك أنه يصرح بأيمانه بالفكرة القردية، و يظن بأن العرب من سلالة القرود مثل الأوربيين، ويحاجج من لا يؤمن بفكرته بكل الوسائل، ويعتقد بأن الناس المهمين كلهم دون استثناء يؤمنون بالفكرة القردية، ومن لا يؤمن بهذه الفكرة الجاهل فقط، وكان يجلب لمحمود بك كل شهر المجلات المصرية مجلات يعقوب أفندي صروف، وشبلي أفندي شميل، وأنطون فرح، يقرأها هو علنا في مكتبة القشلة همايوني، ويتحدث عنها بصوته الأجش، وبحضور عدد من الناس، وحين يتكلم ينزع طربوشه الأحمر عن جمجمته، وتظهر صلعته التي تشبه قبة جامع الكاظمية، مسجفة ولامعة ونظيفة، يتنحنح ويتكلم بصوت يخرج من بطنه:

(طبعا نحن قرود أولاد قرود. . . شبلي شميل طبيب وعنده علاقات حتى مع داروين. . . وهو يعرف أكثر مني ومنك بأصلنا).

*

كان محمود بك بطبيعة الأمر يكتب كل هذه الأشياء بتقارير للباشا، يكتبها دون استثناء، فهو لا يستطيع تقرير أهمية ما يكتب بنفسه، إنما يترك هذا للباشا رؤوف، ورضا أغا، والذين يعرفون عن القضية العربية الكثير، وإن كان سعيد بك مصطفى يحاذر من محمود بك أول علاقتهما، فإنه أصبح بعد فترة قصيرة أكثر تحررا، أكثر ثرثرة، يتحدث دون تكلف وعن كل شيء حتى عن القضية العربية وعن تأسيس حركة (بارقت حريت) في زمن محمد فاضل باشا الداغستاني، التي فشلت، كان يجلس قبالة محمود بك، ويبتسم له ابتسامات قصيرة متقطعة، أو



يسير معه في ساحة القشلة همايوني ويتحدث عن بعض الأشياء الغامضة، أو يوجه نقدا خفيفا لأنور باشا، أو لطلعت باشا، أو لترك أوجاغي، أو للحركة الطورانية، أو لحزب الاتحاد والترقي في بغداد، أو يلفظ بعض أسماء المشتغلين بالقضية العربية مثل عبد الحميد الزهراوي، وندرة مطران، وبطريقة عرضية، مثلا يتحدث عن الرصافي ويقول استقبله ندرة مطران أيام كان يشتغل بالقضية العربية في استنبول.

ومن ثم صارت علاقتهما أكثر تماسكا، ولم يعد يلتق به فقط في ساحة القشلة همايوني، إنما أخذا يخرجان عصرا إلى قهوخانة الشط في المصبغة، أو في المايخانة لشرب العرق في الليل، كانا يسيران معا ببطء، وسعيد بك مصطفى يضرب بمذبته المصنوعة من ذنب الخيل على ركبته، ويقول: (السلطنة انتهت).

(ما المشكلة سعيد بك. . . ؟).

(مزاجي متعكر. .).

(لماذا. . . ؟).

(الاتحاديون خانونا. . .).

(كيف. . ؟).

(أداروا لنا ظهورهم. . بعد أن أخذوا السلطة).

صمت قليلا، بعد ذلك، قال: (تفو. . . تفو).

(على من. .). قال له محمود بك من أجل أن يكتبها في التقرير.

(للآن لا أعرف على من؟).

(لا والله. . . ؟).

(ترك أوجاغي. . .).

(وبعد. . ؟).

(عبيد الله في مسجد أيا صوفيا. . .).

(وبعد. . . ؟).



مص شفتيه وسكت، ثم استغرق في تفكير مهموم، كان ينظر إلى الناس من فوق أنفه، وقبل أن يصلا إلى قهوخانة الشط، ارتاح، خلع طربوشه ومسح العرق من صلعته، وراح ينظر إلى الناس، كان الجميع يعرفه، ويسلم عليه: (شلونك سعيد بك... إن شاء الله مرتاح).

(الله يسلمك...).

كان يحيي الجميع وهو يتنهد:

(عرب عظماء... إن شاء الله نتحرر وتساعدنا أوربا).

وهي جملة كان يقولها الجميع: التركي يظن أنه من أمة هي أعظم الأمم على الأرض، وهي الأغنى، والأعدل، والأجمل، والأصفى، والأنقى، وكل الأعراق أنجاس يبغون تدمير أمته واحتلالها وعليه أن يبادر في قتالها لكي يحمي نفسه، والأرمني يظن أن عرقه أعظم ما خلق الله وعليه أن يقتل الأعداء قبل أن يفتكوا بأمته، والعربي من أمة لم يخلق الله شبيها بها وعليها أن تسود في الدنيا والآخرة، واليهودي فضله الله على العالمين وأعداؤه يكثرون، والروسي، والإنكليزي، والفرنساوي، والهندي، والزنجي، وقد يتعجب التركي من الكردي الذي يرفع أنفه عليه لأنه يظن أن عرقه أعظم من التركي ويسمو عليه، ويتعجب الفارسي كذلك من العربي الذي يحتقره لأنه لا يعدو أن يكون علجا بنظره، والتركي يرى العربي عربجه قذرا. كانت الأمة في واقع الأمر أمما وشعوبا تفتك ببعضها، بيارق ترتفع، وبيارق تهبط، ديانات تصعد وديانات تزول، لغات ميتة تبعث ولغات حية تباد، أشعار تثير حماس الشبان والنساء والصبيان، وآداب برمتها تتحدث عن أعراق نقية مهددة، وقتل ضروري للآخرين، أحقاد تنبعث من كل مكان: من آسيا من أفريقيا من أوربا، وبغداد تعيش وتشهد على غليان الأعراق وتفجرها.

*

كان سعيد بك يتحدث وهو يسير مع محمود بك في الطريق، كاد



أن يصدمه حمار أو بغل، وقد حجزتهما عربة تكلك في الطريق، وسعيد بك لا يغضب كما يغضب في مكتبه، ولا يسير بفخامة كما يسير في مكتبه، إنما يتجول كأنما يتجول في بستانه، كان يتكلم بصوت حزين عن شباب العرب الذين أعدمهم جمال باشا السفاح، أو يتحدث عن شباب بغداد الذين أخذوهم للقفقاس وماتوا في الثلوج، ومحمود بك يصغي إليه وهما يسيران من جهة نهر دجلة قرب خان الباشا الصغير، كان صوت آذان الجامع يغطي على صوته، أو قرقعة أغصان النخيل في البساتين، ومرات تحجب صوته أصوات السفانة في المهيلات، وقوارب بيت لنج المنحدرة نحو البصرة.

وحين يصلان إلى أحد الخانات ويرى التجار الأتراك القادمين من استنبول وهم يحملون البضائع أو ينزلونها على الضفة، يصيح عليهم بصوته الأجش بالتركية:

(أفشام شريفلر ينيز خير أولسن. .).

(خوش بولدق).

(صفا بولدق).

وبعد أن يتجاوز الخان بمسافة قصيرة، يمنح التجار الأتراك نظرة مستهزئة، ثم يقهقه، وهو يقول بالتركية: (بيلك صاغلق. . . الثورة العربية قريبة ها ها).

كان يضحك من كل قلبه، وبعد ذلك تستولي عليه لحظة غضب، ويصبح خداه بلون الدم، يخرج غليونه ويدخن، يمص طرف الغليون، فيرتد خداه ويصبحان في فمه مثل نقرتين، ثم ينفخ في الهواء فيتطاير الدخان، وهو يقول:

(أظنك تعرف عني كل شيء).

ارتبك محمود بك أول الأمر، ثم أخذ يمسح العرق عن أنفه:

(لا أعرف عنك أي شيء صدقني. . .).



(إنهم يتهمونني بالقضية العربية. . . ولكنهم لم ينفوني معهم).

صمت محمود بك، واستمر سعيد بك مصطفى يحدثه عن تعطيل الصحف والمجلات ونفي داود صليوة والأب الكرملي إلى قيسرى، ونفي إبراهيم صالح شكر وعبد اللطيف ثنيان إلى الموصل، وحدثه عن كتاب عبيد الله شيخ جامع آيا صوفيا الذي شتم به العرب، ثم سأله فيما إذا كان يؤيد القضية العربية.

انتفض محمود بك وهو يسير، ارتجفت ركبتاه، ثم ارتخت أجفان عينيه، هل كان من السهل عليه أن لا يكتب هذه الأشياء في التقرير المقدم للباشا، لقد خاف كثيرا، ارتعب من الكلام الذي حدثه به سعيد بك مصطفى، وحين شعر بأن سعيد بك التقط طرف تفكيره حاول أن يتلافى اضطرابه ويذهب بالموضوع وجهة أخرى، ولكنه فشل لأن سعيد بك مهووس بهذه المشكلات، والشيء الأكيد الذي شعر به أن كلام سعيد بك ليس خطيرا، لأنه لا يعمل في القضية العربية بالكتابة أو بالسلاح والتنظيم، ولكنها كلام شباب، وهو نوع من المباهاة الكلامية ولا يمكنها أن تكون مصدرا للإزعاج، ومع ذلك كان من السهل عليه أن لا يخبر أحدا، أو أن يكتب كل هذا الكلام في التقرير، ولكنه لم يكن متأكدا من نفسه.

كركر سعيد بك ضاحكا، ثم وقف عند باب المايخانة ليلتقط أنفاسه، خلع طربوشه ليتمكن من مسح صلعته بالمنديل، لقد استغرقه التفكير، وثقلت أفكاره عليه، ربما شعر بأنه ارتكب خطأ لأنه تحدث مع محمود بك بالقضية العربية، خاف وارتعب، فتنهد ببطء، وقال بأسلوب من يريد أن يفسر رأيه بأية صورة: (لو لا ثقتي بك ما حدثتك بالقضية العربية).

(طبعا. . . طبعا. .).

(إن شاء الله ما يعرفون بهذا الأمر. . . وأنت لا تحكي. . . بعد ذلك أنت عربي. .).



(طبعا. . . طبعا).

وقف أمام المايخانة ليلتقط أنفاسه مرة أخرى، شعر بحرارة تخرج من أنفه وفمه من الخوف، شيء أصابه شبيه بالحمى، لقد سخن جسده وأخذ العرق ينز من جبينه فيمسحه بالمنديل، انحنى قليلا بعد أن شعر بأن كتفاه تدلتا للأمام من الرعب، وظهر الخوف على وجهه، وأخذ صوته الهادئ يتوسل: (أنت صديق مخلص).

تنهد مرة أخرى، كركر ضاحكا، ابتهج، ودخل إلى المايخانة مع محمود بك ليأكلا ويسكرا آخر مرة على حساب سعيد بك مصطفى.

*

في اليوم التالي ومنذ الصباح، صعد سعيد بك إلى برج القشلة، وبعد ثلاث درجات من السلم واجه محمود بك هابطا، كان وجه سعيد أصفر، متعبا، وقد بدت علي عينيه دوائر الزرقة الكامدة، فلم يذق طعم النوم طوال الليل أبدا، قال لمحمود إنه يريد أن يشرب القهوة معه، وكان لهذا الأمر تأثير علي محمود بك دون شك، فصعد السلم بقفزات رشيقة، أما سعيد بك فقد صعد ببطء، وحين وصل الحجرة، قال: (لحجرتك طراز عربي أصيل).

شاعرا بأن للكلمة الأخيرة تأثيرا مباشرا عليه، كان يعتقد بأنه يذكره من خلالها بأنهما من عرق واحد، ومع ذلك كان محقا، فغرفة البرج كانت غرفة عمل وغرفة نوم في آن واحد، وكان أثاثها عبارة عن سرير عسكري وبطانيات قديمة، وهنالك طاولة قديمة الطراز، وأعواد بخور، وروزنامة تركية، وبسط وحصران عربية، وهذا ما جعل سعيد بك ينتبه لهذا التبدل المعاكس للترف التركي.

أشعل سعيد بك الطباخ الصغير ووضع قوري القهوة عليه، نظر نحو محمود بك بغبطة كبيرة، ثم سار على أصابعه إلى النافذة ورد الستائر عليها، وذهب بعد ذلك إلى الزاوية البعيدة، رمى جاكتته على الكرسي،



وعلق طربوشه على المسمار الصدئ المثبت في الحائط، ثم أخذ من النافذة الجرة الفخارية وأخذ يشرب (قرق. . . قرق).

تحدث معه عن كل شيء إلا القضية العربية، وقد مدح السلطان كثيرا، ومدح الدولة السنية، وخليل باشا، ولم ينس أن يدعو لانتصار الأمة الإسلامية على الأمة النصرانية. . . وشتم المشتغلين بالقضية العربية. وبعد أن شرب القهوة وهو ينظر إلى محمود بك بابتسامة مرتابة، نهض من مكانه، ارتدى جاكتته وطربوشه، صافحه، وهبط السلم وهو يمشي بحذر.

جلس محمود بك على الطاولة المقابلة للنافذة، وكتب تقريره عن سعيد بك، كتب كل شيء، وقد أضاف من عنده بعض الأشياء، لماذا؟

لقد تأكد محمود بك بشكل كامل من أن سعيد بك مصطفى البغدادي هو من المشتغلين بالقضية العربية، فلو كتب في التقرير ما قاله سعيد بك فقط، فلن تكون التهمة أكيدة، لأن الكتابة مهما كانت لا تستطيع نقل تعبيرات الوجه، أو نقل السحنة وتغيراتها، مهما كانت الكتابة دقيقة فإنها لن تستطيع نقل الارتجافة والخوف الذين رآهما محمود بك على وجه سعيد، مهما كانت لا تستطيع نقل اضطراب الوجه وتعرق الصلعة، وهو دليل قاطع على أن من يخفي عنزة بين ثيابه فإن العنزة ستمعمع، لقد شعر محمود بك أن سعيد بك من تعبيرات وجهه وتلجله وخوفه واضطرابه هو من المشتغلين بالقضية العربية، وفي صباح اليوم التالي، كان محمود بك وسعيد بك وطوسباغي أمام الباشا رؤوف الذي كان مسؤولا عن المشتغلين بالقضية العربية، وحين قرأ عليه رئيس الجندرمة رضا أغا التقرير، أخرج سعيد بك لسانه وأخذ يلحس شفتيه، وبلمح البصر طعنه طوسباغي في خاصرته، وحين انطرح على الأرض، مزق أحشاءه وجرها على السجادة الحمراء.

*

(عبد مأمور. . . كلنا مأمورون هنا. . . حتى الباشا مأمور) قال



محمود بك وهو ينظر من النافذة العريضة لبرج القشلة همايوني، فيرى الجندرمة واقفين تحت المطر والبرد، (مأمورون..) يقول في نفسه وهو يرى خليل باشا في سيارته يروح ويجيء، ويتساءل في نفسه عن الفرق بينه وبين البغل المربوط بشباك النداف القريب من جامع عادلة خاتون، هو عبد مأمور، وخليل باشا عبد مأمور، والسلاح دار عبد مأمور، وهذا البغل عبد مأمور، الإنسان عبد مأمور من الله، وربما يقول أصحاب الفكرة القردية القرد مأمور، بدلا من الإنسان مأمور.

(طيب لو كان الإنسان أصله قرد... لعد القرد شنو أصله.. خرا.. ؟). هكذا رنت في أذنه جملة الشيخ أمين.

*

كلما سمع محمود بك جملة (عبد مأمور) يتذكر رضا أغا رئيس الجندرمة، وحملته على عوني بك، يتذكر اليوم الذي ذهب فيه إلى بستان العقيل، لقد كان النهر ينحسر عند الضفة، والطيور التي ترفرف تتصيد في المياه الضحلة، وهنالك أشجار كثة، وحقول تمتد على جانبي قافلة الجندرمة التي برفقته، وقد جاء معهم آمر الحرس رضا أغا بنفسه، ومن بعيد تلوح قرى صغيرة تنتشر هنا وهناك، من باب الأغا من جهة نهر دجلة وحتى باب المعظم، بيوتها مبنية من الطين، وسقوفها مبنية بالتبن والعمد الخشبية، وحين ساروا في الشارع الترابي المحاذي للقرية مرت قافلة من الجمال باتجاه النهر وتوقفت قرب القوارب والزوارق التي تحمل الناس من الكرخ إلى الرصافة، وفي المستنقع القريب من الشريعة يرقد الجاموس الذي يغطس ويطفو في المياه الضحلة، ويهش الذباب عن جلده الأسود بذيوله الرشيقة. وعلى مقربة منه نساء يمخضن اللبن في جلود الماعز، وأخريات يحملن جرارهن ويذهبن إلى النهر، ومن بعيد ظهرت نساء القرية مثل الغربان، فهن يرتدين اللون الأسود من الرأس إلى الأقدام، وقد سار رضا أغا رئيس الجندرمة تحيط به جماعة من الخيالة على يمينه، وجماعة من الخيالة على يساره، وهو يمسك السوط الأبتر



بيده، بعد أن لف جزءا منه على مقدمة السرج، كان ينظر بعينيه الزرقاوين اللامعتين إلى الفلاحين فيهربون أمامه، كل البشر تهرب أمامه ولا يبقى في الطريق سوى الدجاج وهو ينقب عن الحبوب في الأرض، والأبقار الصفر الهزيلة وهي تعلك ببسطار جندرمة تركي مرمي بالزبالة، أو بشخص جلس على الأرض ليتغوط قرب الشجر.

كانت الأكواخ الطينية شبه متداعية، والمياه تصب في الترع، وهي تخرخر بصوت عذب، وحين رأتهم القوارب الشراعية اندفعت وسط النهر لتعبر إلى الضفة الأخرى، وهنالك مجموعة من الفقراء أخذوا يبكون أمام الاصطبل، ونساء يولولن عند القن، وكان الدجاج يصعد ويهبط وهو يخفق بأجنحته غير مبال بالجندرمة العثمانية.

*

اتجه موكب الجندرمة نحو منزل كبير مشيد بالطابوق، يحيط به النخيل الذي يظلل بسعفه النوافذ من جهات المنزل الأربع، وكان الطريق الترابي مغطى بطبقة من الرمل الناعم. ثم سار بممر ضيق يخترق الأرض الزراعية ويؤدي إلى ساحة خضراء أمام البوابة الكبيرة، وحين وصل الموكب عندها، هبط رئيس الحرس وأمر الجندرمة بجمع الفلاحين الذين يسوقون الثيران التي تحرث الأرض، وكان كل ثور منها يحمل نيرا على ظهره ويدور.

ركض الجندرمة وراء الفلاحين، فهرب الدجاج الذي كان يلقط الحبوب في الساحة الخضراء على دربكة بصاطير الجندرمة الثقيلة، وأخذت الخراف، التي كانت هناك، تركض دون اتجاه محدد، وهربت الماعز أمامهم إلى ضفة النهر، وبقيت الحمير وحدها تهز برؤوسها دون أن تعرف ما يجري، وقد كتف كل واحد من الجندرمة فلاحا وجاء به إلى رضا أغا، دون أن يعرف لماذا، لا الجندرمة يعرف ولا الفلاح يعرف، وحين يسأل الفلاح وهو يصرخ ويبكي: (شنو سويت... شنو سويت... حتى تأخذوني).



يقول الجندرمة: (والله ما أعرف. . أنا عبد مأمور).

هبط رضا بك من جواده الأحمر وهو يضرب عصا التبختر براحة يده، كان كرشه عظيما وشواربه البيض مرتفعة ومبرومة، وقلباغه الفرو صاعدا للأعلى، وعيناه الزرقاوان صغيرتان إلا أنهما حادتان، صقريتان، وقاسيتان.

(أنا عبد مأمور. . . كلفني الباش باعتقال عوني بك. . . وجلبه مكتوفا. . . لأنه يعمل بالقضية العربية). ثم خطا خطوات أمام الفلاحين المشدودي الوثاق وقال:

(عوني بك هرب وترككم. . . أنا عبد مأمور. . أمرني الباشا. . ماذا أفعل. . . علي أن أؤسر أصحابه. . . لو عدت له من دون عوني بك. . راح يقتلني. . فعلي أن أقتل مجموعة من الفلاحين وأقدم رؤوسهم للباشا. . . وأقول له نحن خضنا حربا ضد عوني بك. . . واستطاع أن يفلت. . ومع ذلك قتلنا عصابته. . ونطرح الشوال أمام الباشا فتتساقط رؤوس القتلى. . وسوف يرتاح. . وهذا المهم). فأخذ البكاء يتصاعد، وكان صراخ النساء حادا ومرتجفا ومتوسلا.

لم يستطع رضا أغا حل هذه المشكلة، وقد شد الجندرمة وثاق أكثر من عشرين فلاحا وهم يبكون، وكانت النساء قرب المنازل المتداعية تبكي، وتصرخ، وتولول.

وقف رضا أغا أمامهم، خلع قلباغه فظهر تحت الشمس الساطعة شعره الأشقر، وظهرت بوضوح شفته العليا المشرومة والتي لم تستطع شواربه أن تخفي هذا الشق الوردي الذي يكشف عن أسنان صفر من التدخين، أخرج غليونه من جيبه، أشعله، وأخذ ينفث الدخان إلى الأعلى وهو يسير جيئة وذهابا. وبعد تفكير طويل توصل إلى حل. قال:

(أنا شخص عادل. . . صحيح أنا عبد مأمور. . ولكن علي أن أحكم بين الناس بالعدل. . . فأنتم هاربون من السفربرلك وعلينا أن



نأخذكم ونأخذ كل حميركم.. وكل جمالكم.. وكل بغالكم... ودجاجكم... ثم نقسمكم إلى قسمين... نطلق قسما منكم.. والآخر نأخذه معنا).

قسم الجندرمة الفلاحين إلى قسمين، أجلسوا قسما على اليمين، والقسم الآخر على اليسار، ثم أمر رضا أغا أحدهم بذبح الدجاج بالخنجر، ثم أمر النساء بطبخه، فجاءت فتاة في العشرين من عمرها، كان شعرها الكث مجدولا، وقد هدلته بضفائر صغيرة حول عنقها وغطته بفوطة سوداء فارسية، وكانت تطوق خصرها بزنار أسود فيه حبات صغيرة من الفضة، وكان نهداها صغيرين مكتنزين. فأعجب رئيس الجندرمة بها كثيرا، وقد ابتسم لها على الرغم من غضبه.

أما النساء الباقيات فقد وضعن الطناجر والقدور على حجرات ثلاث، وأشعلن النار تحتها، وقد انبعث الدخان من كل مكان، وثمة صبية كانت تلقي العجين على قطعة من الجلد المدبوغ، بعد أن حفرت حفرة مستديرة، ووضعت النطع فيها لكي يأخذ العجين شكل قرص سميك، وعلى جانب الحفرة أوقدت النار وأخذت تلقى القرص برفق عليها وتوقد الحطب فوقها.

ثم فرشن الأرض المعشبة ليجلس الجندرمة على الإيزارات الصوف الملونة، وقدمن لهم صحون الدجاج والخبز، فأخذوا يأكلون بكروشهم العظيمة المندفعة أمامهم وشواربهم الكبيرة التي تغطي أفواههم، وعلى مقربة منهم كان رجال القرية مطروحين شبه عراة على الرمال الباردة، وأيديهم موثوقة إلى ظهورهم، فلم يعطهم الجندرمة سوى مآزرهم الرثة وقد ألقيت دون اعتناء فوقهم، بينما أسرت حيواناتهم جميعها لأخذها للميري، وكان محمود بك أكثر حماسة من جميع الجندرمة أمام رضا أغا وأكثر إعجابا بعدالته، فلو لم يكن عادلا لقتل هؤلاء الفلاحين وأخذ رؤوسهم بالشوال ليطرحه أمام الباشا، ولقال له بأنه خاض معركة مع



عوني بك الذي أفلت من يده، وهذه رؤوس جماعته الذين يشتغلون بالقضية العربية. ولكنه عادل، عبد مأمور، هذا صحيح، ولكنه عادل.

*

بعد أن شبع محمود بك من الدجاج، ذهب وراء المنزل ليقضي حاجته، كان البغداديون يفضلونها على الهواء الطلق، ذهب من جهة البستان الخلفي، أشجار وارفة تحت شعاع الشمس، والخضرة تمتد حتى النهر، حيث تعبر الزوارق من هذا الصوب إلى ذاك الصوب، وتطير الحمائم من اليابسة إلى جهة الماء، فاختار بقعة خفية تطل على هذا المشهد الجميل، فك أزرار بنطاله ورد طربوشه إلى الوراء، وقبل أن يجلس، سمع صوتا صادرا من وراء عربة مقلوبة أصبحت عجلاتها إلى الأعلى، وقد تم تغطيتها بأكوار من التبن، فرفع بنطلونه إلى الأعلى، عدل طربوشه بيديه وفتل شواربه، وسار بهدوء قريبا من العجلة الخلفية، فشعر بحركة وراء حطام مغطى بالأسمال، سحب سيفه وسار بهدوء جهة الصوت، لحظة حتى ألقى القبض على فتاة تختبئ بين العربة المقلوبة والحطام، وقد عرفها مباشرة، لقد عرفها من عينيها، أنها ابنة عوني بك، ابنة العربي الهارب من الجندرمة بعد أن ثبت تورطه بالقضية العربية. لقد كانت صبية جميلة، ترتدي فستانا ثمينا وتلف حول خصرها قماشة حريرية حمراء كان طرفها المزخرف على كتفها الأيمن، وقد هبط شعرها الفاحم على كتفيها، فبدت مثل قطة.

نهض رئيس الجندرمة من مكانه حين رأى محمود بك وهو يقود العربية ابنة الهارب من يدها بعد أن ألقى القبض عليها، سار نحوها، دار حولها وقد فكر بأمر ما في نفسه، للحظات بقي رضا بك صامتا، ثم نظر للفلاحين قائلا لهم: بأنه قرر أخذ جميع الجالسين على اليمين وإطلاق سراح جميع الجالسين على اليسار، كما قرر أخذ ابنة عوني بك هدية بسيطة للباشا، والمرأة التي طبخت الدجاج هدية بسيطة له.

نهض الجندرمة من مكانهم، أطلقوا الرجال الجالسين على الشمال،



وقادوا الرجال الجالسين على اليمين بعد أن أوثقوهم، ثم ساقوا الجياد والبغال والحمير بسروجها وبرادعها، وأمروا أحد الجندرمة أن يسوس القافلة، فأخذ عصا طويلة بيده، ضربة على كفل الحمار أو الجواد أو البغل وضربة على مؤخرة الهاربين من السفر برلك، أما الجاريتان فقد صعدت الأولى على جواد رضا بك، وقادها أحد الجندرمة ليضمها إلى محظياته، والثانية وضعها على جواد محمود بك وقادها بنفسه إلى قصر رؤوف باشا ليضمها إلى محظياته.

ومن باب القصر المطل على دجلة، أخذ طوسباغي ابنة عوني بك من يدها وقادها إلى الحرم، فيما دخل رئيس الجندرمة على الباشا وطرح سيفه أمامه على الأرض، قائلا:

(أفندينا أسرت لك الهاربين من السفر برلك... وجلبت لك جمالهم وحميرهم وبغالهم للميري... وأخذت منهم هدية لضمها إلى محظياتك هي ابنة الهارب عوني بك).

أشار رؤوف باشا على محمود بك أن يسجل ورقة بكل حيوان يأخذونه للميري، تطبيقا لأمر أنور باشا قائد الجيش لكي يعيدونه لهم بعد الحرب، فذهب محمود بك إلى القشلة همايوني على جواده، صعد السلم، دخل حجرة البرج، جلس على الطاولة ذاتها التي كتب عليها تقريره عن سعيد بك وسلمه إلى الباشا، وسجل على ورقة منفصلة اسم كل حيوان أخذوه من الفلاحين ليتم إعادته بعد الحرب إلى أصحابه. ولكن محمود بك بقي حائرا فيما إذا كان عليه أن يعطيهم أوراقا بالجاريتين أم لا، ومع ذلك وكما أمر رؤوف باشا الذي يطبق حرفيا أوامر أنور باشا قائد الجيش تناول ورقتين منفصلتين وكتب على كل واحدة منهما اسم الجارية، وحين دخل عليه رئيس الجندرمة في برج القشلة همايوني، سأله محمود بك فيما إذا كان من الواجب أن يعطي ورقة لأهل كل جارية، فغضب رئيس الجندرمة وتطاير الشرر من عينيه، فأحس محمود بك بالخطأ الذي ارتكبه أمامه. ذلك أن تعليقا مثل هذا سيفهمه



التركي بأنه تهكم صادر من عربي على سلوك الضباط الأتراك في الإقليم الذي يسكن فيه، وبذلك ارتعب محمود بك وخاف من رضا أغا خوفا شديدا، وبدلا من شعوره القديم بأنه محل ثقة الأتراك، شعر بأنه سيكون منذ اليوم محل شكهم، وهذا ما جعله يرتعش ويرتجف بمجرد التفكير بالخطأ الذي ارتكبه أمام رضا أغا، وأصبح منذ ذلك اليوم ما أن يرى رضا أغا حتى يتبلبل ويتلجلج ويضطرب اضطرابا شديدا، كما أن رضا أغا من جانبه أخذ يبحث عما يقلق محمود بك، فأخذ يمر عليه كل يوم تقريبا في برج القشلة همايوني، يقف أمامه أول الأمر ثم يدور حوله دائرة كاملة بكرشه الكبير وبعينيه الزرقاوين المرعبتين، والشق الوردي في شفته العليا الذي لم تخفه الشوارب الكثيفة المرفوعة للأعلى، يدور حوله ويسأله بعض الأسئلة بصورة ارتيابية ويمضي، ويخلف محمود يفرك يديه، ويلوم نفسه.

إن ما يصنعه رضا أغا بمحمود بك هو ما صنعه محمود بك بمصطفى بك، وهكذا دواليك، السلطة القوية مثل الدائرة تدور، تدور على مستخدمها وعل من استخدمت عليه، في كل مرة يتبادلون الأدوار، والرعب وحده الذي يهيمن على الدائرة التي يصنعها الفرمان، وهو الدخول في شبكة عبثية وكارثية معا، فرضا أغا يعتقد على الدوام بوجود الخارج، العدو، وعليه، على السلطة الشمولية أن تحتوي تماما كل شيء داخلها ولا وجود لخارجها، إنها نظام غير مرئي، يقظ، ومطلق ومسيطر، وماكر، وحقود دون حدود، يكره لكي يبقى، ومحمود بك الكاره لكي يبقى هو الآخر مكروه، وقد عاش في بغداد الحرب العالمية الأولى، الغرق الكامل في الأنظمة القروسطية التي تتجاوز حدود التاريخ، محولة المدينة إلى شيء يشبه النوادي الليلية القذرة، خليط مبتذل من شعارات إسلامية، وعربات ألمانية، وعاهرات في سن صغيرة لتسلية الأمة المهزومة.

*



ومع ذلك فحالة الرعب التي كان يعيش فيها محمود قد انتهت لصالحه.

إن ما أنهى حالة الرعب هذه، والتي وجد محمود بك نفسه فيها، هو حادث عرضي لم يكن محمود بك يتوقعه أبدا، حادث عرضي خلصه لا من رئيس الجندرمة رضا أغا الذي أخذ يشك به، والذي أحال حياته إلى جحيم، إنما من طوسباغي أيضا، وإلا فإن خطأ مثل هذا الخطأ، خطأ لم يكن محسوبا من قبل مرتكبه، خطأ عفوي وساذج وبريء يمكنه ببساطة أن يودي بحياة صاحبه إلى الموت، أو يحيل حياته إلى جحيم، إن خطأ عفويا وبريئا يمكن أن يؤدي في دولة الشك إلى إعدام إنسان.

في ذلك الوقت لم يكن محمود بك يعرف أن هذه الصبية العربية، ابنة عوني بك، التي وهبها رئيس الجندرمة إلى الباشا، هي سبب قطع عنق هذا الأخرس الذي بإمكانه أن يقرأ شفاه الباشا حين يتكلم دون صوت، طوسباغي هو الشخص الوحيد الذي رأى جمال ثلاثين محظية في الحرم، وهو الذي يرافقهن إلى الحمام، ويعرف دور كل واحدة منهن مع الباشا، ولم يكن يعرف يوما أن هذه الصبية العربية هي سبب مقتل طوسباغي لا مقتله، ستكون هي خلاصه من رضا أغا لا خلاص رضا أغا منه، وكان عليه أن يشكر تلك الحاجة التي لم تتم في البستان، والتي ألقى نهارها القبض على ابنة عوني بك:

في يوم كان الباشا في رحلة صيد مع رضا أغا، وكان برفقتهما عبيد وخصيان وجاريات الأغا رئيس الجندرمة، وهنالك عشرات الحمالين، أنصاف عراة، وفدوا من سلمان باك وتوغلوا في سهول خضر تناثرت عليها وعول البرية لتسرح وترعى، وكان الأولاد يركضون وهم يحملون الرماح والأقواس بين الأجمات الكثيفة ماضين أثر قطيع من الغزلان، فقد صادوا صيدا عظيما ذلك اليوم لا من الوعول فقط إنما من الطيور أيضا، وبعد أن عاد رؤوف باشا إلى قصره، كانت ملابسه ملطخة بدماء الحيوانات، فقد استمتع غاية الاستمتاع بصيد تلك الكائنات وقتلهن،



فأراد أن يكرم رضا أغا بشيء يسريه ويروحه، وحين وصل إلى قصره بعث عليه، وقدم له لحوم الغزلان المطبوخة بعد أن وضعوهن في صحون فضية مزخرفة، وسقاه العسل ممزوجا بماء الفرات العذب والصافي، ومسك كل واحد منهما بشبوق طويل وأخذا يدخنان التبغ ممزوجا بالأفيون، التفت الباشا وقال لرضا أغا:

(أريد أن أكرمك بشيء لا أعرف ما هو...).

(كل ما تكرمني به هو شيء عظيم أفندينا).

(عليك أن تختار..).

(لا أفندينا...).

(هل تريد سيفا... أم جارية؟).

(جارية... باشا).

نهض الباش من مكانه، وقف أمام الحرم، وكان أمامه طوسباغي بسواده العظيم ورمحه وعينيه الشرستين، فتمتم الباشا دون صوت: (إعطيه أقبح جارية عندي).

*

حمل طوسباغي الجارية العربية على حصان أشهب، وضمها إلى موكب رضا أغا، وفي المساء غادرت القافلة القصر المطل على نهر دجلة.

بعد شهرين فقط، زار الباشا قصر رضا أغا، وحين جلس في السلاملك المجمل بالدواوين وشرب القهوة، رأى جارية عربية جميلة كانت تضمها محظيات رضا أغا، كانت تطوق خصرها بسلاسل فضية، وفي قميصها فتحة تكشف عن نهديها الصغيرين المكتنزين، فالتهب الباشا لرؤيتها، وقبل الخروج سأله رضا بك أن يختار ما يهبه من هدية، فقال له الباشا:

(أريد هذه الجارية التي صبت لنا القهوة بالأقداح).



(هذه الجارية. . .).

(نعم. . .).

(ولكن أفندينا أنت الذي وهبتني هذه الجارية).

(ماذا. . . ؟).

(هذه الجارية هي التي حملها طوسباغي على الحصان وضمها إلى محظياتي. . . لا يمكن باشا. . . لا يمكن أن تأخذ مني ما وهبته لي. .).

*

عاد الباشا إلى قصره غاضبا، فأرسل أحد المخصيين إلى محمود بك لمقابلته لأمر هام، فارتعب محمود بك، كانت أقدامه تهتز، وشواربه ترتعش، وشفاهه تتمتم بالأرقام التركية:

(بر ايلي أوج درت ريش التي يدي سكز طوز طقوز ادن).

لقد شعر محمود بك وهو يغادر برج القشلة أنه لن يعود لهذا المكان أبدا، فقد كانت مخاوفه من رضا أغا حقيقية، وكان يدرك في قرارة نفسه أن رضا أغا سيقوم بقتله لا محالة طالما انه شك به، فيكفي لرضا أغا أن يشك حتى تزهق روح محمود بك، لقد أدرك أن تهمته نهائية، وإن مقتله على يد طوسباغي أصبح أمرا محسوما، فأخذ يرتعش من الخوف.

خرج مسعود من المقصورة وقال له أن الباشا أذن لك بالدخول.

دخل محمود بك إلى مقصورة الباشا، كان متربعا على التخت، شفتاه ترتجفان، وعيناه تقدحان من الغضب، ولم يكن محمود قادرا على النظر إليه، وهو يرتجف، انحنى وقال له:

(أوامر أفندينا). وكم كانت مفاجئته عظيمة حين نهض الباشا من مكانه، وقال له:

(حين أؤشر لك بلحيتي أريدك أن تقطع رأس طوسباغي).



صرخ مبتهجا:

(أمرك أفندينا...). لقد فرح كثيرا، تحسس سيفه بقبضته، مسكه بقوة، وحين دخل طوسباغي وقف خلفه مباشرة، سحب سيفه دون أن يشعر به، رفعه إلى مستوى رقبته، وأخذ الباشا يحرك شفتيه وهو ينظر بعينيه إلى محمود، وببطء أشار له بلحيته، وبلمح البصر هوى محمود بالسيف على عنق طوسباغي، فتدحرج الرأس الأسود على السجادة، بينما بقيت الجثة واقفة.

أخذ محمود بك يعد لها: (بر.. أيلي.. أوج..) وسقطت على الأرض (طراب...).

*

وجد محمود بك فرصته اليوم للإطاحة برضا أغا قبل أن يطيح به، لقد أدرك أن الأمر في دولة الشك هو سباق أما أن تطيح برأس الآخرين أو يطيحون برأسك، عليك أن تغتنم الفرصة قبل أن يغتنمها عدوك ضدك، والعداوة شيء سهل لا يمكن تمييزه عن الصداقة، اليوم يتحدث معك وغدا يطيح برأسك أو تطيح برأسه، طالما السيف موجود والخازوق موجود والمدفع موجود يكفي أن تضع عنقا أو مؤخرة أو مدينة مثل المولة خانة، أو مثل الحلة حينما دخلها عاكف بك، الذي قتل وشنق وهدم وخرب، واقتاد نساءها وأطفالها سيرا على الأقدام حتى أعالي ديار بكر.

قالت سميعة بنت الملة غضبان الحلي بأن النساء تركن أطفالهن في القرى والأرياف خوفا عليهم من المصير المجهول، وتحدثت طلبة بنت الحجي ناجي عن الكيفية التي تركوهن الجندرمة بها في قلعة المدينة تحت المطر، وفي الصباح دفعوهن خارج القلعة، وهن لا يعرفن المكان ولا المدينة.

أو كما فعل الميراخور في كربلاء، أو سليمان باشا النظيف، أو ما



فعله طلعت باشا وأنور باشا بالأرمن... قال محمود بك لرؤوف باشا أن هذه المحظية العربية هي التي وهبها له رضا أغا بعد أن أسرها من حملته على عوني بك:

(باشا... هو الذي أخذ ما وهبك إياه..).

فثارت ثائرة الباشا، كاد الدم يطفر من عينيه، صرخ على مسعود بالتركية وأمره أن يجلب رضا أغا من تحت الأرض، فهرع مسعود مع بضعة حراس آخرين، بينما بقي محمود هناك وهو يثخن قلب الباشا على رضا أغا، وبعد ساعة دخل رضا أغا المقصورة وقد تحسس ببسطاره دم طوسباغي على السجادة فشحب وجهه.

لم يكلمه الباشا، إنما دار حوله دورتين وهو يزفر، لحظة نظر الباشا إلى محمود بك فقفز مباشرة نحو رضا أغا وطوقه بيديه، ثم هجم عليه الخصيان الخرس وأوثقوه بالحبل، وقف الباشا أمامه، نظر بعينيه، أخرج خنجره بهدوء من جيبه، ونخسه في خاصرته، نخسه ببطء كأنه يتلذذ بشخير وآلام ضحيته، وكلما يشخر ينخس بقوة، ثم أخرج الخنجر ودسه في صدره وفي بطنه، وحين سقط على الأرض داس بقبقابه على رأسه، وأشار لهم أن يرموه من جسر الدوب في نهر دجلة.

*

لم يكن محمود بك وحده الذي فرح بمقتل رضا أغا، لقد فرح أهالي خانلاوند لأنه هدم فوانيسها التي بناها لهم الوالي عبد الرحمن باشا، وفرح أهل القشل التي رأسها آل كبة لأنه قتل محمود السقا، سقاء العقد الذي كان يحمل قربة من جلد الغنم، ينقلها من الشرائع ويصيح عند تجوله في دروبها وعقودها (هوى... هي). وفرح أهالي القاطرخانة التي منع عنها رضا أغا صناعة الأزر التي تلبسها المسيحيات وتقوم لديهن مقام العباءة عند المسلمات، وفرح أهالي محلة صبابيغ الآل التي منع عنها اللون الأحمر الذي اشتهرت به، كما فرح الشاعر عبد الحميد



الشاوي بمقتل رضا أغا لأنه أول من ناشد إصلاح الأوضاع السيئة في بغداد، مما أثار سخط رضا أغا الذي أخذ يتحين أول فرصة لقتله.

أما الذين غضبوا لموته فهم كثيرون أيضا، وأكثرهم الوالي خليل باشا، لماذا؟

كان رضا أغا أحد أبرز دعاة الجمعية، جمعية الاتحاد والترقي، وهو أول مندوب جاء منها إلى بغداد لتحريض الناس على الانضمام إليها، وحثهم على الاتحاد والسعي بما يرقي البلاد، وقد جاء لهم برسالة طويلة، قرأها عنه الرصافي (لأنه لا يعرف العربية) في جامع الوزير، وقد حضر ندوته ذلك اليوم أكثر أعيان بغداد وأدبائها، وقد تقدمهم الشيخ محمود شكري الآلوسي بعباءته السوداء وعمامته الكبيرة ولحيته التي خضبها بالحناء، ووراءه دخل الزهاوي بمعطفه الطويل وطربوشه الأحمر وقد ربط بغلته بباب الجامع، وعبد اللطيف ثنيان بطوله الفارع ووجهه الرصين والمتجهم على الدوام، وإبراهيم حلمي العمر الذي ادعى عثوره على مخطوطة لابن عربي وقد وزع منها أكثر من ألف نسخة ثم اكتشف الناس إنه هو مؤلفها، والرصافي بعمامته وعباءته وصايته المتهرئة، قبل أن يذهب إلى استنبول ويرتدى البذلة الإفرنجية والطربوش هو وفهمي المدرس، وأنستاز الكرملي الذي وصل منذ أيام إلى بغداد، وقد ذهب إلى ماردين ليوصل صديقه الفرنسي لويز الماسنيوني الذي قبض عليه الأتراك في كربلاء واتهموه بالتجسس، وقد كفله علي الآلوسي عند حازم بك وأطلق سراحه.

التفت رضا أغا إلى الشيخ محمود الآلوسي الجالس في مقدمة الحاضرين بهدوء جنب الكرملي وذكره بالتركية، أن السلطان عبد الحميد قد نفاه إلى الأناضول متهما إياه بنشر المذهب الوهابي ظلما، فهز الآلوسي رأسه، وقد وافق الحاظرون كلام رضا أغا، ومن ضمنهم محمود بك:



هز محمود بك رأسه لرضا أغا، نهض من مكانه في جامع الوزير وصرخ بأعلى صوته أن الشيخ الآلوسي مظلوم من التهمة الوهابية، وهذا كله بسبب الاستبداد الحميدي، وكان الجميع يعرف أن محمود كان من أكثر المتحمسين للسلطان وأكثر المدافعين عن أبي هدى الصيادي، ولكنه ظهر أمام رضا أغا ذلك اليوم وأمام جميع الحاضرين، بأنه اتحادي أكثر من الاتحاديين أنفسهم.

*

غضب خليل باشا على رؤوف باشا المملوكي بسبب مقتل رضا أغا، لقد شعر بأن هذا المملوكي أهان الجمعية، فقرر ترحيله مباشرة للأستانة، وقد حاول رؤوف أن يتفادى هذا الأمر إلا أنه أخفق في ذلك، فأخذ محظياته الجميلات القادمات من الكرج وتفليس، وحراسه الألبان، ومخصييه الخرس، وموسيقييه المكفوفين على الهوادج ورحل للأستانة.
لم يفده طبعا ما كان يدفعه من رشاوى إلى المقر العام أو إلى السراي أو إلى الباب العالي، لأن المقر العام الذي يسيطر عليه طلعت باشا وأنور باشا غاضب عليه بسبب مقتل رضا أغا، وفي الطريق إلى ديار بكر، هاجمت مجموعة من قطاع الطرق المجهولين قافلة الباشا ونهبوها، لقد قُتل المخصيون جميعهم، ونُهبت المحظيات كلهن، بينما اختفى رؤوف باشا تماما، وكان محمود بك من بين الذين يبحثون عن رؤوف باشا في المسالك الوعرة والهضاب، وبعد أسبوع واحد، وجد الجندرمة رؤوف باشا مقتولا قتلة شنيعة، فقد فصل رأسه عن جثته، وبترت يداه، وأحرقت قدماه، وتم تشويه جسده، وقد حملته بغلة شاردة وقد ربطت قدماه إلى بطنها.

*

من قتله؟

جلس محمود بك على السرير المفروش بالشراشف والبطانيات الصوفية، خلع بسطاره الجلدي الأسود الكبير بصعوبة من قدميه، خلع



جاكتته الصوفية الموبرة بلونها الكاكي الثقيل ورماها خلفه، وانطرح بهدوء للخلف، أراح ظهره على الحائط الذي يتكأ عليه السرير، كانت الأصوات تأتي من الشارع غامضة، متداخلة مع بعضها، دون أن يميزها، أصوات الجندرمة الخائفين من الإنكليز القادمين من وراء النهر، أصوات الضباط وعلى رأسهم خليل باشا الذين يتناقشون بصوت عال فيما إذا كان من المستحسن الانسحاب من بغداد وتركها للجيش الإنكليزي الذي يتقدم على مشارف المدينة، أم الدفاع عنها لصد الاحتلال حتى النهاية، بينما كان محمود بك يفكر بقرباغي الذي قتل رؤوف باشا، رؤوف باشا الذي قتل طوسباغي وقتل رضا أغا.

هكذا هي الحياة إذن، ناموس دوري كما يقول جميل أفندي، ناموس دوري يتكرر ويتكرر أبدا، ناموس دوري يعود ويعود عليهم على الدوام، هكذا هي منذ أن فتح عينيه في بغداد إلى اليوم، قاتل ومقتول، جندرمة بشعون، سلابة بدو، قطاع طرق مجهولون، فيضانات تهدم المنازل والخانات، أوبئة كل عام، وحروب الدولة الإسلامية ضد الكفار والمشركين، وضع محمود بك يده على جبينه، زفر زفرة ساخنة ثم انطرح على ظهره، تذكر حينها الآلاف الذين ساقهم الجندرمة إلى السفوح الوعرة والمثلجة من جبال القفقاس، لقد جندوا حملتهم الحربية على الروس ذلك العام من بغداد والكاظمية، وضع يده على جبينه وهو يتذكر كيف نصبت السرادق الكاكية في معسكرات كبيرة في العاقولية والقطانة قريبا من بغداد، تذكر المساقين من قهوة حوري وباب الشيخ والقاطرخانة وصبابيغ الآل والصدرية وهم بملابسهم الكاكية الممزقة، فأخذ يضحك مع نفسه، كركر وانطرح على بطنه، كانت ملابسهم مضحكة عليهم، لم تكن سوى معطف كاكي طويل، وجراب من القلاطة اليابسة، وبسطار عتيق ومعوج من السختيان، والباقي على المجند بالسفر برلك: دشداشة ممزقة، كاورية عتيقة، أي شيء لهذه الوجوه المريضة الكالحة، والشوارب المبعثرة التي تملأ الوجه.



تذكر سعدون قنه الذي ذهب لأحد البكوات الأتراك وقال له:

(بك أنت مخليني مع أهل باب الشيخ.. وأنا من أهالي الفضل.. وتعرف بينا وبينهم عركة وثأر).

صرخ البك به بالتركية.. بأن الجيش يوحدهم.. والإسلام يوحدهم.. والأمة العثمانية توحدهم، ففزع سعدون قنة من كلام البك، لقد كان البك يحلم نسبة لسعدون، فما كان بإمكان أي واحد في بغداد أن يتصور بأن جيش الدولة السنية -حتى وإن كان جيشا عظيما طبعا- يمكنه أن يحل محل شيعيته أو سنيته أو مسيحيته، أو بإمكان هذه المفاهيم أن تحل محل العقد أو الجادة أو المحلة، فهذه أمة وهذه أمة غيرها، وما كان لأي واحد في السرادق أو في المعسكر أن يتنازل عن حق مكتسب عرفه وتربى عليه، عرفه وعاشه وتمسك به: وهو أن كل عقد أو محلة أو جادة عليها أن تكون متماسكة مثل غرش من الغروش، دون أن تسمح لأي محلة باختراقها، فالبغدادي لا يكتسب امتيازه إلا من خلال هذا التكوين الذي يظنه تكوينا مطلقا ومقدسا، و قد كان الملا عباس وهو من سوق حنون، يعطي فتاوى خاطئة لأهل الصدرية وسراج الدين، عكس الفتاوى التي يعطيها لأهل محلته في سوق حنون، حتى يدخل أهل الصدرية وسراج الدين النار، وأهل سوق حنون الجنة.

لذلك نظر سعدون قنة للبك نظرة ارتياب وقال في نفسه: (لك يا أمة.. قندرة ابن قندرة تريد تخليني مع كلاب باب الشيخ... زين آني أعلمك...).

وكي تكون الأمة كلها أمام الأمر الواقع انتقل قتال المحلات إلى الثكنة، انتقلت ثاراتهم بينهم من هناك إلى هنا، وعمت الفوضى أمام أعين البكوات والضباط والباشوات واليوزباشية، أمام أعين الأمة المحاربة والداعية للخلافة والجهاد ضد الكفار، فقد تضخم فصيل القشل والفضل وباب الشيخ، بينما كان فصيل الحيدرخانة وجديد حسن باشا لا يتعدى



تعداده الثلاثة، وقد اتحدت المحلات الشيعية مع بعضها والسنية مع بعضها، وأصبح القتال مثل الدولاب مرة هنا ومرة هناك.

*

سماء زرقاء، سماء لؤلؤية صافية، وقبل الوصول إلى طرق الصحراء المتربة كانت معسكرات العاقولية تنتشر في المدى الفسيح، سرادقات كاكية كبيرة، وخيول مربوطة قرب الأسلاك التي وضعها الضباط لتمنع المساقين من الهرب، وهنالك فوضى لم ير محمود بك مثلها أبدا:

صراخ من كل جانب، صياح يسود الساحة المتربة والسرادقات، ثمة مجموعة من هذه المحلة تنهد على مجموعة من تلك المحلة بالضرب والدفرات، وبين المشتبكين كان الباعة المتجولون يحملون صوانيهم ويدورون، كانوا يلفون على الثكنة بالصوت المنغم ذاته الذي يستخدمونه داخل البازار، وقد وقف أحد الضباط الأتراك حائرا على جواده الأبيض، كان وجهه متجهما وصارما، لأنه رأى ذلك اليوم لا جيشا ذاهبا إلى الحرب بل حشودا من الغوغاء الذين جمعوهم من بغداد والكاظمية، جمهورا لم يخضع في حياته إلى نظام، وكانت أصواتهم تتعالى فيما بينهم، كأنهم ما زالوا في قهوخانة عبود في منطقة السنك، أو في قهوة حوري، أو في قهوة طويق في المصبغة، بعضهم كان واقفا وسط الساحة، والبعض الآخر كان جالسا على الأرض، بعضهم كان يتحدث بصوت عال دون أن يتوقف، وآخرون كانوا ينظرون إلى الضابط وهم يضحكون.

رفع آمر المعسكر صفاريته ووضعها في فمه، صفر صفرة طويلة، دون أن يعيره أحد أي انتباه، وفي الصفرة الثانية، صاح سالم الحافي من بين الجالسين على الأرض:

(قولنج...). وغرقت الحشود في الضحك.

*



ضحك محمود بك مع نفسه، انبطح على بطنه وهو يكركر، فقد تذكر أهل قنبر علي حين كانوا يأتون صباحا إلى الضباط واحدا بعد آخر، وكل واحد منهم قد ضمن خدعة له علها تعفيه من السفربرلك، أحدهم جعل أصحابه يحملونه لأنه لا يستطيع النهوض بسبب إصابته ب(أبو زوعة) وآخر شد ساقه لأنها كسرت وهو يركض وراء الديك الرومي الذي يسمونه علي شيش، وكان بعضهم يؤدي بعض المهن هناك:

فجبار الحائك الذي كان يعمل في خان الحواك في القلندرخانة أخذ معه أدوات الحياكة ووضعها وسط الساحة وأخذ يحوك، وعباس مرزة وهو من أهل الحيدرخانة أخذ يعمل شقيا لأهل الفضل ضد أهل باب الشيخ، و ربيع الكردي يعمل خادما عند صالح الجوهرجي مقابل أربعة غروش في الشهر، وجميل ابن روفة يبيع التنباك في عنبر الثكنة الخلفية، وفي النهار يتشاجرون بينهم، يتبادلون السباب والشتائم واللكمات ويلقي بعضهم على بعض بالأتربة، ويبصق بعضهم على بعض، وفي الليل يلعبون القمار.

سعدون ابن بهية غائب... لقد أرسل ابن عمه مكانه ذلك اليوم لأنه مصاب بالإسهال، وخليل الأسود تغيب عن نوبته في الحراسة، فحمل أحد جيرانهم السلاح بدلا عنه، وقد تحرك هذا الجيش أخيرا، كان على الحمير أن تحمل الذخيرة وأصبح جاسم ابن مكية، أحد أشقياء الفضل المعروفين، هو الذي يسوقها، وبالقرب من سامراء اختفى جاسم واختفت الحمير معه.

*

ساحة الحرب في القفقاس.

آلاف من الجند الذين ساقوهم من بغداد والكاظمية قد وصلت إلى القفقاس، آلاف من الجند المساقين دون مؤونة دون طعام دون ملابس وقد فتكت بهم الأمراض والأوبئة والمجاعة، وسرق الضباط المؤن والملابس والأعتدة وباعوها على التجار، وأخيرا وصلت الحشود



المحاربة المؤمنة إلى جبال القفقاس:

(هذي القوقاز. . . ؟) قال سالم الحائك متعجبا (جبل وعليه ثلج. . تريدونا نحارب فيها. . هاي شنو. . اتركوها للروس. . ولد القندرة. . شدخلنا إحنا. . قابل هي قنبر علي حتى نحارب فيها).

حين سمعه الضابط التركي الشاب، زم شفتيه غاضبا، أدار حصانه ومضى.

في المساء هجم الروس عليهم بقوات وحشود هائلة، آلاف من الفرسان القفقاسيين طاروا في صحارى الثلج على سروج خيولهم الجبلية السريعة النشطة، أبرزوا سيوفهم المستقيمة والنحيفة إلى أمام، وقد أسندتهم المدفعية من الخلف بقنابلها المتتابعة، واشتبكوا مع الجيش الهزيل، كان القفقاسي يصرخ بأعلى صوته ويطعن بكل قوته، وكان البغدادي يصرخ هاربا، هائما على وجهه في الثلوج، كان الفرسان القفقاسيون يناورون تحت الثلوج، ويتحركون بخفة، وهم يرتدون الملابس المصنوعة من الفرو السميك، وكان البغداديين يرجفون من البرد، كل واحد منهم يريد أن يختبئ في معطف الآخر، وجوههم كالحة سوداء، وقد برزت عظام فكوكهم، ومحاجر أعينهم، ففروا أمامهم، وحين صاح بهم الضابط التركي وأخذ يضرب ببوقه عليهم، قال له جبار ابن بهية:

(اسكت ابن الجايفة. . قابل القوقاز ملك صرف باسم بهية. .).

*

فرت القوات التي جمعها الأتراك لطرد القفقاسيين من أراضيهم، وأصبح الجيش الجرار فلولا منكسرة هائمة على وجوهها، تسير بلا هدف وهي منهكة من التعب والجوع والأوبئة والأمراض، وحين وصلوا إلى الجبال الشاهقة المغطاة تماما بأطنان الثلوج، عسكروا دون نيران هناك، وفي الليل الذي أمضوه قرب بحيرة (وان) تساقطت عليهم الثلوج بكميات



هائلة لا مثيل لها، واشتد عليهم البرد، وانهالت القطع الكبيرة من الثلج المستندة على السفوح فوقهم.

*

جاءت قوات تركية كبيرة بقيادة اليوزباشي طوغان، وقد أمره القائد مصطفى كمال أن يجمع الفارين من الجيش البغدادي لإعدامهم، وأخذ البقية لإعادة تشكيلهم والهجوم بهم على القفقاس، كانت القوة التركية تبحث من هنا ومن هناك، وقد تشتت وراء الجيش البغدادي الذي أخذ يلعب معها اللعبة ذاتها، جماعة يجيئون إلى الثكنة وآخرون يفرون إلى الجبال، وقد ترك الجيش التراكي الروس وانشغل بالجيش البغدادي الهائم على وجهه بين الثلوج، وقد استطاع اليوزباشي طوغان تجميعه مرة أخرى ووضعه بيد ضابط كردي أصله من أربيل، ويسكن بغداد في محلة القشل، إسمه إسماعيل حمة الجاف، ولذلك تجمع حوله الجنود من محلة القشل، وعدوا الأمر نصرا لهم على الحيدر خانة وباب الشيخ، وكان إسماعيل حمة الجاف سعيدا بهذا الأمر البيورلدي الذي أصدره اليوزباشي طوغان، وكانت فرصته الأكيدة للصعود والترقي لو حقق ولو نصرا صغيرا على الروس في معركة القفقاس التي كانت تقلق الأستانة.

عسكر قرب بحيرة وان بالبغداديين، وبعد أيام خرج من خيمته المنصوبة وسط الثلوج على الجنود بخريطته وخطته الجديدة التي لم يفكر بها أحد، والتي سيفاجأ بها الأعداء والأصدقاء، قال لهم بلهجته البغدادية ولكنته الكردية التي تقلب الطاء تاء والضاد زايا والصاد سينا:

(كاكه عندي خته عزيمه... ما أكو أحد فكر بيها... ورراح ننتسر انشاء الله..).

في الصباح مع الفجر تحركت القطعات بأمرة إسماعيل حمة الجاف، وكانت خطته الالتفاف على الجيش الروسي وذلك بالسير على بحيرة (وان) المتجمدة.



سار على جواده وقد شك القسطورة ببندقيته المارتيني ووضعها على كتفه، كان معطفه السميك وقبعته المصنوعة من جلد الغنم تحجز الهواء البارد عن أذنيه، وسارت القطعات خلفه بملابسهم الممزقة وبطونهم الخاوية وأسلحتهم البدائية، سارت القطعات بعتادها وأسلحتها وخيولها ومدافعها على البحيرة المتجمدة للالتفاف على الجيش الروسي، وكان إسماعيل حمة الجاف يفكر بالضربة القاضية التي سيعرض فيها القوقازيين دون أن يعرفوا، وسيسر الصدر الأعظم وسيترقى ويصبح مثل مصطفى كمال أو طلعت باشا أو محمود شوكت البغدادي، وسيحرز نصرا كبيرا.

كان يتعجل ويسرع والخيول تدربك على السطح المنجمد والمتجلد للبحيرة، وبعد عشرة أميال تقريبا، شعر إسماعيل حمة الجاف بخلخلة تحت سيقان جواده، وبعد خطوات غطست قدم الحصان اليسرى في شق على السطح وقبل أن يهبط من جواده انخسف سطح البحيرة المتجلد والصلب بهم، لقد تهشم السطح كليا وغاصت قدمات الجيش في الماء البارد وارتفعت كسر الثلوج إلى الأعلى وهي تطفو، وأخذ الصراخ يعلو.

كان إسماعيل حمة الجاف يطالب الجيش بإنقاذه دون أن يسمعه أحد، ثم طلب من أهل القشل الذين عصف بهم الفزع وفروا إلى الوراء، إلا أن البحيرة انخسفت بهم كليا، وغاصت القوات بما فيها من رجال وسلاح ومؤن وخيل وغمرتهم مياه البحيرة المتجمدة، وهم يشتمون لأنهم ساروا وراء الكردي إلى التهلكة، كان البعض بالمؤخرة تماما، فنجا، ولكنهم هاموا على وجوههم تائهين في الجبال والثلوج، فماتوا من شدة البرد والجوع والتعب وتفشي الأوبئة.

*

لم يعد من حرب القفقاس الأولى سوى عشرين أو ثلاثين، ومنهم جبار ابن بهية الذي قال للضابط التركي (روح ابن الجايفة قابل القوقاز ملك صرف باسم بهية) وإن نجا جبار ابن بهية من حرب قفقاسيا فإنه مات في الفيضان في بغداد، فإن لم يغرق في بحيرة وان المتجمدة فقد



مات في الطوفة التي اقتلعت سدة ناظم باشا وغمرت البيوت والشوارع. كان محمود بك في القشلة همايوني، حين فاجأهم طوفان دجلة وأخذت العائلات تتجمع هي وحيواناتها ودجاجها وكلابها وماعزها وخرافها وبعرانها وأبقارها في منزل واحد عال لم يصله الماء، الرجل ينام جنب امرأته والبغل يلحس بوجهه، والمنازل التي لم يهدمها الفيضان هدمتها الرطوبة وأحالت المدينة إلى خرائب.

كانت الجموع تقف وتردد صلواتها لترد النهر الذي أحال المدينة إلى أكوام من الأسمال البالية بلون القنب، وكانت هذه الصلوات التي ترد النهر هي ذاتها منذ قرون، والنهر ذاته، والمقابر أصبحت أكثر أهمية من المعابد والقصور التي لم تكن بلا تمائم، وقد صنعها نهر آسيوي هائج على الدوام ومتسع، مثله مثل السلطة التي تتجدد وتتسع، مثلما تتجدد وتتسع النيران في المواقد وأكوام الحطب، وما جذب الأفندية في صورة الحضارة الأوربية المنافسة والمهددة هي مواصلة الحياة، والتي كانت أقوى من صلبان مقابرهم، ولم تكن الاستكانة للقدر هي الحرب، بيد أن المدينة الآسيوية كانت تؤجل الحياة بفعل سلطة قاسية ومدمرة، ولم تكن تنافس حياة مدن أخرى، إنما مدينة موت آخر:

اشتعلت الأضواء في الزقاق، كانت العباءات قد اختفت، وطبول الجندرمة قد صمتت، وأخذ بعض الهاربين من السفربرلك يذهبون إلى المقاهي وهم ملثمون، ووجوههم ملفعة باليشاميغ، في أول الطريق كانت هناك خيمة منصوبة قرب دكان، وقد أضيء قنديل الزيت داخلها، وفي الوسط نصبت كوانين الفحم التي يتصاعد منها الدخان، كانت هنالك مجموعة من الشيوخ البلديين وبعض الجندرمة، والمسافرين جالسين على دكات عالية مفروشة بالسجاد ويدخنون النراجيل، كانوا يتحدثون عن ألمانيا، وعن غليوم، وحرب الدردنيل، والسفر برلك، وحرب القفقاس، قال جبار بن بهية (آخ من دكة الغربية آخ من قفقاسيا).

تذكر محمود بك جبار بن بهية، تذكر أيام الفضيان.



كان محمود بك يسمع عويل النساء من المنازل التي أخذوا منها رجلا أو رجلين إلى السفر برلك، كان يسمع لطم النسوان على الصدور وعلى الأفخاذ وقد وقف جنب منزل جبار بن بهية وقلبه قد تجمد تماما، كان عبود اللمبجي بالقرب منه أشعل فتيلة الفانوس ووضع الزجاجة الشفافة فوقها، فصعدت النار، وأضيء الزقاق، كان العويل يصل أيضا من المنازل المحيطة، دخلت النساء وأخذن يلطمن مع أمه والكل كان يصرخ، وقد شققن جلابيبهن، قالوا كان يعمل في سوق اليمنيات، وأخذوه إلى السفر برلك.

جاء أحد المسفرين إلى الزقاق يرتدي ملابس عسكرية مهلهلة، وهو يحمل خبز القلاطة اليابس وقليلا من التمر، ثم جاء طابور آخر من العساكر الجرحى، فتذكر الناس سفربرلك القفقاس الذي لم يعد منه أحد.

*

جبار بن بهية هو الذي جاء إلى العقد يصرخ: (إجانا الفيضان.. إجانا الفيضان).

كان محمود بك ذلك اليوم في خفارته في برج القشلة همايوني، وقد رأى من الكوة الصغيرة المطلة على المدينة هطول مطر كثير، ومن الزاوية اليمنى مد عنقه ملتفتا إلى جهة النهر، فرأى تدفق المياه والسيول بسرعة عجيبة، ثم عرف أن سدة ناظم باشا قد انهدمت، وتحركت المياه نحو باب الشيخ، ومقبرة الشيخ معروف، وغرقت الفناهرة، والسنك، والمربعة، والشيخ سراج الدين، وخان لاوند، وقهوة حوري، وهجر الناس دورهم، وهم يحملون أمتعتهم وأثاثهم وملابسهم، وقد علا ضجيجهم وصياحهم وصراخهم، وتوجهوا إلى الجوامع والخانات والأماكن العالية، وقد ارتفعت أجرة الحمالين ومكارية الحمير والبغال وأجرة الدوب، وأصبح إيجار القفة الواحدة بمجيديتين، قالوا: (فرصة... فرصة البغدادي... في الحريق والغريق).



وقف محمود بك على مرتفع قريب من الفناهرة، قرب دكان سيد صادق مرزا حسين القزويني، ورأى جماهير العامة، وأهل المحلات القديمة، وفقراء البلد، وهم يهرعون لاستئجار القفف، كانوا يحملون أغراضهم بسرعة ويهربون، لأن منازلهم الرطبة أخذت تنهار على رؤوسهم، أما التجار والجلبية وأصحاب القصور فقد صعدوا إلى السطوح، أو خرجوا على جيادهم إلى سلمان باك، وحملت الهوادج البيض نساءهم، والعذارى تمايلن على الجمال بالمحفات.

وحين تحرك هو ومجموعة من الجندرمة إلى باب الشيخ وجد حشدا من الناس يقودهم جاسم بن الحجية والسيد راضي النقشبندي الذي وضع التراب في عمامته وأخذ يهيلها على السدة، بينما ركض الناس وهم يحملون الخرق والحشوات والأخشاب والعلب والكراكيب والهدوم والتراب ويضعونه عليها. لقد طاف كل شيء مع الماء الجاري، قلل الزيت، الزجاج المكسور، الأمشاط الخشبية، الأقماع، الطسوت، كان الموج يصعد فينهال التراب ويهبط، لقد غرقت الحيوانات، غرقت النساء، وغرق الأطفال وهم ملفوفون بأقمطتهم.

خرجت الراقصة البصراوية خدوجة السمرة التي كانت تعمل في ملهى الميدان، شبه عارية من المنزول، وهي تصرخ: (يا رب ارحمنا بس هذي المرة).

نظر محمود بك إلى منزل هدية بنت الحجي سلطان الذي مات زوجها في حرب القفقاس، هدية بنت الحجي سلطان التي كانت جارتهم قديما في قنبر علي، والتي أحبها قبل أن يحب بياترس الأرمنية، كانت المياه والسيول قد تدفقت عليه، لانخفاضه قليلا عن مرقد الشيخ، فارتفعت وانساحت على البسط والأثاث، دخلت الزريبة المقفلة، وصعدت إلى الشباك المطل على الزقاق المحكم والمسدود بالخرق، كان الباب قد تخلع، وسقطت الضلفة الخشبية المتحركة بسبب قوة السيل، وكانت هدية تلطم وقد شقت ثوبها، وبدا صدرها نصف عار من الشق،



فدخل عليهم جبار بن بهية، رفع أطفالها من أكتافهم، وقد سقطت عرقشينه البيضاء التي تشبه الطاقية بالماء، بينما تمسكت هدية بجلبابه من الخلف، عبر بهم طوفة الماء والسيول، وكانت هدية تسير وقد تركت كل شيء وراءها إلا الزير الذي ملأته بالدقيق، وقد سدت فوهته بالخرق، وحملته على رأسها، وكان الهاربون يخوضون في الماء ويتوجهون إلى باب الشيخ: النساء حملن الأطفال الذين يصرخون، والرجال حملوا الخراف، والماعز، وعلي الشيش، وأقفاص الدجاج، والحيوانات المرعوبة التي تصرخ.

بعض الشقاوات والشطار صعدت عندهم الغيرة، فكانوا يتباهون مع بعض، يخوضون في المياه، يكسرون الأبواب، يحملون الأطفال على رؤوسهم وأكتافهم، يصيحون صيحات يحفزون الناس على النخوة والمروءة والقيام بالمعروف، وقد تعجب محمود بك حين رأى أن هؤلاء الأشقياء هم الأكثر شراسة أيام السلب والنهب والفوضى والاضطراب.

كان شقي باب الشيخ إسماعيل كنو قد خرج بكرشه وبالطوه الصوف، وحمل ستة أطفال مرة واحدة، اثنان حضنهما بيده اليمنى واثنان بيده اليسرى، ووضع واحدا على كتفه، والآخر على رأسه، وهو يصيح:

(خلي أي شقي من قنبر علي أو من الدهانة أن يباريني ويحمل سبعة).

وحين لم يجد أحدا يفعل، طلب منهم حمل ستة، أو خمسة، أو أربعة، ولم يستطع أحد أن يفعلها سوى عباس الفضيلي، شقي الدهانة، وأحمد أبو كلاو، الكردي الفيلي، وقد حمل كل واحد منهما خمسة، وقد سقط أحدهما من أحمد أبو كلاو في الماء ومات، قال:

(مو مشكلة... لأن آني ما متحضر... لو يبقى الفيضان باكر أوصلهم ستة).

كان جبار بن بهية يسعل، وقد وصل الماء إلى خاصرته، كان جسمه



الضخم يهتز لتدفق الماء، لكنه واصل حركته وهو يلهث، كان يتكلم مع هدية بنت الحجي فتخرج الكلمات من أحشائه من التعب.

(جبار بن بهية أشجع من عباس الفضيلي ومن أحمد أبو كلاو).
يقولون في باب الشيخ.

حين بدأ الكسار، وخرجت باب الشيخ بأجمعها، كل باب الشيخ حتى الأطفال باتجاه الدهانة، وهم يحملون مسدساتهم القرهداغات، والتكوك، والوراور، وخناجرهم القزبينية، والأوربلية والقامات والجنتيانات، كان جبار بن بهية هو الذي حمل عصاه الغليظة، ومسدسه القرهداغي، وحمل راية باب الشيخ، ووضع على كتفه بندقية البشتاوة التي يحشيها بالبارود والصجم، وهجموا على الدهانة، وكسروا دكاكينها ومحلاتها وخاناتها، وهجموا على القشل، وصبابيغ الآل، وسوق العطارين، وهي المناطق التي يسكنها الشيعة، وعاد وهو يحمل عصاه ومسدسه ورايته، كانت النساء تهلهل من فوق السطوح، والأولاد يركضون وراءه، وقد خرج جمهور الناس والعامة ووقفوا على عتبات الأبواب يحمدون الله على هذا النصر، ذلك لأنهم كسبوا كثيرا، فقد سلبوهم ملابسهم، وصناديقهم، وطناجرهم، وأسلحتهم، وأزيارهم، وصوانيهم النحاسية المنقوشة، وقد خلعوا الأبواب والشبابيك وأتوا بها للمحلة، ولكنهم أمضوا ليلة مخيفة ذلك لأنهم توقعوا أن المحلات الأربع سوف تهجم هي الأخرى عليهم، فأمضوا الليل في تهيئة المتاريس، والتحضر بتجهيز الهراوات والقضبان والمسدسات والسكاكين والأحجار، وكان كل عقد يتحضر لغزو الآخر، وكان شقاوات دكان شناوة يهجمون أيضا على اليهود الساكنين في التوراة، وكان ملكون شقي المسيحيين في عقد النصارى هو الآخر هجم على الفضل وقتل ابن عديلة، وشقي تحت التكية هجم على أهالي أبو سيفين وسوق حنون، قال محمود بك: (هذا هو حدهم الأخير..).

إذ لم يستطع أحد الوصول إلى الحيدرخانة لأن الضباط الأتراك



يسكنونها، أو إلى طوبليان أو إلى جديد حسن باشا، لقد كان محمود بك يدرك بأنهم أشقياء ولكن على قد حالهم، شقاوات على دكان شناوة الذي يسكنه النجارون والطرزية والصفارون، على باب الشيخ الذي يسكنه القندرجية والعربنجية، على عقد النصارى الذي يسكنه فقراء المسيحيين، على باب الأغا التي يسكنها البقالون، ولكن حينما تصل الأمور إلى الحكومة، فالحكومة أكبر سلاب، ونهاب، وقاطع طريق، وصاحب كسار، وحين لا تدفع للجندرمة رواتبهم لشهر أو شهرين، يبدأ الجندرمة بكسر المتاجر والمحلات وسرقة البازارات والتعدي على البيوت.

*

تزوجت هدية من جاسم ابن الحجية وقدم لها البالات، والتوابل، والمرآة والمشط، فحزن محمود بك كثيرا، حزن لأنه حين كان صبيا في مدرسة الملا بايز أحبها، قبل أن يحب بياتريس بعام أو عامين، وحين ختم القرآن خطف الأولاد عرقشينه من على رأسه وركضوا بها إلى منزل جده، علامة على أن الولد ختم القرآن، وقد وزعت النساء هناك الإسكنجبيل والشرابت وماء الورد على الناس، وحملت هدية بنت الحجي سلطان جارهم صينية النحاس المنقوشة ووزعت الحناء والآس، تذكرها محمود بك، تذكرها صبية وهي تضع الوردة في طرف الشعر، ثم اختفت أيام دخوله إلى المدرسة الرشدية كان ذلك أيام المشروطية، وسقوط الاستبداد الحميدي، في تلك الأيام تزوجت هدية بنت حجي سلطان من بائع في سوق اليمنيات، قتل فيما بعد في حرب القفقاس على الجبهة الروسية، وتزوجت بياتريس من ابن عمها في الموصل.

حين رأته يوما يمر من منزلها وهو يرتدي البذلة الإفرنجية والطربوش، بعد أن أصبح في المدرسة الرشدية، نظرت إليه بحنان من وراء شق الباب، نظرها ولكن انكسرت عيناه وواصل السير في الطريق، في تلك الفترة كان يتردد في جامع الشيخ معروف على محمود أفندي شكري الآلوسي، وهناك تعرف على الرصافي، الذي اصطحبه يوما إلى



محل سعدون الخياط ليشربا العرق، وحين عاد الرصافي من استنبول بعد المشروطية بالبذلة الإفرنجية والطربوش، حدثه عن دخوله المدرسة الرشدية وارتدائه للبذلة والطربوش، ولكنه رسب بالرياضيات فأعادوه للبس العمامة والملابس الدينية، فبكى وبكت أمه معه، وفي المشروطية رمى الملابس الدينية هو وفهمي أفندي المدرس وارتديا الملابس الإفرنجية، وحدثه عن استنبول، عن السراي وجامع طوب حنا اسكوتاري، حدثه كيف صعد بالقوايق وعبر البسفور، وتجولاته في بيرا بازاراتها وقصورها، وتعرفه على اليهوديات واليونانيات والشركسيات والبلغاريات، حدثه عن مكتبات جامع السلطان بايزيد والسلطان أشمت وآيا صوفيا والحدائق التركية، وتعرفه على الأدباء العرب والأتراك هناك.

*

هذه هي الحياة، أو الموت فيها بالدور، وتساءل محمود بك متى يأتي هذا الدور؟.

فكر بقرباغي الذي ساق صفوف الأرمن في التهجير إلى الشام والعراق، أما كان يمكن أن يكون ضحية لطوسباغي، لقرباغي، لرضا أغا أو لمن يأتي فيما بعد من البكجية، من صفوف الألاي الذين يقفون هناك، فينحني محمود بك ويقول لهم: (يا خوند هذا رأسي فخذوه). وهم يقفون أمامه مثل جيش الدلاتية القديم، الدلاتية الذين عبثوا ببغداد، الدلاتية بقلابقهم وكنابيشهم وسروايلهم المصنوعة من جلود الحيوانات المشعرة، فلماذا يخاف من الإنكليز؟

سمع صوتا من بعيد: (إخلاء... إخلاء...).

هذا يعني أن جيوش الإنكليز اقتربت من بغداد، وقد قرر خليل باشا وكاظم باشا في اجتماع الضباط إخلاء بغداد، وسيدخلون، وسيفعلون مثلما فعل قرباغي بنساء الأرمن.

(هم الأرمن مساكين؟ لو هم اللي بدوا بحربهم ضد الدولة السنية..



هم اللي خانوا الجيش من الخلف في حرب القفقاس.. خطر الأرمن.. أكبر خطر على البلاد..). قال الشيخ أمين.

(الأرمن شي.. والنساء شي آخر) قال منيب أفندي.

(أخو أنتم عباد فروج النسوان.. كل شي ولا النسوان.. بابا هاي حرب يا نسوان يا بطيخ..) قال الشيخ أمين غاضبا وخرج من القهوخانة.

صورة قرباغي في الموكب، وخروج المحمل للفرجة، وارتداء الدرك للطراطير السود والقلابق، وصورة مدافع القلعة التي ضربت البيوت في وان وتفليس، والطونانمة في بغداد: زينة الانتصار على الإنكليز، وقد أضاءت السراجات المباني والدكاكين في الحيدر خانة وميادين القلعة وباب المعظم وميدان فاضل باشا الداغستاني، الخورنقات وطيقان المدافع المطلية والمبيضة قرب القلعة. (هذه طونمانة الانتصار..) وقد عنى بها الزينة، ولكن صورة قرباغي أكثر شراسة من طوسباغي، أكثر قسوة، أكثر سوادا، أكثر طولا، أكثر نحافة.

رآه محمود بك للمرة الأولى حين ذهب إلى سيورك مساء، رآه وهو يقود الصفوف الطويلة للأرمن عند ترحيلهم إلى الشام والعراق، وجهه الأسود الصارم وهو يلمع مثل باذنجانة على ضوء اللوكسات والفوانيس التي يحملها الجندرمة، وجهه الأسود الصارم لا يهتز وهو يسير على حصانه الأطهم، ويجرب سوطه الأسود القصير على ظهور النساء، نساء بيض مثل الفرو، يسرن ببطء وقد لففن على رؤوسهن الصغيرة إيشاربات قصيرة، كن حافيات، وصدورهن كبيرة تبرز من شق الجلابيب، يتمايلن على بعضهن بينما يصعد السوط ويهبط على ظهورهن (طراب... طراب...).

*

تذكر محمود بك خيول الدرك البيض التي دخلت إلى محلات الأرمن في أرضروم، وفي وان، وفي تفليس، وفي أدنة، وهي تضرب



الأرض الصخرية بقوة فتجدح حدواتها، تذكر كيف انتشروا هناك بسرعة خاطفة، مئات منهم وهم يحملون أسلحتهم وسياطهم ويلوحون بها.

وقفوا صفوفا منتظمة، تقدم كبير الططر، تلفت يمينا وشمالا، رفع ورقة طويلة ثم أخذ يقرأ الأمر الذي وقعه طلعت باشا بترحيل نساء وأطفال الأرمن إلى العراق والشام.

*

شمس تغيب على أرضروم، لقد كانت هي النار التي تخبو، وحدأة تتبع المواكب بين النيران التي توقد في شعاب الجبال، كانت الكنائس نائمة، ولم تنطلق أسراب من الأجراس لتدق على موت النساء والأطفال الذين ساقوهم في فجر آسيا الشاحب، ولم تصعد صلاة الجموع من سنوات عديدة لترد الأيدي -من الغرب والشرق- وهي تحرق بإهمال وبأكوام من الحطب هؤلاء الناس من عرب وأتراك وأرمن وآثوريين وأكراد وبلغار...

*

هجم الدرك على المنازل بعنف، كسروا الأبواب وحطموا الأثاث، وأخرجوهم بقوة من منازلهم، ثم ساقوهم بصفوف طويلة في طرق مجهولة.

لقد ذهب محمود بك هناك فرأى هذا الأسود المعتم الطويل، الذي يمتطي جوادا أطهم، ويرتدي ملابس غريبة في الشتاء والصيف، ويضع على رأسه قلباغا طويلا موبرا من الفرو، وبجانبه يحمل الكونجيرة والمسدس، كان قرباغي يمسك بيده السوط الطويل الذي يسوط به نساء وأطفال الأرمن وهم يسيرون صفين على الشارع المؤدي إلى الشام، كان يسوقهم بقسوة وعنف، هو ومجموعة كبيرة موزعة من الجندرمة القساة الذين يستخدمون كعوب البنادق لضرب المتخلفين عن القافلة الطويلة التي تمتد إلى ما لانهاية بين الجبال، دون أن يفتح منهم أحد فمه بكلمة،



أبدا، بينما كانت جثث النساء والأطفال والشيوخ مكدسة على جانبي الطريق، جثث مرمية منكفئة على وجوهها، وقافلة لا نهاية لها تسير في الطرقات الحجرية الضيقة متجهة إلى الجنوب، مئات الآلاف من النساء والأطفال الذين سفروهم في قوافل سيرا على الأقدام في البراري والجبال يسيرون بصعوبة على الطريق، أطفال يتساقطون من الجوع والتعب، ونسوة يسقطن وسط الطريق فيتركوهن في العراء إلى الموت، امرأة تنحني على التي تسير إلى جانبها، حامل تتكئ على امرأة بجانبها فتسقطان كلاهما بمشهد صامت، فلا شيء هناك غير صوت السوط الذي يسلخ الجلود، لا شيء غير هذا السوط الذي يرن في الفضاء الصامت، وغير هذه الشمس التي تحرق الأجساد، تحرق الرؤوس الملفوفة بالكوفيات البيض، وقد تهرأت الملابس من الشمس والعرق والوسخ.

خرجوا من بغداد ملثمين على جيادهم النشيطة.

(وين رايحين..).

(ننتصر لدين الإسلام من الأرمن المارقين..).

وكانت فرصة للشذاذ والأداب سزية والشلايتية والشقاوات واليرمازية وتحت صوت الدين كانوا يذهبون جماعات جماعات يهاجمون القوافل المسيرة، ينهبون النساء ويغتصبونهن ويسرقون الأطفال غير القادرين على المسير، وفي بغداد غدت المعارك بين الشيوخ والملالي بالنعالات هذه المرة، منهم من قال أن الأرمن رفعوا سلاحهم ضد المسلمين فحلت دماؤهم ونساؤهم علينا، ومنهم من قال إنهم من أهل الذمة ومن اعتدى عليهم اعتدى على الأمة، وكان الشيخ أمين يصرخ بكل صوته بعد أن هفه نعال تائه في المعركة وأطار له عمامته:

(يا جماعة اتفقوا على رأي.. لا تخلون الأفندية يتفرجون علينا..).

وقد فرح الأفندية لا بالشقاق بين المعممين حسب إنما باستغلال



هذا الأمر من قبل الأوربيين للقضاء على الإمبراطورية العثمانية، وكان كل واحد يريد أن يكسب الأمر لصالحه بينما كانت النساء بالقرب من أدنة حافيات، حاسرات، وخلفهن الدرك على الخيول يسوطونهن بقسوة، ويسلخون جلودهن، وحين تتخلف واحدة منهن يلكزها الدركي بالبندقية فتسقط على وجهها أرضا، وحين يتعب الأطفال تحملهم أمهاتهم، وحين يتعبن يضعنهم على الطريق، يتركنهم للموت بقلوب وعيون باكية.

*

جلس محمود بك في قهوخانة المميز، جاء قبل يومين من سيورك.

كانت القهوخانة جميلة لموقعها المطل على دجلة باتصالها مع الجسر، وتمتد حتى تصل جامع الآصفية، ومن الداخل كانت عبارة عن صالة واسعة بشبابيك عريضة ونافورة تغرد بين الأرائك والمنصات والتخوت الفخمة التي يجلس عليها التجار، وعلى الخلفية رفوف تحمل أكواب الخزف وكنجات القهوة والنراجيل المصنوعة من زجاج بوهيميا الذي يغطي النحاس منقارها.

وكان هنالك قراء المقام يتبارون، وقد صدح صوت أحمد أفندي زيدان مقرئ المقام الذي أحب طيرة المصرية، المطربة التي جاءت إلى بغداد وغنت في التياترات بعد المشروطية، كان القهوخانجي قد وضع الإيزار المنقط بالشاني على كتفه، وجاء إلى محمود بك بالنارجيلة، بقبق بها في الهواء وناولها له، فأخذ محمود بك يسحب وينفخ الدخان في الهواء، جلس أمامه عبد الرحمن الخانجي وقد انهمرت دموعه على خديه، وهناك ثلاثة تجار من البصرة: جاسم باشا أعيان، وسلمان ابن حامد النقيب، وأمان زادة، كانوا يصغون لعبد الرحمن الخانجي وهو يبكي على نساء وأطفال الأرمن الذين ساقهم الدرك مثل النعاج تحت السياط وتحت كعوب البنادق.

لقد بكى عبد الرحمن الخانجي في قهوخانة المميز عليهم، كما بكى سالم باشا القربي الذي ذهب من البصرة إلى سيورك من أجل تحميل



الرز والحنطة بقوارب بيت لنج، وحين عاد إلى بغداد تحدث للتجار هناك عن مصيبة الأرمن، قال: (ظلم... ظلم هذا يا ناس أكثر من الظلم الحميدي).

لقد بكى أهل بغداد القادمين من استنبول حتى الأتراك منهم على مصيبة الأرمن، دون أن يجرأ أي واحد منهم أن يفتح فمه بكلمة واحدة، وحين عاد سلمان أفندي مختار إلى بغداد كان هو الذي دس ثلاثين ليرة بجيب نعيمة الملية حتى تصيح بملهى التهاني:

(يا أهل البخت أشسوى الباغي بيكم).

وبعد ذلك خوزق جنود طلعت باشا نعيمة الملية وقتلوا سلمان أفندي مختار.

*

لقد شهد محمود بك أحداث الانتقامات بسبب تهجير الأرمن.

كان التاجر الأرمني باغصيان أفندي عائدا لتوه من الأستانة، وقد رآه محمود بك قرب الشريعة ووقف معه لساعة أو ساعتين ثم ذهبا إلى منزل باغصيان أفندي المطل على نهر دجلة من جهة شريعة النواب، وقد كانت تحاكي غرفه الباذخة ترف الباشوات والسلاطين، وينم عن ذوق رفيع، فقد كانا يجلسان على التخوت المنحوتة يتبادلان الأنخاب من العرق الأرمني (كيساو) بينما تنحني زهور الأرطنسية الزرق على طاولته، وفي الجانب الآخر كانت ورود القرنفل مزروعة على بعد خطوتين من نافورة الرخام التي تغرد وتغني أمام القطط المتبخترة التي تمر منها.

كانا يدخنان الغلايين المرشحة من العنبر، ويتحدثان بهدوء، وقد تحدث له الأرمني عن كريكور زهراب نائب الأرمن في مجلس المبعوثان الذي صرخ بأعلى صوته في القاعة المزدحمة بنواب الأقاليم والذين جاءوا من كل مكان ذلك اليوم، صرخ بصوته المتموج الأجش، ثم نهض من مكانه بسرعة فائقة وتوجه نحو المنصة الكائنة في المقدمة، وقد امتقع



وجهه الأبيض السمين من الغضب، رفع يده اليمنى إلى الأعلى، وصرخ بالتركية بوجوههم وهو يسب ويشتم ويقول بأن ما فعله طلعت باشا هو إبادة مقصودة للأرمن، ولكن الأصوات الغاضبة التي تصاعدت غطت على صوته تماما، وحين أخذ يحاججهم سقط طربوشه على الأرض وظهرت صلعته الوردية المتعرقة، ولم يستطع احتمال الصخب والهرج الذي عم القاعة تلك الساعة، فغادرها غاضبا وترك وراءه صخب النواب بين مؤيد ومعارض.

(لكن الصباح.. صباح اليوم الذي تلا احتجاج كريكور زهراب نائب الأرمن في مجلس المبعوثان.. بلغ طلعت باشا الناس رسالة من نوع آخر..). قال الأرمني لمحمود بك وهو ينفث الدخان في الهواء.

بلغهم رسالة مفادها أن من يعترض على قرار المركز العام سيلقى عقابا مروعا، وهكذا انتشر في الصباح خبر اغتيال كريكور زهراب في منزله الكائن في إحدى ضواحي مدينة استنبول الغربية، وعم الخبر البلاد كلها.

*

في منتصف الليل، وفي اليوم ذاته الذي اعترض فيه كريكور زهراب على قرار تهجير الأرمن، استيقظ من نومه على طرقات متوالية على باب منزله، انتظر الخادم أن يسأله قبل أن يفتح الباب، لكن قرباغي الأسود الطويل كسر باب المنزل الصاج ودخل هو ومجموعة من أتباع جمعية الاتحاد والترقي وبعض المتعصبين للفكرة الطورانية، دخلوا متنكرين بملابس متنوعة غريبة ومقنعين بأقنعة مصنوعة من القماش الأسود الشفاف، وقد كانوا مسلحين بالخناجر التترية والسكاكين الطويلة الأنصال، وقد حمل كل واحد منهم مسدسا على جانبه، هجموا أول الأمر على زوجة كريكور، وهي امرأة متوسطة العمر، طعنوها طعنتين في صدرها فسقطت على الأرض المبلطة بالمرمر الأبيض، فسال دمها سريعا حتى وصل إلى العتبة، ثم دخلوا إلى الصالة مسرعين وقد شهروا



خناجرهم وسكاكينهم، فواجههم كريكوري وهو يرتدي ملابس المنزل الأرمنية الخفيفة، ويضع طربوشه الأحمر المائل على جبهته الواسعة، صار بمواجهة قرباغي وجها لوجه، فطعنه في بطنه، فتح زهراب عينيه مثل أبله، وسع حدقتيه أكثر فأكثر، دمعت عيناه وخرج الصوت من بطنه متحشرجا مهتزا وطويلا، وحين سحب قرباغي الخنجر دار في الفضاء دورتين كأنه يحلم، لف ودار ثم سقط على وجهه، فانهال عليه المتعصبون ومزقوه تمزيقا بالخناجر، لقد طعنوه في كل مكان في جسده، لم يتركوا مكانا منه دون أن يدخلوا الخنجر به، حتى في خصيتيه.

*

في اليوم التالي اعترض ثابت بك السويدي البغدادي على ما فعلوه بالأرمن، وقال أن السكوت على هذه المذبحة هو خيانة للأمة العثمانية، قال الشيخ أمين لمحمود بك حينما رآه في الصباح وهو ذاهب إلى منزل محمود شكري أفندي الآلوسي في الكرخ، وقد صادفه وهو يصعد القفة السوداء التي تنقله من هذا الصوب إلى الصوب الآخر من دجلة، بأن الأمة ما كانت تعرف هذا الشيء من قبل، حتى أيام الاستبداد الحميدي، فقد كان الجميع يشعر بأنه عثماني:

كان رئيس الوزراء فريد باشا من ألبانيا، ووزير الغابات والمعادن سليم ملحمة عربي نصراني، وأخوه نجيب ملحمة مستشار وزارة النافعة، وكان مدير الأمن العام شفيق الكوراني من حلب، وكان سكرتير السلطان عزة العابد عربيا، وأوخانس ناظر الحربية أرمنيا، وكان ظافر الطرابلسي من سوريا ومحمود شوكت من بغداد، فكيف حدثت هذه الفرقة، سأل الشيخ أمين الذي كان يناصر حزب المشور والجماعة الإسلامية، لقد كان ضد الجمعية جمعية الاتحاد والترقي، وهكذا كان عبد الرحمن الخانجي يقول ما دام الأتراك يدعون بأنهم من أصل طوراني فنحن عرب، وهؤلاء أرمن، وليس من حق أحد أن يهجر ويقتل وينصب المشانق.

لقد اضطربت الأمة كلها على كلام ثابت بك السويدي البغدادي،



وقد أدرك الذين كانوا يجلسون في قهوخانة الشط، جميعهم، بأن الاتحاديين عندما تمكنوا من عزل السلطان هذا يعني أن القدسية انتهت ولم تعد كائنة كما كانت، لقد فهم الناس في باشوية بغداد وفي آيالاتها كلمات جديدة، ومعان جديدة وأفكار جديدة، تعلموها وسمعوا بها منذ عزل الشاه محمد علي القاجاراي، حين اضطربت النجف كلها، كل النجف، وانقسمت الأمة على نفسها بين مؤيد ومعارض للمشروطة، أو كما كان يسميها رجال الدين الفرس في الحوزة العلمية: (المشروتة). وكان أمان الله الطباطبائي يحدث غالب علي مرزا الشيرازي:

(... لك بابا هاي شنو.. بدون مشروتة حياة ما يسير خوش).

وخرج المعمّمون بعمائمهم السود الصغيرة من الحضرة، وهم يسبحون بسبحهم السود الطويلة، ويتلفظون بكلمات لم يسمع بها محمود بك من قبل مثل: الاستبداد، حدود صلاحية السلطان، نظام الحكم. لقد أوجبوا خروج الناس على طاعة المستبد، وبعد أن حدثت المشروطية العثمانية، وأقصي السلطان عبد الحميد، وأعيد الدستور، فقد شاهد محمود بك ما لا يمكن أن يصدقه من قبل الملاهي والتياتروات، الصحف المبذولة في الجادات، الأفندية الذين يسخرون من رجال الدين ويؤمنون علنا بالأفكار القردية، أفندية يطالبون بأن لا يوصم كل خارج على الدولة بزنديق أو كافر، وقد شهد محمود بك انتشار أفكار الأفغاني بين المعممين، وأفكار محمد عبدة، ومجلة المنار التي هي أرقى بكثير من أفكارهم الدينية القديمة الفجة، وقد اقتنى هو ذاته كتاب أم القرى وكتاب طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي، وأخذ محمود بك هو أيضا في الأيام الأولى يجالس الأفندية ويهاجم مثلهم الحاكم المستبد، والظلم، والتسلط، والتحكم، وأخذ مثلهم يطالب بشرع مصون، وحكومات عادلة، ومقيدة، ومشروطة، وقد قرأ محمود بك ذلك اليوم مقالة في صحيفة خردلة العلوم تقول فيها بأنهم لن يتحاملوا على أحد سواء أكان وثنيا، أم ماديا، أم لا أدريا، أو إلاهيا، ولن ينعتوا أحدا



كافرا، ولا زنديقا، ولا منافقا، لأن ذلك منافيا لروح الآداب الصحيحة، وإن في العلم العصري جميع البشر أخوة، فإذا كان جميع البشر أخوة فكيف فعلوا ذلك بالأرمن سأل ثابت بك السويدي؟

ولهذا السؤال بعثوا له حسون الطرفي ليغتاله في منزله كما فعلوا بكريكور زهراب:

كان رضا أغا هو الذي جاء بحسون الطرفي، وهو أشهر سكير في قهوة عبد الكائنة في السنك قرب العباخنة العسكرية من جهة البساتين، كان الذباب يغطي وجهه مثل قطعة من التمر مرمية في الزبالة، وملابسه ممزقة، ويضع نقوده التي يسلبها من الفلاحين القادمين من الأرياف لبيع السمن واللبن في المدينة ويضعها في صرة يلفها أكثر من لفة ويضعها على بطنه، كان رضا أغا هو الذي جاء به وجعله يكنس الروث في اصطبلاته أول الأمر، ثم جعله حارسا أمام منزله، وشيئا فشيئا. اكتشف رضا أغا كفاءة حسون الطرفي في القتل والاغتيال.

جاء وقد لثم وجهه بالغطرة المخططة ذلك اليوم، طرق باب منزل ثابت بك السويدي في الجانب الأيسر من محلة طوبليان والتي يسكنها كبار الضباط العثمانيين، وكبار الموظفين، كان الوقت فجرا، وقد استيقظ الناس على وقع حوافر الخيل وصهيلها ورنين المهاميز، حيث اعتاد المرافقون والسياس إحضار الخيول المسرجة إلى الضباط في الفجر للالتحاق بأعمالهم.

كان محمد فاضل باشا الداغستاني الذي تولى بغداد قبل أعوام، والذي أنشأ حديقة للحيوان في باب المعظم وجعل الناس يتفرجون للمرة الأولى على جدهم القرد محبوسا في القفص ومؤخرته عارية، يسكن بالقرب من منزل ثابت بك السويدي، كان حراسه الشيشان القصار الأشداء يخيفون المارة ويمنعونهم من المرور من المنطقة المحيطة بمنزله، وقد وضعوا لافتة هناك تمنع مرور الناس إلا للعثمانيين، بيد أن رضا أغا هو الذي اتفق مع رئيس حراس الباشا فاضل الداغستاني بالسماح



لحسون الطرفي للوصول من خلال العقد الذي يسكنه الباشا إلى منزل ثابت بك السويدي.

(ثابت بك... هناه... ؟).

(من يريده...) قال.

(رسالة من الأستانة...).

انفتح الباب نصف فتحة، فأدخل حسون المسدس في بطن ثابت بك، لقد أدخله في منتصف بطنه بالضبط، تحت المعدة تقريبا فوق السرة تقريبا، ضغط بقوة (طاخ..) أنطلقت رصاصة، وتصاعد الدخان الأبيض من المسدس الفرد، فانفتح الباب الخشبي الذي يتكأ عليه البك ببطء وسقط على الأرض (طراب...) وضع حسون مسدسه في عبه، وأطلق ساقيه للريح.

كان الحارس الشيشاني، بعينيه الصقريتين الحادتين ووجهه القاسي بانتظاره، سمع صرخة البك في المنزل المجاور، وبلمح البصر قفز على حسون الطرفي وطعنه ثم سحل أحشاءه بالرمح كما أوصاه رضا بك، وهكذا قتل حسون الطرفي ثابت بك، وقتل الحارس الشيشاني حسون الطرفي، وقد عرف محمود كل ذاك من الناس الذين أعادوا سرد الحكاية بشكل منطقي، حين وقعت الحادثة قالوا أن الحكومة وراء كل شيء فيها، قالوا إن الحكومة هي التي بعثت حسون الطرفي لقتل ثابت بك ثم اتفقت مع الحارس الشيشاني لقتل حسون لكي يضيع دمه بشط.

لقد سمع محمود بك أكثر من واحد في عقد النصارى وقنبر علي وباب السلطان يسرد الحكاية بالطريقة التي تجعل الحكومة وراء مقتل ثابت بك السويدي إلا الحكومة بطبيعة الأمر، فهي وحدها التي تعتقد أنها استطاعت أن تخفي كل شيء عليهم، وأنها حينما فعلت ذلك، فقد انطلى هذا الأمر على الناس، ومحمود بك صدق الحكومة، وأخذ يدافع عنها، فوظيفته هي تبرير أفعال الحكومة، وقد رأى الجميع يفعل ذلك،



فالشيخ أمين يصرخ بكل صوته أن الحكومة فعلت حسنا لما فعلت كيت وكيت، وحين تغير الحكومة رأيها وتنقلب على نفسها، يتحدث الشيخ أمين عن الرأي المصيب والحكيم الذي توصلت إليه الحكومة في الآونة الأخيرة، وكان منيب أفندي يمتدح الإنكليز والأمة الأوربية التي فعلت كيت وكيت، وحين تغير رأيها، يغير رأيه، ويمتدح الرأي الأخير، ويظن أنهم وصلوا إلى الصواب، وهكذا أدرك أن عمل المؤمن الصحيح والأفندي الصحيح هو تبرير كل شيء قادم من الفئة التي يؤمن بها، ولا شيء آخر.

*

لحق الدرك في يوم ممطر عبد الرحمن الخانجي الذي هرب من عقد الصخر بعربة توج تجرها الخيول، وكان الشارع المفروش بالصخر ضيقا والمارة يضطرون للالتصاق بالحائط، إلا أنهم تعقبوا أثره، وبحثوا عنه في قصر الشابندر في الأعظمية، وفي قصر الأيل، وفي قصر باغوصيان أفندي، ثم دارت المجموعة في عقد الصخر في الدنكدجية، وفي القاطرخانة، وفي سيد سلطان علي، وجاءتهم الإخبارية إنه في جامع الخفافين.

يقولون أن محمود بك الذي لم يشترك في التفتيش عنه هو الذي أخبرهم عن الأماكن التي يمكن أن يتواجد فيها، فهو يعرفه عن طريق سيد خليل الذي قال: (عبد الرحمن الخانجي يبكي على الأرمن لو على الأرمنيات...).

كان عبد الرحمن الخانجي من الذين يرتادون الملاهي والتياتروات التي تحييها العاهرات والراقصات الأرمنيات في بغداد، واللواتي جئن من أدنة وتفليس وسالونيك ومن حلب أيضا، وقد شغف عبد الرحمن براقصة أرمنية جميلة يلقبونها برشانة لبياضها، كان الرصافي قد شغف بها يوما ثم تركها بعد أن وصلت فطومة السودة التي تسكن الجوبة في بغداد، وهي من الزنوج الذين اختلطوا بالبغدادين، غير أن أصولهم ترجع إلى كينيا



وزنجبار، ومن ثم شغف محمود بك ببرشانة الأرمنية لأنها ذكرته ببياتريس، وربما هذا هو السبب الذي يفسر الكره الذي يكنه محمود بك لعبد الرحمن الخانجي، ففضلا عن اختلاف موقفهما من تهجير الأرمن إلى الشام والعراق، كان محمود بك يشعر بهذه المنافسة الشديدة من عبد الرحمن الخانجي للراقصة الأرمنية، وربما كان هذا السبب هو أكثر الأسباب معقولية من بين الأسباب المطروحة جميعها، فهذا السبب وحده يمكنه أن يجعل محمود بك أن يحقد عليه ويتمنى موته لكي لا يشعر بالمنافسة أبدا.

قال لهم محمود بك:

(فتشوا الجوامع وستعثرون عليه...).

دخل الدرك جامع الأوزبكية قرب باب السلطان، وهو أول جامع من جهة الشمال في الجادة الجديدة التي فتحها خليل باشا لمرور جيشه وبغاله ومدافعه وآلاته العسكرية بعد أن تغلغل الإنكليز في البصرة، دخلوا على خيولهم الجميلة المسرجة، وهبطوا منها في ساحة الجامع بسرعة فائقة وهم يشهرون أسلحتهم بغضب، فخرج لهم السدنة من باب تقع فوقها القبة المقرنصة، فسقطوا على أيديهم وقبلوها وحلفوا لهم أن لا غريب في الجامع، إلا أن رئيس الدرك دفع السادن، وأخذ مجموعة معه ودخل من الباب الخلفية حيث السياج المزخرف زخارف جميلة من الكاشان، وهناك فتشوا الجامع بأكمله من المحراب إلى الميضأة، ثم صعدوا خيولهم ودربكوا بها في الشارع الجديد إلى جامع المرادية بمنارته الملونة وقبابه المفلطحة الست، ثم الميدان فجامع الأحمدية بمصلاه الذي تعلوه قبة عالية محلاة بالزخارف النباتية الملونة، ثم جامع الحيدر خانة وقد توسطت بابه منطقة السوق، وبعد ذلك فتشوا جامع الكهيا ولم يجدوه، دخلوا الأرمن كليادسي ولم يجدوه، وبعد ذلك فتشوا السبيل خانة بيتا، بيتا ولم يجدوه، بقي الدرك يبحث عن عبد الرحمن الخانجي ثلاثين يوما ولم يجدوه.



لو كانوا وجدوه لأحرقوه بالنفط كما قال رضا أغا ذلك اليوم وهو يخطب بالناس بالتركية قرب السراي، ومع ذلك فقد مات عبد الرحمن الخانجي محروقا بالنفط، نفس النفط ونفس النار ولكن بطريقة أخرى:

لقد وجدوا جثة عبد الرحمن الخانجي متفحمة بالحريق الذي التهمت ألسنة ناره محلة العوينة، وقسما من محلة المربعة، وقسما من الصدرية، ومحلة سراج الدين، وقسما من محلة الحاج فتحي.

*

سار محمود بك على جواده قرب النهر، كان بضعة من الأكراد يثرثرون وهم يدخنون قريبا من مرسى القوارب، كلاب هزيلة تمر وهي تتشمم الأرض، ونساء على الجرف يغسلن الملابس ويحملن الطشوت، كان محمود بك يقرأ على الجدار المقابل لشركة بيت لنج فرمان الحكومة، فرمان سلطاني همايوني، لتسفير شركات الحلفاء أعداء الدولة العثمانية في الحرب.

بعد أيام سفر الدرك العثماني جميع الخواجات إلى بلدانهم، جميع الأجانب الذين كانوا يعملون في الشركات البريطانية والفرنسية، مثل شركة لنج، شركة بلوكي، شركة مكنزي، وكان محمود مكلفا بالفرمان بجمع الموظفين الشقر ببذلاتهم الأنيقة وقبعاتهم، ونسائهم وعبيدهم وخدمهم وأكثرهم من كبار الموظفين والدبلوماسيين والجواسيس والخبراء والمستشرقين، ونقلتهم إلى استنبول ليرحلوا عبر خليج البسفور إلى أوربا.

أما الموظفون الصغار والعمال والخدم فقد تم نقلهم على ظهور المراكب الصغيرة التي تسير بطيئة في نهر دجلة، بحراسة بعض الجندرمة الأتراك إلى البصرة، ومن هناك ليستقلوا البواخر البريطانية الكبيرة إلى الهند، وقد كان محمود ضمن فصيل الحراسة الذي رافقهم.

*



جلس البريطانيون على ظهر المركب بصفوف متقابلة- كانت الأرضية متسخة بقشور الموز وأعقاب السجائر، وقشور الأجاص، والصحف المرمية، كانوا يعتمرون القبعات والبذلات السود البسيطة الرثة لاحتكاكها الكثير بالمكتب، بعضهم كان يرتدي سترا طويلة مقطعة الأزرار، قمصانهم خشنة، وأحذيتهم عتيقة، ولكن محمود بك كان ينظر إليهم بوجل واحترام، وكان ينظر إلى هذه الملابس العمالية على أنها منتهى الأناقة والكمال.

وبعد أن رحلوا استولى العثمانيون على مستودعاتهم البترولية وجمعوها في علوة المخضرات في العوينة، كانوا قد راكموا العلب والقناني والبراميل فوق بعضها، وفي فجر يوم ثلاثاء سمع أهالي بغداد أكبر انفجار في تأريخ المدينة (بوم... بوم... بوم).

*

سار محمود بسرعة على جواده هو ومجموعة من الجندرمة إلى العوينة بسرعة، كان ينظر من بعيد إلى الدخان الأسود القاتم الذي انتشر في الفضاء، كان ينظر إلى السخام الشديد الذي انتشر بسرعة هائلة، فعم سماء بغداد، ثم أعقبته ألسنة النار الحادة وهي تصعد إلى الأعلى، وكان الدوي يصم الآذان، حتى ظن الشيعة في العوينة وصبابيغ الآل أن يوم القيامة حان وسيظهر المهدي وسيعاقب السنة في الحيدرخانة وجديد حسن باشا، وسيكرم أهل الشيعة الذين فازوا فوزا عظيما، وسيحلهم بأحسن منزلة، بينما كان السنة في باب الشيخ يظنون أن الله عاقب الشيعة في العوينة لأنهم من الرافضة المشركين:

(شيسوي بيكم بعد... فهموني) قالها شيخ خضر في باب الشيخ.

دوي مخيف امتدت على أثره النيران إلى السماء، وكان محمود يشترك بإطفائها خمسة عشر يوما بكاملها، بلياليها ونهاراتها، كان يشترك بإطفاء النيران التي أحرقت الدكاكين والدور والخانات والأسواق والسراديب والمخازن، يطرح المواد القابلة للحرق خارج المكان وينتشل



الجثث التي يحملها أهلها بالعربات إلى المقبرة، وحين وصل إلى منزل الراقصة المسيحية معاني وقد التهمت النيران منزلها وأحالته إلى رماد، وجد جثتين هناك جثة معاني المحروقة، وجثة عبد الرحمن الخانجي مطروحة، محروقة، قرب سوق العوينة بجوار خان الكبابجي.

*

(عبد الرحمن الخانجي محروق قلبه على الأرمن لو على الأرمنيات اللي يرقصن بالتياتروات).

قال الشيخ أمين.

كان عبد الرحمن الخانجي يعمل بالليمان، وكان صديقا لمحمود بك منذ أن كان طالبا بالمدرسة العسكرية، وإن بعد منزله الذي يقع قرب محطة تراموای الكاظمية عن منزل محمود بك الذي يقع في محلة قنبر علي، إلا أنهما كانا يلتقيان على الدوام، وقد اصطحب عبد الرحمن الخانجي محمود بك أكثر من مرة إلى الكزلي في محلة الصابونجية التي تكتظ بالمواخير ومنازل الدعارة، هناك أكلا الكباب في محل عدنان النجفي، وذهبا ليتفرجا على الحيوانات التي جلبها محمد فاضل باشا الداغستاني ووضعها في أقفاص خارج اصطبلاته في باب المعظم، وللمرة الأولى وقف وجها لوجه أمام القرد.

كان القرد مشعرا مثل سعدون المكاري الذي يصعد الشعر الأسود من زيقه، ووجهه مفلطح وأنفه مفروش مثل أهل الجوبة، ومؤخرته مكشوفة كما قالوا، ولكنه لا يشبه الأوربيين، أما حركاته فقد كانت بشرية بالكامل، وقد كان أكثر الأفندية الذين يزورون أقفاص الحيوانات في باب المعظم يتوقفون طويلا أمام القرد لا ليتسلوا على حركاته المضحكة فقط إنما ليدققوا بوجه الشبه بينهم وبينه، وقد قال منيب أفندي أمرين، الأول أن الشبه بين القرد والأمة الإسلامية أكثر مما بينه والأمة الأوربية، والثاني إنه مضحك مثل حالنا.



فإذا كان مضحكا مثل (حالنا) كما قال، فذلك بسبب الشبه بينه وبين الإنسان، فتبدو حركاته مضحكة ومسلية لأنهم كانوا يرون أنفسهم فيه بالمقلوب، أما حالنا المضحكة التي يقصدها منيب أفندي فهو أمر آخر، كان يدركه محمود ويعرفه ويضمره ليوم آخر، على الرغم من أن محمود بك بكل إخلاصه للدولة العثمانية كان يتمنى للأمة الإسلامية الجنة الأرضية التي كانت تعيشها الأمة الأوربية بسبب الارتقاء والتقدم.

(ولكن الارتقاء والتقدم أفكار داروينية.. مثلما تقدم القرد وصار إنسان.. نحن نتقدم ونصير بشر مثل أوربا). قال له عبد الرحمن الخانجي.

(إذا الإنسان ترقى من المرحلة القردية إلى المرحلة البشرية، هذا يعني ببساطة.. إنو إحنا نتبع السبيل الصحيح... وهو الترقي من الأمة الإسلامية للأمة الأوربية... مثلما كنا قرود وأصبحنا بشر). قال منيب أفندي.

وما كان محمود بك الذي يحلم ببغداد مثل لوندرة وباريز يعجبه هذا التشبيه، أمة إسلامية قرود وأمة نصرانية بشر.. كيف؟

(بالتقدم والترقي) قال عبد الرحمن الخانجي.

طيب، إن الأمة الأوربية هي التي اعترفت بأن جدها قرد، وهذا الأمر واضح وبين وهو نوع من الاعتراف الصريح، نوع من التصديق والإقرار، بيد أن الأمر مختلف مع الأمة الإسلامية، مختلف مع خير أمة خير أمة أخرجت للناس، كان محمود بك يفكر بالطريقة هذه، وقد أكد له الشيخ أمين ذلك، لأن الأمة النصرانية انحدرت من اليهود وكان اليهود قردة خاسئين، أما المسلمون فهم خير أمة أخرجت للناس ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف، وحين قال محمود بك للشيخ أمين أن هذا التفكير يتهاوى مع أول التفاتة لأمة لا تنهي عن المنكر ولا تأمر بالمعروف، قال الشيخ أمين هذا بسبب الأفندية المارقين.



ولأعوام صدق محمود بك أن ما يميز أمة النصارى عنا هو أنهم أصحاب ذيول، وإن كل نصراني -مهما كان- له ذنب صغير يهتز أعلى مؤخرته يخفيه بالجلباب أو البنطلون، كاد محمود بك أن يصدق ذلك، مثلما كان الشيعي يصدق بأن لكل سني ذيلا صغيرا أعلى مؤخرته يميزه الله به يوم القيامة عن الشيعي الذي خلقه الله على أحسن تقويم، وهذا ما جعل عبد الحسين الأرزي يكتب في صحيفة الإقبال أن على الأمة بكل طوائفها أن تكف كل طائفة عن اتهام الطائفة الأخرى بأن لها ذنب، ومع ذلك أحب محمود بك أن يتأكد بنفسه، أن يتأكد من وجود الذيل من عدمه، وما كان هذا ممكنا لو لم يذهب إلى الماخور، فكان من المستحيل عليه أن يعرف ذلك من أصدقائه المسيحيين الذين يجالسونه في المقهى، ففي الماخور فقط يمكنه أن يرى مؤخرة صنعها الله مسيحية وختمها بالذيل.

*

عند الغروب وبعد أن انحدرت الشمس بلونها القرمزي الداكن وراء قبة جامع الأوزبكية الزرقاء، خلف باب السلطان من جهة السور الذي يحيط ببغداد، هبط محمود بك من برج القشلة همايوني بعد أن انتهت خفارته، في الساحة التي تفصل الإصطبلات عن الدائرة سي، صعد جواده الأطهم المسرج بسرج تتري جميل، عدل طربوشه الأحمر النظيف بيديه، وسار بهدوء من البوابة الخارجية للقشلة متجها إلى منزله في قنبر علي، وبعد أن بدل ملابسه العسكرية خرج على قدميه، صعد عربة توج صغيرة، كانت أرضيتها وسخة، وحوذيها من أهل دكان شناوة يتحدث كثيرا وقد أوصله إلى دائرة الليمان حيث كان عبد الرحمن الخانجي يعمل هناك، جلس عنده في مكتبه العاري من الأثاث تماما والمرصوف بالطابوق الأصفر المرشوش، وتكلما كثيرا، حدثه عبد الرحمن الخانجي ذلك اليوم عن مجيئه من الموصل إلى بغداد بواسطة الأكلاك، وقد سافر برفقة سائحتين أمريكيتين اثنتين، جاءتا للسياحة والآثار، وكان برفقته على



جودت أيضا، حدثه عن هروبه من الزجري بعد أن التحق بالمدرسة الرشدية العسكرية، وقد اعترف له للمرة الأولى بأنه صديق لعبد العزيز الرشيد أمير نجد والذي كان بدوره ذا حظوة لدى السلطان، وقد زاره حين كان في قتال الوهابيين، ثم عاد إلى بغداد بسفينة شراعية كانت راسية في البصرة واسمها المهيلة، وقد خاضت بين الأهوار المكتظة بالقصب، وكلما تشتد الريح كان الملاحون ينزلون إلى الهور، ويجرون المهيلة بالحبال.

*

خرجا من دائرة الليمان بعد أن قام عبد الرحمن بإدخال شحنة من الأسلحة في المخزن كان يحملها مركب يقوده ربان يوناني، ثم صعدا زورقا عبر بهما إلى الرصافة، ومن هناك أخذا عربة تكلك كانت متوقفة أمام أوتيل عبد الأحد، مرت بهما بشارع الرشدية عسكري، ورديف فرقة سي، حتى وصلا الميدان.

كان الميدان مزدحما بالعربات والحمير والبغال، وكانت الساحة مضاءة بالفوانيس، وقد انغمرت البيوت بظلام دامس، وفي الفسحة التي تفصل المواخير عن رأس الكنيسة سارت عربة تكوم فيها الجندرمة وتدلوا من جوانبها، تعلق بضعة منهم بمؤخرتها بقلباغاتهم العالية الموبرة، وأجسامهم الضخمة، وكروشهم المنفوخة، وكان الحوذي يضرب الحصان بالسوط وهو يعدو ويعدو والعربة تميل يمينا وشمالا على الأرض المتربة، وكان الجندرمة يصرخون بالتركية:

(آلنه صاغلق) وتعني تسلم يدك، ثم يقهقه أحد الجندرمة في الخلف وهو يصرخ:

(باش أوستنة... باش أوستنة).

*

دخلا شارع الصابونجية وقد كان خاليا تماما ذلك الوقت، بضعة



منازل على اليمين تحولت إلى أنقاض.

منذ عام وخليل باشا يشق الجادة الجديدة، وهو شارع عريض يمتد من الدبخانة العسكرية في السنك إلى باب المعظم، وسط الظلام وقفا أمام منزل واطئ السقف، ثم دفع عبد الرحمن الباب الخشبي الكبير، ودخل إلى الحوش الذي يحده السور من جهة ومن الجهة الأخرى كان محاطا بجدران البيوت العالية، دخل وراءه محمود بك ببذلته وطربوشه الأحمر، وقد وقفا وسط الحوش على الأرضية المبلطة بالطابوق الأصفر، سمعا ثرثرة النسوان وصيحاتهن الناعمة وضحكاتهن العالية، وفي الفسحة خلعن عباءاتهن، وجلسن على أرائك متقابلة مفروشة بمفارش ملونة ونظيفة، وتقدمت منهما سليمة الموصلية بصوتها الناعم المتدلل، فأشار عبد الرحمن الخانجي لها على محمود وقال لها:

(محمود بك يريد مسيحية...).

فانفجرت العاهرات بالضحك، قالت الآثورية الجالسة على الأريكة، وهي تفتح صدرها: (ليش البك يريد يتعمد...).

مما أخجله ذلك، لأن الذين يأتون هنا يريدون: فتاة شقراء، سوداء، سمينة، ضعيفة، كبيرة، صغيرة، ولكن لا يقولون مسيحية، أو شيعية، أو سنية.. الخ...

جذبت سليمة محمود بك من يده، فسار وراءها بعد أن خلع طربوشه الأحمر بيده الأخرى، وأدخلته إلى الحجرة الجانبية، هنالك قنديل يتقد داخل زجاجة بلون اللبن، وقد شم روائح كثيرة مختلطة، وفوحان جسد نسائي، وهنالك برشانة الأرمنية مثل الفرو الأبيض مضطجعة على سريرها العالي، ومستندة على وسادة منتفخة من القطن، وفي يدها البيضاء نارجيلة تدخن بها، وكانت ثيابها مشجرة ومفتوحة عند صدرها تكشف عن نهدين متكورين ومضغوطين، وسيقانها مملوءة وربلة، وشفاهها عريضة وواسعة، وقد سمع خلف المنزل دربكة في اصطبل الخيل وحمحمة حصان، وفوق الحوش دربكة خروف وصوت



ديك رومي، وسمع من بعيد صوت حدوات حصان لعربة توج تهتز على الطريق.

نهضت من مكانها وبهدوء قالت بالتركية:

(يتمش بش غرش أفندم).

(حاضر..) قال وأخرج عشرين غرشا وناولها.

استدارت جهة الحائط وخلعت بهدوء فستانها، فظهر كتفاها الأبيضان والاستدارة العذبة لعجزها دون ذنب. نظر إلى مؤخرتها جيدا كانت عارية دون ذيل أبدا، تحرك نحو الحائط، خلع طربوشه وعلقه بالمسمار المدقوق، وحين أخذ يخلع ملابسه كانت هي قد انسلت بهدوء إلى الفراش، وتلفلفت باللحاف الأملح.

(من حق عبد الرحمن الخانجي يبكي على الأرمنيات.. فتلهن الدرك بالسياط وكعوب البنادق.. من حق بعبد الرحمن الخانجي يتألم ذلك اليوم..).

(الأرمنية مثل الفرو.. بيضة.. وسمينة.. ودافية) قال جاسم ابن الجدة وضحك، كان هو أول من سافر من بغداد إلى استنبول بعد المشروطية، سافر مع معروف الرصافي الذي ذهب هناك ليعمل في صحيفة إقدام التركية، وبعد أن انقلب التركي على الرصافي، وبعد أن فشل ابن الجدة باختبار مدرسة الفنون في ألمانيا، أخذ كلاهما يذهبان مع الراقصات اليهوديات والأرمنيات في قحبة خانة ماريا هانم الفرنساوية، وقال:

(الأرمنية مثل الفرو ناعمة وسمينة).

كان ابن الجدة يدعو الفتيات في المنزل الذي استأجره في استنبول قرب شارع المواخير في شارع يوقساق القريب من جسر جالا، هناك كان يتنشق رياح البحر الرطبة وبواخر البسفور التي تمخر الأمواج بقوة، كان ينظر النوارس التي تخفق فوق القوارب، وفي الليل كانت قناني العرق



والمزة والفتيات التركيات والأرمنيات في منزله، وجوههن مرسومة بالألوان، وملابسهن ضيقة وخليعة ومرقعة، وشعورهن مصبوغة، وكن يرقصن ويهتفن هتافات بذيئة مع موسيقى الماندولين، فتيات شبه عاريات يدفعن سيقانهن الثقيلة، بطونهن المكشوفة تومض، وكل واحدة تهتز وتتثنى أمامهما، وعلى الوجوه بقع حمر مستديرة.

(من حقه عبد الرحمن الخانجي يبكي على الأرمنيات) قال محمود في نفسه.

فتح عينيه الذابلتين بهدوء، كان الضوء يخبو، والأرمنية البيضاء نائمة إلى جانبه هادئة، التفت إليها بهدوء، كانت قد أغمضت عينيها ببرود شديد، فمد يده متسللة تحتها، كأنه يريد شيئا منها، فتحت عينيها دون أن تلتفت إليه، إلا أن يده وصلت إلى ظهرها من عند قمة عجزها، تحسس عصعصها تماما، دون أن تعرف أنه أراد أن يتأكد فيما إذا كانت النصرانية لها ذنب مثل القرود أم لا. لم يصدق أول الأمر كلام الشيخ أمين، ولكنه شك فيما بعد، من الممكن أن يكون للنصارى ذيل، ولكن كيف يمكنه أن يتأكد، كان من المستحيل عليه أن يقول في المقهى للصحافي داود صليوة أو لأنستاز ماري الكرملي:

(من فضلك دير مؤخرتك خلي أشوف عندك ذيل لو لا..).

*

مدت يدها وتحسست قصبة النارجيلة، ثم جذبتها ووضعتها في فمها وأخذت تبقبق، كان الدخان يتصاعد شيئا فشيئا، كان في الأول قد صعد بصورة قليلة وهادئة، ثم سرعان ما انتشر في الحجرة، كان يخرج من فمها مثل الغيمة ثم يتبدد وينتشر، ثم ناولته القصبة، وصار يسحب، فتقرقر الزجاجة على الأرض، يخرج الدخان من فمه مثل الغيمة ينتشر بعد ذلك في فضاء الغرفة، كانت الظلمة في الحجرة تزداد وضوء اللمبة يخبو، فرأى الجص متهدلا من عروق الخشب المائلة في السقف، ولم تكن هناك ولا هبة هواء ما عدا دخان النارجيلة، وصوت سليمة



وضحكاتها تملأ المنزل مع عبد الرحمن الخانجي، وهناك الجالسات بالحوش اللواتي رآهن عند دخوله وقد رمين عباءاتهن على القنبات، كانت الضجة في الخارج قوية، والعرق يهبط بين أبطيه باردا ويسيل على ظهره. لحظات ثم شعر بحزنها، شعر بحزن الأرمنية على السرير ربما تذكرت أهلها، قال في نفسه، ربما شعرت بأن من ينام الآن معها كان من الجندرمة الذين ساقوا أهلها بالسياط وكعوب البنادق من أدنة وتفليس إلى الشام والعراق، لحظات ثم رأى دمعتها قد سالت من مأقها الجانبي ووصلت إلى أذنها، فسألها بهدوء:

(تذكرت أهلك؟).

(نعم).

(ربما تظنين بأني كنت ممن..).

(...).

(لو لا قرباغي و طوسباغي.. ورضا أغا.. والمركز العام لما قبل أحد بما صار بالأرمن.. بس أنت تعرفينهم..).

(لا..).

(زين تعرفين كريكوري زهراب).

(لا...).

(تعرفين ثابت بك السويدي..).

(لا..)

(تعرفين الفكرة القردية..).

(لا..).

(تعرفين جميل أفندي الزهاوي..).

(لا..).

(تعرفين سليمان باشا النظيف..).



صمتَ، وهو يرتدي ملابسه، وضع طربوشه الأحمر على رأسه وقال لها:

(أنا ضابط صغير كوجك سي في الجيش العثماني.. أحرس الأمن والأمان... طلبت مني عشرين غرش.. وأعطيتك... مو آني اللي قتلت الأرمن... والله العظيم مو آني اللي قتلت الأرمن).

*

صوت الطبول يقرع الآن في الميدان.

الميدان الحجري للقشلة همايوني شبه مهجور منذ الظهر، أضواء الفوانيس الذاوية تخفق من شدة الريح، ومن بعيد هنالك عربة كارو محملة بأكوار من التبن والمعدات، عربة لاندون محملة بأكياس الخيش الممتلئة، عربات تكلك، عربات توج ومجموعة من الخيول والبغال والحمير المسرجة، الباب الخشبي الكبير الذي ينفتح على الميدان مغلق بالمزلاج، وحصن القلعة القريب والمباني والسرادقات والشوارع المقابلة للقشلة كلها مهجورة وخالية، وقد رأى من بعيد الجاويش وهو يحمل أوراقا ودفترا على صدره، وعلى مقربة من طوب أبو خزامة أحد العساكر ينفض حذاءه من الطين، وفي الشارع الذي يؤدي إلى الخستخانة بضعة ممرضات ألمانيات يعقدن على رؤوسهن الشرائط البيض وعلى أكتافهن علامات الصليب الأحمر، يسرن برفقة حراس أتراك ويتوجهن إلى عربة حربية متوقفة، سمع محمود بك صوتا قويا خارجا من حجرة الحراس، صوتا قويا، حادا، خشنا، ومتلاحقا:

(إخلاء... إخلاء... إخلاء...).

(ما معنى هذا...) قال في نفسه.

لقد أدرك لحظتها أن خليل باشا عصبي المزاج هذا اليوم، وكاظم باشا يريد أن يخلي المدينة أمام الجيش البريطاني، هذا يعني أن الأمة الأوربية ستنتصر على الأمة الإسلامية. هذا يعني أن الأفندية كانوا على



حق في كل ما قالوه ودافعوا عنه، هذا يعني أن البقاء للأصلح قانون صحيح وواقعي، وعند ذاك انتصرت الأمة الصالحة على الأمة الطالحة، فلماذا لا يعترف الشيخ أمين بذلك، لماذا ينكر؟ لقد وقف محمود بك لحظتها بين موقفين ورؤية واحدة، أما الرؤية فهي واقع الأمة المنحط والمتأخر والذي لا ينكره لا الشيخ أمين ولا منيب أفندي، ولكن الموقف من هذا التأخر مختلف، ففي الوقت الذي يرى الشيخ أمين بحنينه لمثال الماضي هو القادر على تصحيح هذا التأخر، كان منيب أفندي يرى مثال أوربا هو الحل النهائي والأخير لخلاص الأمة، وكان محمود بك يدرك بأن أصعب شئ على هذه الأمة هو ما ستفعله الأمة الأوربية بأمة المسلمين، ستجعلهم يمشون ومؤخراتهم مكشوفة مثل القرود، النساء والرجال قرود، النساء والرجال يرتدون البرانيط على الرؤوس، وتبقى مؤخراتهم مكشوفة، وقد خطب الشيخ أمين بالناس بأن الإنكليز سيجعلون أمة المسلمين تمشي على الطريقة القردية بكشف مؤخراتها وقلة غيرتها وضعف نخوتها، والتفت إلى محمود بك وقال له:

(عليك أن تكون أكثر إخلاصا للأمة... هذه الأيام تمتحن فيها الأمة الإسلامية أمام الكافرين أعداء الدين).

هذه الأيام هي الأيام التي تمتحن فيها الأمة أمام موقفين وطريقين ومنهجين متحمسين، واحد بتقليد السلف، والاقتراب من الوحي، والآخر الذي شدد عليه منيب أفندي الذي كان من أشد المتحمسين للفكرة التطورية، لقد كان يرى أن سنة الحياة هو التطور، ونصر الأمة الأوربية من سنة التطور، من السنة الدافعية لا من السنة التراجعية التي يرى فيها الشيخ أمين قدرا قدره الله عليهم ليمتحن الأمة، ويبتليها ويختبرها ويعرفها، ونصر أوربا وأن زينته البهرجة فهو كاذب ومخادع وعرضي، ومحمود بك الذي وقف بين هذا وذاك كان يخرج من الصباح إلى المساء مع الميري، يخرج من الصباح إلى المساء كي يصادر الحيوانات والدواجن والطيور من أصحابها، يصادر البضائع والحاجيات



والأزيار والطسوت والأباريق ويعدها احتياجات الجيش يجب جمعها من الناس، كان محمود بك يأخذ كل شيء تعتبره الحكومة لازما للحرب، ويعطي كل شخص مسلوب ورقة مكتوب فيها الأشياء التي أخذوها منه.

قسمة عادلة، بضاعة كبيرة، وحيوانات لازمة لعيش الناس أمام ورقة صغيرة شبه مطوية، بليت حافاتها ومكتوب عليها الأشياء التي أخذوها منهم للميري، وعلى طرفها الدمغة البنفسجية التي تشير للحكومة كي لا يزوّرها أحد، الحكومة تأخذ الأشياء التي تراها لازمة للحرب وتعطيهم ورقة وحين قال هذا لمنيب أفندي، قال له الأخير:

(ولكن هذه الأشياء هي أيضا لازمة لحياة الناس.. قلي بالله اللي يحرث على الثور وأنتم أخذتوه منه كيف يحرث.. والمكاري اللي يحمل على الكديش وأخذتوه منه كيف يعمل).

قلب محمود بك وجهه، ولوى فمه غاضبا وغادر المكان دون أن يدفع ثمن قهوة منيب أفندي كما كان يفعل كل مرة.

*

في صباح اليوم التالي خرج محمود بك نشيطا ومتحمسا على فرسه من بوابة القشلة همايوني بعد أن اصطحب معه مجموعة كبيرة من نفر الجندرمة ودخل أغات أغاجي القريبة من عقد النصارى، خرج من البوابة رافعا رأسه عازما هذا الصباح تطبيق فرمان مصادرات الميري:

لقد أخذ بغلا من كاظم الكرماني أول الأمر، بعد أن قبض عليه وهو يفلت من عقد المسيحيين ثم ناوله ورقة بيضاء مطوية كتب فيها بخط ضعيف (بغل). كان كاظم الكرماني بكتفيه العريضين وبرأسه الملفوف بالكاورية ينظر بعينين مبحلقتين إلى محمود بك، لم يكن يحسن القراءة ولا الكتابة، كان ينظر إلى لغز أسود يتلوى على الورقة، فقال له دون أن يتناولها منه:

(هاي شسوي بيها).



(من تنتهي الحرب نعيده لك).

(تعيدونه.. وإذا استشهد... يصير آني أروح مكانه للجنة).

أخذ خروفين من خالة آشتي الكردية، وحين ناولها الورقة، صاحت بوجهه وهي تضرب الباب بقوة: (شسوي بيها... أنقعها واشرب ماءها).

وحين أخذ العجل من بيت الصفرة، قال لهم:

(تنتهي الحرب.. وننتصر إن شاء الله.. راح نرجع لكم العجل... وإذا استشهد العجل في الحرب راح تروحون أنتم مكانه إلى الجنة).

أخذ حمار رزق الله المكاري وقال له: (من تخلص الحرب نعيده لك..)

هز له رأسه وقال له: (من دبش...) ويعني الشيء المستحيل.

(يا ناس... يا مسلمين... شيخ الإسلام خيري أفندي أصدر فتوى الجهاد... وقال الجهاد فرض عين على كل مسلم... وأنتم من المسلمين إنشاء الله... عليكم تقديم كل ما تحتاجه الحكومة...).

(أنور باشا قال سنبني أعظم جيش في العالم.. وسننتصر على الحلفاء... تعرفون شنو يعني ننتصر على أوربا.. ؟).

قالوا بصوت واحد: (لا...).

(هذا يعني الإسلام هو المنتصر... منو ما يريد نصرة الدين على المشركين.. القردة والسافلين).

حين أنهى كلامه هاجت العامة وجمهور الناس في بغداد واصطخبت، وقد شهدها محمود بك بنفسه، كان قد خرج لتوه من برج القشلة همايوني وسار في الشارع قبل الظهر، سار بطربوشه الأحمر وببذلته اللائقة عليه، وهو ينظر إلى جمهور العامة وقد خرجوا من منازلهم وزرائبهم واصطبلاتهم وخرائبهم وخاناتهم وبازاراتهم، خرجوا من باب السلطان إلى باب الطلسم، من باب الطلسم إلى باب الكلواذة،



خرجوا من كل محلة من محلات بغداد: من طبليان إلى باب الأغا، من محلة القشل إلى جديد حسن باشا، من عقد النصارى إلى الحيدرخانة.

*

رفع الجمهور الأعلام الكبيرة التي تخفق، أمة من المؤمنين في خروجها للجهاد، جمال وحيدة السنام وهي تشق الجماهير إلى نصفين وتصطفق بريش النعام، ورجال يضربون الخيام في العراء، وفرسان صلبون بالسيوف والرماح يؤدون طقوس الحرب وهم ملثمون، وقد حمل العبيد بعض نساء أسياد المسلمين من آل الشاوي والشابندر والجميل على المحفات، وفي الأزقة الصغيرة والضيقة التي لا تتسع لمكاري وحماره، خرج جمهور صاخب وهائج، شبه مجنون، جماهير منفجرة، ارتدت الدروع وحملت الأسلحة، وكانت الأعلام الكبيرة تخفق في الميادين، وأخذت تصرخ بصوت عال: (الجهاد... الجهاد.. يا مسلمين الجهاد..).

*

في اليوم التالي، خرج محمود بك من برج القشلة همايوني بهدوء، هبط السلم الطابوقي وهو يحني رأسه الصغير الذي غطاه بطربوش أحمر مثل دم الديك، كانت أشعة الشمس الذهبية تنعكس على البلاط المرمي الأبيض المواجه لاصطبلات ضباط الجندرمة والدرك خلف ساحة القشلة همايوني، عدل طربوشه الأحمر المائل بيديه، وحين أصبح قريبا من الباب الخشبي المشقق للأصطبل توقف قليلا، عاين المكان، ثم نبه السائس القرغيزي الأسمر الذي يرتدي جزمة طويلة تصل إلى الركبتين وطاقية مثقوبة من الأعلى، للماء الذي كان يتسرب بهدوء من مسقى الجياد، نبهه للقش الذي يتطاير من المذاود خلف الاصطبلات، صعد جواده الأطهم المسرج، أمسك عنانه الجلدي بيديه، وحين سار اهتزت الرشمة الجلدية بين عيني الجواد يمينا وشمالا، يمينا وشمالا.

في الظهيرة سار محمود بك في الجادة المقابلة لبازار الحيدر خانة،



سار بصعوبة شديدة وسط حشود هائلة من الناس تتجمع عند الجدار الخارجي للجامع من جهة الجادة الجديدة التي يطل عليها منزل رؤوف أفندي الجادرجي، كانت العمائم البيض والعمائم السود تتقدمهم، وفي الوسط مجموعة من الدراويش يضربون الدرابك، والصنوج، ويرقصون رقصات دائرية على هدير الصلوات والهمس الغريب، توقف محمود بك هناك وأخذ ينظر إلى بضعة دراويش يتلقون ماء الورد على وجوههم، وهم يخلدون دوران التنورات البيضاء المنشورة على الهدير الخفيض للدرابك، فجأة، أخرج التجار أمتعة نفيسة: صحونا من الفرفوري مملوءة بالحلوى، طاسات الشرابت والعصائر الصفرية، قدور المربيات، ووزعوها على الضباط والجنود والبكجية الذين كانوا يقفون قريبا من حشود المؤمنين، ثم جاء شمدين أغا الكردي ووزع قنادر السختيان والكيوات والبوابيج والأخفاف والمسوت على الفقراء، ثم تقدم الشيخ عبد العظيم سادن جامع الحيدر خانة إلى خزانة الفرش الخشبية المطعمة بالعاج، وأخرج السجادة الكاشانية لصلاة الباشا، وأغلق المقصورة الكبيرة المزينة بالمرايا، وكذلك المنظرة الخارجية للجامع، وأحضر بعض خدام الولاية أدوات التشاريف، ذلك لأن الباشا قد حضر إلى الجامع ليصلي بحشود الناس، سار من أمام من محمود بك وهو يلف على قلنسوته وبنده رباطا مقلما، وقد حمل التلبند أغاسي عمامة صلاته وسار وراءه، وحين انحنى الجمهور له، هز التلبند أغاسي عمامة الباشا للفرجة والتحية معا، قال عارف أغا الذي كان صاعدا جواده أيضا لمحمود بك: (إن الباشا خشي من الفوضى والاضطراب فخرج إلى جامع الحيدرخانة ليصلي بالناس).

إلا أن هذا لم يعجب محمود بك، فتحرك بجواده قريبا من الباب، هبط من الجواد دخل باحة المسجد، وصلى وراء الباشا الذي دعا لنصرة دولة الخلافة على دولة الكفار، ثم رأى محمود بك كبير مشايخ الجوامع الذي انحنى وقبل ركبة الباشا وقال له:



(يا باشم. . . رقابنا فدا لجنابك. . . نحن خدامك. .).

تحرك محمود بك على جواده الأطهم وهو يمسك العنان الجلدي بيديه إلى الميدان، حيث كانت العربات والتختروانات والخيول والإرهوانات والأكاديش تتجمع هناك، وحين سمع الناس صوت الطوب يدمّ من الصوب الآخر من النهر، فطروا، وقد هرع النصارى الذين يلبسون القفاطين الطويلة والطرابيش الحمر إلى البازار الكبير القريب من باب السلطان لشراء العصائر والمكسرات، وفي المساء خرجت النساء المحجبات أيضا إلى باحات المساجد والجوامع، وكان الدراويش والمهرجون والمتسولون والعميان وأصحاب العاهات يطلبون من الناس الصدقات.

دقوا الطبول في كل مكان، وبعض الرجال كانوا يهمزون جيادهم وهم يمسكون بالعصي الخشبية ويتبارزون بها، وبعض العطارين توقفوا هناك وهم يداوون بعض الذين داستهم خيول وحمير وأرجل بعض المتحمسين، وعند جرف النهر حيث سار موكب أحد الضباط الألمان هناك، كان بضعة فرسان يدربكون على الخيول الهزيلة وهم يتبارزون فيما بينهم، يمثلون كيف سيفتكون بالكفار بعصيهم الخشبية وسيوفهم ورماحهم الصدئة التي لم تستخدم منذ مئات السنين.

هاجت الجماهير وتجمعت قرب باب السلطان: بعضهم ركب الخيل ورفع سيفه لنصرة الإسلام، وأخذ بعضهم يلعب الساس، وآخرون ذهبوا إلى الباب الوسطاني لتأجير الخيول والسباق على المنطرد، ووصلوا إلى باب السلطان، حيث كان الشيوخ والوجهاء يجلسون على التخوت، وكان الصبيان يركبون الحمير الحساوية وقد خضبوا جبينها بالحناء.

في المساء جاءت فتوى أخرى من الكاظمية تقول:

(على كل المسلمين قتال الكفار وبريطانيا كافرة. . . ولا يجوز التأخر عن جهاد المسلمين).



وصل محمود بك على جواده إلى المولة خانة، وقد رفع بعض التجار مظلات القش أمام القصور مثل الدروع، وفي الشارع المؤدي إلى جامع الآصفية كانت هنالك بضعة أضواء صغيرة تتوهج وتخبو عند مداخل البازار الكبير الذي يتوسط العقود والمحلات، وفي الظلام مرت وجوه الدراويش من الجدار الخارجي للمسجد مثل تماثيل الزهاد الحجرية، وعند كل عقد ومحلة هنالك الباعة الفقراء الذين ينامون في الخرائب، بينما خلا جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني من زحام المجذومين والذين يحتضرون من الجوع والمسغبة، أو من الذين يتلظون من القهر والعذاب والأمراض، والذين ينامون على الأرض وهم يهرشون رؤوسهم من القمل، أو الذين يتجمع عليهم الذباب والقراد.

لقد أخذت الطبول تدق في المحلات الشيعية مثل صبابيغ الآل والدهانة والقشل، تتعالى في الفضاء الرطب نقع التراب، وأقشاش التبن برائحته الجافة، وامتلأت أزقة الصدرية بالناس، وجاء سكان قنبر علي والتقوا مع أهالي المولة خانة، وذهب سكان جامع مرجان إلى الفضل، وجديد حسن باشا إلى دكان شناوة، وقد سار الشقاوات والأوباش والصعاليك والشطار والعيار والشلايتية والأدب سزية والمكارية في المقدمة، وضعوا عرقشيناتهم على رؤوسهم، والقترات المنقطة على الأكتاف، وأظهروا عضلات أيديهم، وسكاكينهم في الأحزمة وساروا، وأمسك الذين يرتدون الجراويات العصي الخشبية والمرصعة بأيديهم وأخذوا يتقلبون أمام الطبول.

ذهب البعض إلى قشلة السوارية من عند الكرنتينة وأخذوا يلعبون الزورخانة هناك، بعضهم قطع خيمة اصطبل بيت حسين النجار وأنزلها إلى الأرض وأعطاها للميري، بعضهم تبرع بكراسي الجريد في قهوة خانة محمود في الصدرية للجندرمة، كان صبيان المحلات والعقود يصرخون وهم يحملون معاليق التبن والقش، يحملون الرفوش والأسياخ مثل السيوف، والأطفال يزعقون ويركضون يمينا وشمالا، وقد صعّدت من



حماسهم ضجة المؤذنين في الجوامع، وتجمعت النساء في باحة جامع الكيلاني وأخذن يهلهلن للرجال الذين يدافعون عن دولة الخلافة، وعلى السطوح كانت دبدبة أرجل المطيرجية الذين اغتنموا الفرصة، وأخذ كل واحد منهم يغير على طيور الآخرين، بينما أخذت كلاب المحلات التي تتجمع حول الأزبال تنبح في الهواء، وقد ارتاعت الخراف من هذه الضجة وأخذت تصيح، والحمير تنهق، والدجاج يقوقيء، ومن أعطى حمارا أو بغلا أو حصانا التفت إلى زوجته وقال بصوت واثق ومطمئن:

(ربكم رزاق كريم تنتصر الدولة السنية إن شاء الله... ونرجع أحسن من الأول).

*

وقف محمود بك بجواده الأطهم المسرج بسرج تتري جميل مذهب، وببذلته الداكنة، وطربوشه الأحمر الذي يتوهج بلون دم الديك، وقد رفع شواربه السود المدهونة إلى الأعلى، فتلها بيده اليسرى، كان وجهه الأسمر الصافي وعينيه السوداوين الصقريّتين تلمعان من النشوة، قال لهم:

(يا ناس إن الفرمان همايوني لا يقتضي فقط أن يأخذ الجيش ما يحتاجه.. إنما ترحيل الرجال إلى الحرب... كل الرجال... يجب أن يرحلوا دون استثناء إلى السفر برلك).

ما أن سمع الجمهور الواقف أمام محمود بك كلمة (سفر برلك) حتى أصابتهم الصيحة، لقد جن جنونهم وهم واقفون أمامه، كأنه شعب أنزلت عليه نازلة أو أصابه البرصام، صرخوا ففزع محمود بك واهتز من على حصانه، ذلك لأن الجماهير الشجاعة التي كانت تقرع طبول الحرب قبل قليل صرخت وتقهقرت كليا أمامه، أخذت أبلها وجيادها تتراجع بقوة إلى وراء، بينما أخذ أصحاب الحمير والبغال يصرخون، كل واحد منهم ضرب على دابته وهرب بها، أصحاب السيوف والدروع والأعلام تقهقروا فارين إلى بيوتهم، صاروا يصرخون بأعلى صوتهم وهم يضحكون:



(سفر هربك... سفر فرلك).

لم يبق أمام محمود بك الواقف باندهاش على حصانه، سوى بضعة نساء جثن بضلوع نحاسية صدئة، وبطناجر معوجة، وألواح من الخشب المشقق.

لم يحتمل محمود بك هذا المشهد، لقد كانت ألوان الوجوه الحارة والشاحبة صعقته لأنه تحد للسلطة العليا، وتجاوز للفرمان، إنه شيء مبالغ به وعنيف وقاهر ومؤذ لمن جعل حياته في خدمة الفرمان والسلطة العليا، كان شيئا مؤلما فثرثر مع نفسه ثرثرة خفيضة أول الأمر، ثم صرخ بهم مذكرهم بالفرمان وبعقوباته، ولكن لم يعد منهم أحد.

أدار جواده شمالا، كان أنفار الجندرمة قد وقفوا وراءه بطرابيشهم وبساطيرهم المبعجة، وكروشهم المنفوخة التي تحيط بها السيور الجلدية العريضة، ووجوههم الغاضبة وقد اهتزت شواربهم المبعثرة من الغضب، سحبوا سيوفهم ليجربوها أولا وقد شاهدوا غضبه، عدلوا طرابيشهم بأيديهم، تحسسوا أحزمتهم الجلدية على كروشهم، وهزوا له رؤوسهم دلالة على تهيئهم للقبض على الفارين من السفر برلك والذين نقضوا الفرمان.

أشار برأسه لهم، فهرولوا بثقل أمامه، كانت الغالبية العظمى من جماهير العامة المحتشدة قد اختفت بلمح البصر.

*

سار محمود بك على جواده وقد أمسك بعصا طويلة من جريد النخل بيده، بينما كانت بندقيته المارتيني على كتفه وقد شك بها القسطورة البيضاء تحسبا لكل طارئ، تحسس مسدسه بيده اليمنى، ثم فكر في نفسه:

(من غير المعقول أن يهرب الناس من الفرمان).

كان محمود بك يريد تطبيق الفرمان الهمايوني بأية صورة ومهما



حدث، من غير المعقول أن يتمرد الناس بهذا الشكل على المظلة البيضاء شعار السلطة العليا، فالسلطة مقدسة، وهي قادرة على سحق هؤلاء الناس بقوة قليلة مهما كانت كثرتهم. أما جماهير العامة فقد كانوا جوعى، أنصاف عراة، يعانون من الظلم والشناعة والاستهتار الحكومي أكثر من أي شيء آخر، وبغداد ممزقة، تجارها خائفون، في الصباح يتمنون نصر الأمة الإسلامية علنا، وفي بيوتهم يدعون الله لنصرة الإنكليز والخلاص من الاستبداد العثماني، والأفندية يتظاهرون بنصرة الإمبراطورية في الصحف والمجلات والقهوخانات ويتحينون الفرصة لسقوط الدولة من أجل الاستقلال.

(ليش حروبكم تنتهي أشو كل يوم حرب وسفر برلك لنصرة الأمة الإسلامية...) قال منيب أفندي للشيخ أمين.

لقد كانت الناس ضحية سهلة للأوبئة والحرائق والفيضانات والضرائب وظلم الحكومة، وكان الذين يدافعون عن الحكومة يعرفون هذا جيدا، بعضهم كان يشعر بحاجته للاستبداد لأنه فرصة ممتازة لمعدومي المواهب، وبعضهم كان يخشى على الدين من التهاوي والانحطاط ولذلك كان يرى في وجود دولة الخلافة مهما كانت هو حفظ للدين، وما كان يهز الشيخ أمين حقيقة هو تنكر الناس للجهاد، وتنكرهم للجهاد أمر غير طبيعي في إمبراطورية استبدادية متعسفة جعلت من الدين وسيلة لمماهاة الروح الغزوية مع الجهاد المقدس، فالشيخ أمين هو جزء من جهاز ديني محترف، لم يشكل عائقا للسلطة التعسفية، إنما استخدمته لمهر شرعيتها، لقد تحول السادة والملالي والشيوخ وعلماء الدين إلى وسيلة لتطوير مفرط لحرية الحاكم في التصرف والتعسف.

و كان منيب أفندي يرى بأن الأمر هو قانون... قانون الانتخاب الطبيعي مثلما فكر به داروين: البقاء للأمة الأصلح، البقاء للأمة الأقوى، وكان كل الأفندية في بغداد ينظرون لأوربا بوصفها بازارا إلاهيا، بازارا مجانيا، ما أن تحل حتى تختفي كل مظاهر المرض والتخلف والفاقة،



وستصبح بغداد بين لحظة وأخرى مثل لوندرة أو باريز، إن لم تكن أفضل بكثير، فهذا الأشقر الذي يرتدي ملابس كاكية وقبعة من حديد يحمل الأمن والتقدم والحضارة على يديه، ويقدمها لمن يحتاجها.. هكذا ببلاش.. وبكرم حاتمي.. مثل البدوي الذي يفتح خيمته لكل طارق في الليل والنهار.

*

كانت الهمهمات الخفيفة تأتي عبر ضفة النهر، من بيوت مخربة مهدومة، وكان هنالك صوت البوق بهديره المتوحش قادما من الثكنة العسكرية البعيدة، وثمة فراغ كبير بين المنازل وحافة النهر وضوء ينبعث بصورة خفيفة.

وقف محمود بك وهو راكب على جواده الأطهم، على سرجه التتري الجميل، ويمسك العنان الجلدي بيده، وقد أحاط به أنفار الجندرمة بطرابيشهم وشواربهم وكروشهم وبنادقهم القباغلي والمرتيني ذات القسطورة، بعد ذلك تقدم نحو الجموع، فحدث أمام عينيه مشهد لم تألفه الدولة العثمانية من قبل: مشهد الرجال الذين ما أن سمعوا بكلمة سفر برلك حتى زحف بعضهم تحت سيقان الجياد، انطرح بعضهم تحت عجلات العربات، لقد أخذوا يقفزون مثل القرود التي جلبها محمد فاضل الداغستاني بأقفاص في باب المعظم، أخذوا يهرولون، والجندرمة وراءهم يركضون، وحين يلقون القبض على أحدهم، فإنه يضرب على رأسه وهو يصرخ، أو يسقط على الأرض وهو يبحث في التراب مثل الدجاجة، يقول أنه أصيب هذه اللحظة بالقولنج.

*

على حائط كل جادة وفي كل محلة وعقد، هناك إعلان السفربرلك بالتركية ملزوق على الحائط:

(سفر برلك وار- عسكر أولانلر سلاح باشته).



وفوقها صورة الطوب والبندقية.

أخذ محمود بك يسير هو وأنفار الجندرمة الذين يحيطون به جماعات، جماعات، يدخلون الأزقة والجادات والجوامع وعقود المحلات ويداهمون المنازل والخانات لمطاردة الهاربين من السفربرلك، أو من الزجري. وقد أدرك أن الحمير والبغال المربوطة أمام البيوت، وفي الأزقة، والمحلات أصبحت تعرفه من طربوشه وسوطه وملابسه اللائقة عليه، تعرفه، وتعرف الجندرمة ذات الطبل والتي تحمل فرمان السفربرلك.

تهرب الحيوانات حينما ترى محمود بك وهو يدخل جادة أو بازارا، حتى الخيول والجمال والخراف والديك الرومي الذي يسميه أهالي بغداد علي شيش تركض هاربة أمامه، يدخل محمود بك إلى الاصطبلات بعنف، يكسر أبوابها الخشبية ويندفع إلى داخلها، يقلب شوالات التبن ويأخذ كل ما يستطيع الجندرمة حمله، يأخذ حشية الفرش، يأخذ الخيول، والحمير، والجمال، والسروج، حين يدخل لا يترك وراءه سوى فرقعات السياط، وخفق الأبواب وهي تصلصل، والسروج المخلوعة، وضربات العصي، وطعن السيوف للذين يقاومونه.

لقد فقدت الجندرمة الحماس أول الأمر معه، ذلك لأن محمود بك يأخذ كل شيء للميري ولا يترك لهم شيئا يفيدون منه، ولكن بعد أن ضعف الميري وتعب محمود بك من التحميل والتنزيل، عاد نشاط الجندرمة لسلب الجمهور كل شيء مرة أخرى، كانوا يأخذون كل شيء نافع ويقيدونه على الحكومة، ثم يعودون لبيعه مرة أخرى على المتاجر، أو أخذه إلى منازلهم:

قال رئيس الجندرمة لمحمود بك:

(من غير المعقول أن نجمع كل شيء للميري.. ونحن لا نأخذ شيئا.. رواتبنا من شهور أوقفوها.. وبأيدينا كل شيء.. والحكومة



تغض الطرف إذا سرقنا.. لأنها هي سرقتنا أصلا ولم تعطنا الرواتب.. وليس من مصلحتها تحاسبنا..).

قال أحد الجندرمة:

(نجمع كل شيء للميري.. وإحنا نبيع سراويلنا وملابسنا حتى نأكل).

*

في شهر رمضان، قبل الفطور، دخل محمود بك مع مجموعة من الجندرمة محلة سيد سلطان علي، أخذت أصوات طبول السفر برلك تقرع بقوة، أصبحت الدقات المخيفة متلاحقة، كان الرجال قد اختبئوا جميعهم في منازلهم، النساء والأولاد يتفرجون من فوق السطوح، بعض الشطار والأشقياء أخذوا يتباهون بشجاعتهم، أخذوا يصفقون من على السطوح، كان التصفيق يزداد حماسة، بعضهم أخذ يصفر صفرات متوالية، وحين وصل محمود بك رأس الزقاق، فجأة، رمى بعض الأشقياء والشطار على وجهه ووجوه الجندرمة الذين معه البسط القذرة وكسر الطابوق، فأخذ صخب الجمهور وضجيجهم يعلو، وقد حمت دماؤهم من الصياح والشتائم، وكل واحد منهم يصرخ على الآخر.

(سفر فرلك.. سفر هربك... سفرعلك).

*

دخلوا محلة قنبر علي سرا هذه المرة، بعد الفطور كان باعة الباجة والكبدة يصيحون بصوت عال (باجة.. باجة... كبدة).

كان الأطفال يلعبون على نيران المشاعل الموضوعة على الملاعب المستديرة، خبطات ألعاب حديد، دوران الدخان في الحلقات المستديرة، وبعض الفتيان يلعبون الزورخانة على صوت جوزة منبعثة من سطح سليم دنو الكمانجي، وهناك أصحاب الملاعيب والجنبازية يقفزون السقالات، وقريبا من منزل عبد العظيم الجميل كانت الست سكينة



الضريرة المصرية التي اصطحبها والدها إلى باب الشيخ تمر من هناك، تردد المدائح وتقرأ سورا من القرآن، يصطحبها حشد من الأطفال الصغار الذين يرتدون الطاقيات البيض على الرؤوس والجلابيب، والنساء اللواتي يرتدين الأزر والعباءات ويضعن على وجوههن قماشا من شعر الخيل أو من اليازمة، كان الأطفال يحملون الشموع الطويلة في الصحون، والنساء يوزعن الآس والحناء على منازل العقود، بينما تحمل الموسرات الطعام للفقراء، فجأة رأى الجمهور المنشغل برمضان فصيل الجندرمة بقيادة محمود بك وقد دخلوا عليهم من الزقاق، فانشطرت الحشود أول الأمر، وبعد ذلك هرب كل واحد منهم باتجاه، وهم يصرخون ويصيحون.

انقلبت عربات الباجة والتشريب والكبدة على الأرض، موجات متلاحقة تصطدم بموجات وتنقلب على الأرض، لقد سقطت المشاعل على العربات، ما أن يمسك الجندرمة أحدهم حتى يقفز الآخرون مثل البهلوانات، يخلعون الجراويات، والكلاوات، والطراطير ويقفزون مثل أصحاب الشقالب والجنبازية، ينط واحد من هنا وينط الآخر من هناك، وكانت النساء الواقفات فوق السطوح يرصدن تحركات الجندرمة، ويصرخن بأعلى أصواتهن:

(عباس... الجندرمة عند بيت خديجة.. إطفر..).

(سلمان... رجب... سفر برلك).

والست سكينة الضريرة تصيح:

(.. مالكم يا ناس.. يهو... إيه اللي جرى الكم...).

*

قفز نفر الجندرمة على أحدهم بكرشه الكبير وشواربه المفتولة وأمسك به، سقط قلباغه على الأرض، هبط بنطلونه الواسع من كرشه، ذلك لأن المقبوض عليه كان يصرخ ويقاوم ويجرجر بنفسه مثل مجنون، طلب النفر مساعدة من الآخرين المنشغلين هم الآخرون بمطاردة



الهاربين، طلب منهم -على الأقل -أن يرفعوا له بنطلونه، لأنه لا يرتدي سرولا داخليا، وحين وصل بنطلونه إلى الركبة وانكشفت مؤخرته ضج الصاعدون على السطوح بالضحك وأخذت النساء تهلهل، وأخذ الشقاوات يعفطون عفطات طويلة ومنغمة، وحين رفع النفر بنطلونه بكلتي يديه هرب المقبوض عليه، فرمى النفر بنفسه عليه بكل قوته، ولكنه انفلت من يديه القويتين، ولم يترك بيده سوى مزقة من جلبابه.

أمسك الجندرمة بعدد منهم في رأس الزقاق عند بيت عبد العظيم زادة المختار، وتكوموا عليهم بالعصي والسيوف والأسلحة، وقد خلع محمود بك طربوشه الأحمر ومسكه بيده وهو ينفخ، وقد تمدد أحدهم على الأرض وهو يصرخ، يمسك بطنه بيديه ويصرخ، كان يتلمس الأرض تلمسا، يبكي وهو يصيح أن بطنه تتمزق، وقد أصابه (أبو زوعة).

شخص آخر انهارت قواه تماما، صدره مبسوط على الأرض ويداه تضربان، وأذرعه تمتد منقبضة مفتولة، فيسأله محمود بك (ما بك..).

يجيب عنه الآخرون بأنه: (بيه جن براسه).

أما الهادئون منهم فكانوا يبكون ويتوسلون ويقولون أن لهم أطفال وعيال، وشخص يقبل يد محمود بك وهو يقول له أن أباه مات، وأمه ميتة، وهو متزوج ثلاث نسوان، وهو يعيل زوجة عمه التي مات زوجها في حرب القفقاس، وزوجة أخيه وأولادها الذين تيتموا بالفيضان...

(لا.. لا أنتم مسلمون... والجهاد فرض عين عليكم... الخلافة في خطر... شوفو ملك ألمانيا صار مسلم... وهو الآن يجاهد بأمواله وسلاحه في سبيل الإسلام..).

*

لقد جمع محمود بك هو وفصيل الجندرمة عددا كبيرا من الجمال والحمير والخيول والبغال والدجاج وعلي الشيش ومجاميع كبيرة من



الطيور الداجنة بعد أن هدم أبراجها من على السطوح، وجمعها بأقفاص من الجريد إلى الميري، كما أنه أخذ المطيرجية إلى السفر برلك، واعتبرهم من المجاهدين، وقد جمع الشحاذين والصعاليك واللصوص وأبناء الفقراء والسقائين والمكارية والسوقية والباعة وحتى الأولاد الصغار.

*

ثمة خرائب صامتة في كل مكان، وبغداد لا تكترث كثيرا بالإمبراطوريات التي قامت على تربتها، هذا هو صيفها الذي لا يقهر، وهناك عبق آلاف النباتات الصحراوية تحت سمائها العارية، مقابرها تكسوها الورود، وشعاع شمسها يدوم بين أكوام القبور، بغداد نائمة في الظهيرة، وهذه الحياة التي تنبعث كل يوم من خرائبها، هذه الحياة التي لا تقهر هي التي شيدت مشهد الحب لعاشقين جالسين في ظلال سدرة وسط المقابر:

كان محمود بك يسير في الظهيرة على جواده، لحظة وقد سمع همسهة وسط المقبرة قرب شريعة النواب، توقف، هبط من جواده ورفع رأسه من فوق السور، كان هنالك عاشقان يجلسان على مرمر أحد القبور، كانت الفتاة ترتدي خمارا شفافا بلون أخضر فاتح يكشف عن عينيها اللتين تفيضان بالحب للشاب الذي يرتدي عرقشينا على رأسه ودشداشة بيضاء، وقد تحزم بحزام من الجلد العريض، كانت عيناها متوقدتين وهائمتين بحلم أبدي بينما كان هو يطرق بخجل أمامها، كانت تنظر نحوه من تحت خمارها وتتفجر في داخلها رغبة عاتية، رغبة واضحة وبيضاء وكأنها تقفز على جسده لتتمسك به، كانت تنظر نحوه وهي ذائبة وحين تلتقي عيناها بعينيه يشعر بعصفور بين ساقيه يغرد.

لحظة حدس محمود بك أن هذا الشاب اليافع والقوي والمغرم يفيد أكثر للسفر برلك مما هو عليه الآن، يفيد للحرب للمعارك والقتال أكثر مما يفيد في هذه المسخرة، أكثر من هذه العطالة والبطالة التي لا تنفع



سوى أن يتيه تحت هذه الظلال السعيدة العذبة، هذا الجسد اليافع والقوي وهذه العضلات المفتولة تفيد في قتل الأعداء أكثر مما تفيد في إطفاء رغبة معشوقته المتوهجة والمتهيجة، تفيد أكثر في طعن صدور الرجال بعنف، وتثقيب بطونهم بالطلقات ليفجر الدم الأحمر على ملابسهم، من أن يفتح ساقي معشوقته على القبر وهي نصف عارية، ويطعنها برقة وهي تشهق من اللذة ليتفجر فيها سائلا أبيض ويبقع ملابسها، كان عليه أن يتلفع بمعطفه الكاكي ويخوض في أهوار الجنوب بدلا من أن يرفع جلبابه إلى وسطه وعرقشينه على رأسه ويسبح في جسدها، تحرك محمود بك بهدوء إلى جواده وهو يقاوم انتصابه، سحب سيفه من السرج، فحمحم الحصان، انتصب هو الآخر، صهل وأكدف وحمحم، وحين سمعت الفتاة حمحمة الحصان رفعت رأسها، وتمكنت من أن ترى من وراء الموسلين الشفاف الذي يغطي وجهها وجه محمود بك المطل من وراء السور، فصرخت:

(سفربرلك..).

فز الشاب من مكانه، نهض، قفز بسرعة فسقطت عرقشينته على القبر، استدار برشاقة وأطلق ساقيه إلى الريح، التقطت الفتاة عرقشينته وهربت من باب المقبرة. أدار محمود بك حصانه المتهيج جهة قنبر علي وهو يشعر بانتصابه وسار.

*

في الصباح هبط محمود بك من برج القشلة همايوني، كان قد سمع من أحد ضباط الجندرمة أن الإنكليز دخلوا البصرة، وتقهقر الجيش العثماني هناك، وقد وضع الوالي كرسيه على النهر وجلس دون أن يعرف ماذا يفعل، قال له الضباط أنهم بحاجة ماسة إلى جيش كبير يصد هجمات الإنكليز، حتى وإن لم تكن هنالك مؤن أو عتاد أو ملابس، وهم بحاجة إلى من يحفرون الخنادق والسوبيرات لكي يوقفوا زحف الكفار.



ذهب محمود بك هو ومجموعة أخرى من الجندرمة ليجمع للميري من المحلات الأخرى:

من السنك، ومن باب الشيخ عبد القادر، ومن سوق الغزل، ومن كنيسة اللاتين، ومن صبابيغ الآل، ومن آت أغاجي، وعقد النصارى، وخان الأورطمة، والمولى خانة، ومروا بالدنكجية، ودخلوا إلى القشلة، جمع كل ما يمكن جمعه: طناجر، كفاكير، قنبات، شوالات تبن من الاصطبلات، وسائد، محامل، جوارب نساء، حمالات نهود، ملابس أطفال، معاطف عسكرية بقيت عند الذين خدموا بالزجري في حرب القفقاس، كانت الحيوانات أسوأ حالا من الرجال، فقد تعرضت للضرب، وقد مزق السياس مؤخراتها بالسياط حتى أصبحت عاجزة عن الوقوف، هنالك بقرة بقيت تروث في الساحة، وقد ركعت على قوائمها الخلفية، وأخذت تخور، فقام محمود بك بنحرها قبل أن تموت، وأعطاها للطباخين كي يطبخوها ويقدموها إلى الضباط، وكان هناك حمار عظامه بارزة، وهو يتضور جوعا، وسرجه عبارة عن لحاف قذر ومتهرئ، وكانت قوائمه هزيلة، ولم يكن قادرا على النهيق.

وفي وسط الساحة وقف على رأس عبيد الله التركماني القادم من تلعفر وهو يفحص فراخ الدجاج التي صادروها من الناس، يمسك فرخ الدجاج بيد ثم يضع إصبعه في مؤخرته، فيعرف إن كان ذكرا أم أنثى، ثم يرميه في الصناديق التي قسمها قسمين، وغالبا ما يسقط فرخ الدجاج في الصندوق نافشا ريشه، وقد فرش جناحه على جهة بينما تبقى مؤخرته تومض بصورة متواصلة.

*

وقف محمود بك في ساحة القشلة همايوني وقد نزلت قطرات العرق من حز طربوشه إلى أنفه، وقف أمام مجموعة من الجمال التي ساقها الجندرمة من البدو القريبين من بغداد ومن الجوبة ومن المسلخ القريب من الكاظمية.



كانت الجمال مسعورة لأنها شعرت بأنهم سيأخذونها للمسلخ، وكان هناك جمل أعور، وأعرج، أخذت دموعه تسيل على خديه، فصاح محمود بك على مجموعة من الجندرمة، وعلى اثنين من بكجية باب الثكنة، ونفر من فصيل الألدشية ليربطوا البعير بحبل، ثم ناولوه الحبل نفخ بيديه خلع طربوشه، وحاول سحبه بقوة، إلا أن البعير أخذ يزمجر ويشحط بأقدامه على الأرض، ثم حاول أن يثقب له أذنه بمثقاب كبير، وقد ربط بها حبل وحاول جره، إلا أن أذنه انخرمت، وامتلئ الحبل بالدم، وحين يأس محمود بك، دفعه إلى الساحة المبلطة بالطابوق، وأمر أحد الأنفار بربطه بعمود حديدي في السياج. ثم قال لهم محمود بك بعد قليل:

(اتركه ما نريده..).

غير أن الرجال الذين جاءوا بهم إلى السفر برلك، والذين وقفوا في الساحة، اعترضوا على قرار محمود بك بإطلاق سراح الجمل، قالوا:

(لا... لو نروح كلنا للسفربرلك... لو ما نروح... ما يصير على ناس وناس).

كانوا يعتبرون إطلاق سراح الجمل، وأخذهم إلى السفر برلك أمر خال من العدالة، كانوا يعدون هذا الأمر ظلما، لذلك فغر محمود بك فمه وهو ينظر إلى هذه الجرأة والتحدي الذي لم يتعود محمود بك و لا أي ضابط في الجندرمة العثمانية أن يراها فيما مضى، وهنالك ما هو أكثر:

كان الشحاذون والمكارية والشقاوات وأصحاب الحرف والحوذيون يسألون محمود بك في ساحة القشلة همايوني:

(ليش تأخذونا إحنا... ليش ما تأخذون ابن الشابندر وابن الجادرجي وابن الخضيري).

شعر محمود بك بفزع أول الأمر، لأنه يدرك في قرارة نفسه إن



الضابطية العسكرية لا تنبع قوتها وصلابتها إلا من خلال هذا التراتب العنيف، كان محمود بك يدرك أكثر من أي وقت مضى أن مجرد التفكير بهذا الأمر هو تحدي لشعار السلطة العليا التي قامت على عسكرة الأمة من أوربا إلى آسيا، كان يعرف بغرائزه أن هذه العسكرة التي تقوم على الأوامر المطلقة والفرمانات المقدسة هي التي تحمي السلطة المطلقة وتمنحها السيادة التي لا ترد، فكيف يتساهل في هذا التراتب الذي يجعل منه مطاعا وقويا وسيدا، كان يدرك في قرارة نفسه أن هذا التراتب هو الذي يعطي للسلطة معناها وشكلها وسريانها ونفوذها، ولذلك كان يجد الأمر برمته غريبا وشاذا فكيف يرفع الشحاذ نفسه بمستوى أبناء الجادرجي، وأبناء الشابندر، وأبناء الخضيري، وأبناء عواد، وأبناء النقيب، وبيت كبة، وبيت غنيمة، وبيت كمونة، وأبناء الجلبي، والعوائل الكبيرة في بغداد من أسياد المسلمين والمسيحيين. فكر محمود بك بشيء آخر ذلك اليوم، فكر بأن القوة والسلطة هي نوع من أنواع الفرجة، لذا عليه أن يفتح هذه الفرجة أمام جمهور من النظارة لمراقبتها ومن ثم التدليل على سيادتها:

سار محمود بك في الساحة وسط طوابير المسفرين وبيده عصا التبختر، كان يهز بها يمينا وشمالا، وقف أول الأمر وقد رفع رأسه للأعلى، ثم صرخ على الجندرمة فتجمعوا أمامه وقد أحنوا رؤوسهم، دار عليهم وهو يوجه انتقاداته الحادة لملابسهم وكروشهم وشواربهم، وحين أكمل دورته هز عصا التبختر في وجوههم وأمرهم بتفتيش المسفرين بحثا عن الغروش لمصادرتها لصالح الميري، ساد صمت جاد ورزين ومخيف على وجوه المسفرين، وقد جمدهم تماما في وقفتهم، وهم ينظرون السلطة القوية والحازمة وهي ترفع عصا التبختر وتتحرك أمامهم.

هرع الجندرمة نحو طوابير المسفرين وأخذوا بتفتيشهم، ونكت ملابسهم قطعة قطعة، مدوا أيديهم في جيوبهم، وتحت عرقشيناتهم وكاورياتهم وعمائمهم وطرابيشهم وغطراتهم، مدوا أيديهم حتى في



ملابسهم الداخلية إن كانوا يلبسونها، وإن لم يكن ذلك فعلى المسفر أن يرفع دشداشته إلى صدره ويدور عار أمامهم.

وقف محمود بك أمام شحاذ يدعى حنش، حنش المعروف بجنونه وملابسه المهلهلة وصدره المفتوح ليلا ونهارا، حنش المعروف بشعره المشعث ويده المشلولة، وفمه الذي يتلوى بصورة كريهة، حنش الذي يجلس في مقدمة السوق ويشتم كل من لا يعجبه، وقبل أن يصل الجندرمة الذين يتقدمهم محمود بك وهم يفتشون المرحلين للسفربرلك إليه وضع الغروش في فمه وراح يلوكها، كان يحولها من الجهة اليمنى إلى الجهة اليسرى، ومن الجهة اليسرى إلى الجهة اليمنى.

وقف محمود بك أمامه وهو يلوح له بعصا التبختر المحززة والمرصعة بالمسامير النحاسية الكبيرة، قال له بصورة هادئة وماكرة وهو يكز على أسنانه:

(حنش... ذب الغروش من حلقك..). رفض، وقال بإصرار:

(بك والله ماكو غروش...).

قالها بصعوبة، ذلك لأن فمه الذي كان يتلوى مملوء بالغروش، وهو أمر طبيعي لكل شحاذ في بغداد أن تمتلئ جيوبه بغروش التجار في رمضان، لأنهم يستغلون رمضان للتكفير عما يرتكبونه طوال العام من ابتزاز ومضاربات وغش، وهم يعدون هذا الأمر صفقة أو تجارة رابحة، بغروش قليلة إلى حنش يكسبون جنة ثمينة، كانوا يعدونها صفقة من صفقاتهم ومكسبا يأتيهم فيما بعد، إذن كان محمود بك يعرف أن غروش التجار في فم حنش، فقال له:

(ذب الغروش أحسن إلك..).

(والله العظيم ماكو غروش...).

أمسك محمود بك حنش من مقدمة شعره بيده اليسرى ولوى عنقه،



وبعصا التبختر هشم له أسنانه الأمامية فظهرت الغروش لامعة من بين تثلمات أسنانه المهدمة، بكى الشحاذ، وقال:

(لو كنت ابن الشابندر... لو كنت ابن الجدة... لو كنت ابن الجادرجي... لو كنت ابن الخضيري... هم تكسرون لي أسناني وتأخذون غروشي وتسفروني للسفر برلك).

جن محمود بك من حنش، جن من حس المقارنة الذي يمتلكه الفقراء، كيف يقارن شحاذ نفسه مع أبناء التجار والجلبية وفمه مملوء بغروشهم، ثم أن كبار التجار والبزركانية والميرزات والشابندرات والكمونات والجدات والخضيريات والصابونجيات والكبات قدموا كل التسهيلات لجيش الدولة السنية، أما الدعايات التي تلوث سمعة التجار فهي باطلة، وحين كان يسمع من العامة أن عبد القادر جلبي الخضيري كان يؤيد الإنكليز ويفرح في قلبه لو انتصر جيش البريطانية، كان يقول مستحيل... مستحيل وناظم باشا يسكن في قصره المطل على دجلة قرب الدبخانة، حين أصبح واليا على الخطة العراقية.

أما ابن الشابندر وخليل باشا فهما أصدقاء تجارة، بل كان ابن الشابندر يشغل الباشوات في التجارة، فهل تكافئ الدولة السنية هؤلاء بأخذ أولادهم إلى السفر برلك، مثلهم مثل الفقراء؟ السفر برلك للفقراء، والفلاحين، والعتالين في البازارات والأسواق والعلوات، للشحاذين قرب جامع الحيدر خانة وجامع الخفافين وجامع الآصفية، للعاطلين في محلة الصدرية وسراج الدين، للمكارية والحوذية في الميدان وباب السلطان وكارو الكاظمية وباب الشيخ، للطرزية في خان الباشا، للصفارين والنجارين في خان الكهية وسوق الأسكجية، للشقاوات والجنبازية والزورخانجية وجلاس القهوخانات، للعمال والإسكافية في سوق اليمنيات، فقراء لا خير فيهم سوى تسبيب المشاكل للدولة السنية، للتجار والجلبية، وتعكير الأمن والنظام أثناء الحرب، والمشاركة في أعمال النهب والسلب، والثورات والاضطرابات، قال محمود بك:



(ما منهم نفع. . . إحنا نفعناهم. . . أخذناهم ليكون لهم شرف الحرب. . . ضد الكفار. . واللي يموت راح يكسب الجنة. . بسببنا طبعا. .).

*

ضحى يوم الخميس، سارت قافلة السفر برلك أمام سرايا الباشا، كان محمد باشا الداغستاني والي بغداد واقفا أمام طابور المسفرين، ومن بعيد كان طابقور العربات يشكل مربعا في ساحة القشلة همايوني، وعلى يمين ويسار الطابور سار الألدشات القلينيجية وهم مشاة السيوف، والتفكجية بالبنادق القبغلي، والبكجية الحراس بالقساطر البيض الطويلة، والجندرمة وهم يرتدون القلباغات المصنوعة من الفرو الموبر.

وقف محمد فاضل باشا الداغستاني في الشمس والمظلة البيضاء رفعها عبيده وحراسه الشيشان وراءه، لقد كانت رمزا للسلطة العليا، ووقف إلى جانبه شيخ الإسلام بلحيته الطويلة المربعة والمفروشة على صدره، وعلى يمينه وقف كبار الضباط والجندرمة، ومن الجانبين وقف الدرك، وفي الأمام سارت قافلة السفر برلك بحمولاتها من: صناديق البساطير والأحذية، والملابس الكاكية والمعاطف القديمة، ومؤونة الجيش من القلاطة اليابسة وخبز البقسماط التي حملوها في عربات الكارو، وعربات اللاندون، كان الباشوات والتجار قد تجمعوا أمام السراي ببرانصهم القانية والمزخرفة، وانتشر كبار الضباط بالبذلات ذات الألوان الصارخة الناصعة وهم يحملون الأسلحة البراقة واللماعة، وبالقرب من مظلة الباشا رأى محمود بك وفودا من استنبول يعتمرون الطرابيش والعمائم التي تشبه الأقماع ويتسلحون باليطغونات والكونجيرات.

سارت القافلة يتقدمهم محمود بك على حصانه الأطهم في متاهة الأزقة الضيقة، والأسواق المهملة القذرة، والخانات، والبازارات، حتى عبروا بغداد من باب السلطان الذي تثلمت جوانبه، وعند القلعة القديمة



قرب الثكنة العسكرية كانت الأشجار الضخمة، وأشجار الدلب والسرو تحيط بالأكشاك وسرادقات الحراسة، وقبل الوصول إلى الكرنتينة حيث المحجر الصحي مزدحم بالمرضى، كان كبار التجار العرب يجلسون في المقاهي على التخوت، يدخنون النراجيل ويشربون المصطكي الإستنبولي الأبيض، ومن أمامهم تمر قوافل الجمال المحملة بالهوادج، ومعها نساء محجبات بالعباءات والإزارات الملونة، وخصيان سود قادمون من استنبول تنبح خلفهم كلاب الصحراء الشريدة.

وقبل الوصول إلى محطة ترام الكاظمية لترحيلهم، اجتازت قافلة المسفرين إلى السفر برلك الهضاب الصخرية المترامية الأطراف والتي تتصل مباشرة بالصحراء من الجهة الغربية، وتتصل بالبساتين والأراضي المعشبة الخضراء من الجهة الشرقية، وفي الطريق الأبيض الذي يخترق التلال كان نقع التراب يرتفع إلى الأعلى، هناك سمع محمود بك صرخات الذئاب، وأصوات ابن آوى قادمة من الصحراء البعيدة، ومن جهة البساتين كان النهر ينساب مثل أفعى، وقصور التجار مشيدة على الضفاف بأبراجها الحجرية العالية، وواجهاتها القاشانية المذهبة، وأبوابها الفخمة، وقد رست عند مسناياتها المشجرة الزوارق الصغيرة لتي تسير بالمجاذيف، أما المدينة الكبيرة فقد بدت خلف الأسوار مهدمة، موحشة ببازاراتها العتيقة، وشناشيل منازلها المخربة، وأورسياتها المشبكة بالقضبان، وكانت منارات الجوامع الزرق قد شحبت، وقببها تآكلت، واجتاحها فضاء محزن، وكان المسفرون قد تعبوا من المسير وقد تبعتهم ضجة من النساء الملفعات، والأطفال الباكين، والكلاب، والحمير الصغيرة.

توقف محمود على جواده هناك وهو ينظر إلى السور البعيد فرأى بعض العرب وهم يمرون بعباءاتهم المخططة، وجنودا يتسكعون مترنحين، يعبرون السور ويدخلون المدينة.

*



عاد محمود بك مع فصيل الجندرمة إلى بغداد.

بغداد مدينة خالية... كأنما أصابها البرصام، فقد هرب الجميع من السفر برلك، لقد هرب من المدينة جميع الرجال، وقد ظهرت علامات الطاعون عليها، وسارت الجنازات إلى المقبرة لا يركض خلفها سوى الأطفال، أما كبار السن فقد قعدوا في القهاوي دون أن يعبئوا بشيء، ولم ينهضوا من مكاناتهم إلا بعد أن دخل الططرية، أو سعادة البريد الموكلون بقراءة الفرمانات، بغداد، دخلوا على جيادهم النشيطة هم يرتدون قفاطينهم التترية المميزة وطراطيرهم اللباد، وكان المحل الذي نزلوا به ليغيروا جيادهم هو منزلخانة سراج الدين، وقد ضربوا السروجية هناك بالسياط، وقتلوا خيلا كثيرا، ثم شنقوا الموكل بالمنزلخانة لتأخره في إعداد الخيل، وقد جمعوا الناس في المحكمة الشرعية وقرءوا عليهم الفرمان همايوني، ثم طالب الططرية التجار والجلبية بأجرهم الذي كانوا يطلقون عليه خدمت مبشرية.

*

ألصقوا على حائط كل جادة وفي كل محلة وعقد إعلان السفربرلك بالتركية:

(سفر برلك وار- عسكر أولانلر سلاح باشته).

وفوقها صورة الطوب والبندقية.

كان الفرمان يقضي جمع أعداد كبيرة من الرجال ومن كل الأديان لتسفيرهم إلى السفر برلك، كما أنه يقتضي الكثير من المؤن اللازمة للجيش، وعدد غير محدد من الحيوانات، ومن الأدوات، والحاجيات للميري، ما كان يهم محمود بك أو الجندرمة بالدرجة الأساس هو الميري، فقد دخلت فصائل الجندرمة وعسكر القشلة وحرس السراي وفصيل الجندرمة المكلف بجمع الميري والسفر برلك جميع الخانات في بغداد تقريبا، جميع الأسواق، جميع المحلات، جميع العقود، جميع



المتاجر، دخلوا كل جامع وكل بازار لجمع ما يحتاجونه هم أيضا.

أول بازار دخلوه كان بازار سمعان القريب من كنائس الكلدان والسريان، وقد استحوذوا على البابوجات المصنوعة من جلد الماعز، والأحذية الخفيفة المصنوعة من القطيفة والبروكار والنسيج المقصب بالحرير، وقد حملوا مجموعة كبيرة من المداسات المزركشة بالشذر، والمقصبة بالجدائل، كان العبيد الصغار، والأحباش النحاف، والمسنون، والمرضى، يتفرجون عليهم بحذر شديد، والنساء ينظرن إليهم من وراء بوشياتهن السود الموضوعة على وجوههن، بحسد شديد.

بعد ذلك دخلوا إلى محلات القصابة في سوق حنون، كانت جثث الخراف معلقة بالخطافات الحديدية وهي تقطر دما، كانوا يمدون أيديهم إليها وينزلونها دون أن يتكلموا مع القصاب، ويضعونها في العربة الكارو التي ترافقهم، ثم يرمون فوقها ركاما من الخرق والأسمال البالية.

مر محمود بك في الظهيرة على جواده برفقة خيالة الجندرمة من الحوانيت الصغيرة التي يملكها اليهود في خان الكهية، هبط من الجواد، دخل المتاجر وبيده السوط، أخذ يتخير منهم الجرار الكبيرة المصنوعة من الفخار، والأواني النحاسية المنقوشة، وحين دخل سوق البزازين صادر الحرير الذي يجلبونه من دمشق.

صادر ذلك اليوم كل ما حصل عليه التجار خلال عام، وهو كثير، فقد كانوا يرسلون الرسائل والبرقيات إلى لندرة ومانجسترة وباريز من البوسطة خانة التي أنشأها محمد زكي باشا قرب المدرسة الفاضلية، وكانت تأتيهم البضائع طرودا: أدوية، ورق سجائر، دانتيلا، مخرمات، عطور، زخارف، أقمشة حرير، وقد صادرها محمود بك منهم، وكان الجميع يعرف أن جميع التجار كانوا يعملون في المضاربات، مضاربات الحرب بمساعدة الباشوات.

*



كان محمود بك يعلم أن عمه يعمل في التهريب والمضاربات، وكان يعلم أن عقوبتها في الحرب هي الإعدام، ولكنه لم يكن مباليا بالأمر حتى أمره رفيق بك أن يقبض على عمه، قال:

(حاضر أفندم).

ذهب إلى منزل عمه الكائن في الكرخ، في أراضي استيفان كوشك، وحين دخل إلى المنزل هو ومجموعة من الجندرمة، قال لعمه:

(عمي أنت مقبوض عليك بتهمة التهريب والمضاربات).

(لا وال.. له).

(آني أنفذ الأوامر).

(بس استر علي.. الله يستر عليك).

(ما أقدر.. ما أقدر.. لو فيها مجال المسامحة كان سامحتك.. بس هذي أوامر عليا ونحن في حالة حرب.. وكل عمل من هذي الأمور.. هو خيانة عظمى).

(شنو.. خيانة عظمى).

(خيانة عظمى.. يعني خيانة عظمى).

(هذا يعني عقوبتها إعدام).

(نعم).

(بس آني عمك..).

(عمي.. خالي.. أنا عبد مأمور.. أنا كوجك سي.. ضابط صغير في الجندرمة.. لو كنت سلطان بقصر يلدز.. لو كنت والي السراي.. كنت عفيت عنك.. لأن إنت عمي وتقدر تسوي كل شي.. حتى لو سقت الناس مثل الحمير.. عندي سلطة.. ولكن إهنا الأمر مختلف.. أنا ضابط صغير كوجك سي في الجندرمة العثمانية...).

(عمي الله يخليك اتركني أفر.. وقل لهم رحت إلى بيته.. وما لقيته).



(لا عمي ما أقدر).

(أنت كوجك سي وتريد تعدم عمك... لو كنت سلطان أيش كان سويت).

(حتى السلطان شنق عمه.. شنق إخوانه على مصلحته).

كان محمود بك يقصد الرقاع الذي خطه محمد الفاتح (قانون نامة آل عثمان) والذي يناشد فيه السلطان خلفاءه أن يبدءوا ولايتهم بقتل أخوتهم، وقال محمود بك مذكرا عمه بقانون نامة:

(وهر كيمسه نه أولاد مدن سلطنت ميسرا وله قرندا شليرني نظام عالم أيجدين قتل أيتمتك منا سبدر).

وهو على كل واحد من أبنائي قتل أخوته حين يتولى السلطنة.

وبدأ محمود بك يذكر عمه بأبناء السلاطين الذين يحبسون في المقاصير، وفي القصور، ويحرم عليهم كل اتصال بالناس، كانوا يقضون حياتهم بصحبة عدد قليل من الخصيان والجواري والحشم، ذكره بمحمد الفاتح، ذكره بمراد الرابع الذي قتل ثلاثة من أخوته، ذكره وذكره، ولكن عمه لا يريد أن يقتنع فقال له:

(يعني من مصلحتك آني أنعدم).

(لعد.. أنت تقبل بأذيتي).

(لا ما أقبل بأذيتك.. ولكن أنت تريد أذيتي).

(أنا ضربتك على إيديك وقلت لك روح اشتغل بتهريب البضاعة والمضاربات.. واحنا في حالة حرب).

(هو بس آني اشتغل بالمضاربات.. حتى الباشا يشتغل بالمضاربات).

(الباشا شيء آخر. أنت تريد تساوي نفسك بالباشا.. والله حرنا وي هالناس.. الشحاذ يريد يساوي نفسه وي أبناء الجلبية والتجار.. وإنت تريد تساوي نفسك وي الباشا).

*



حدث ذلك أول الصيف، كان زقاق بيت عمه مظلما تماما وقد وقف الجندرمة هناك، وكانت فسحة الباب بين الحرم والأورسي معتمة، وكانت شعلة اللمبة تتماوج وتخفت بلونها الأصفر الذابل، وقد شعر محمود بك بأنفاس عائلة عمه خلف الباب تصعد كلما يشتد الحديث بينهما.

كل عيد يذهب إلى منزل عمه الكائنة في أراضي استيفان كوشكي.

يذهب إلى الساحة القريبة من الشيخ صندل، يصعد عربة التخت روان، يضع رجله على الخشبة، ويجلس بين صرار وبقج الفلاحين، بين أقفاص الدجاج، والخراف والماعز المحمولة، بين سلال الخضار الخشنة الداكنة، يضرب الحوذي بسوطه الخيول فتسير عربة اللاندون في سوق العجمي، يهبط بعض البقالين ويصعد آخرون، ثم تسير العربة إلى الشواكة والكريمات، يهبط بعض الأفندية ويصعد الفلاحون الذين يبيعون الخضرة في تابية الكريمات، يصعد الصيادون والكرابون والحراثون، ثم تسير العربة وتمر بالأراضي الزراعية والبساتين لقدري الأرضرملي، وحاج أمين، وحاج انصيف ياغي، وكاظم السهيل، ثم يكون في بساتين استيفان كوشكي.

*

تذكر الزقاق الذي يمر بالقرب من البساتين، تذكر السفن الشراعية التي تمر والتي يسميها الأتراك يلكن كميسي، تذكر عمه وهو يرمي الشباك إلى النهر، وحين تهبط إلى الأسفل يشمر أكمامه عن ذراعيه المفتولتين، ويسحب السمك بلون الدخان، وهو يتلوى ويتقلب على بعضه.

قال للجندرمة: (أوثقوه..).

فهجم عليه الجندرمة وأوثقوه بالحبل ووضعوه على الجواد، قال لعمه:



(علي أن أوصلك للحبس خانة إذا كنت بريئا سيخرجونك وإن كنت مذنبا سيعدمونك).

قال عمه: (أعطيهم رشوة كبيرة.. إذا يعفون عني).

(أسأل رفيق بك.. إذا قبل البرطيل.. تخرج من الحبس خانة إنشاء الله لئن أنت عمي.. لو غيرك ما أقبل).

*

شارع ضيق قرب خان الكهية، ثمة منزل فخم مشيد من الحجر يقطنه أحد الدبلوماسيين الألمان بالقرب من باب الأغا، أمام بابه الخشبية عتبة من الرخام ممسوحة، جلس عليها شيخ جليل، أمامه امرأة بملابس سود، وعند أطراف عباءتها غبار أبيض، كان واعظا جاء به الألمان من سميرن كي يوزع كتبا تتغنى بالأمة الألمانية، وتذم الأمة البريطانية، وتقول أن غليوم أصبح مسلما. سار محمود بك دون أن يزعجه طالما هو بكفالة الألماني، فقد بعث الألمان بمئات الشيوخ إلى بغداد يحرضونهم على الجهاد ويشرحون لهم إسلام ألمانيا.

في الطريق إلى باب الأغا، توقف على جواده أمام منزل صغير، نظر إلى الداخل، كان ثمة رجل راقد على العتبة، مغطى بملاءة مصنوعة من خرق ملونة قديمة وهو يسعل، كان الرجل أصفر اللون، وشاربه الكبير مصفر، ووجهه مليء بالتجاعيد، يبيع هو الآخر كتبا عن الجهاد، لقد عرفه إنه الشيخ عبد الهادي الضرير الذي كان يسكن جامع عبد القادر الكيلاني، عبد الهادي الضرير الذي فقأ السلطان عبد الحميد عينيه، وقد كان كاتبه الذي يملي عليه الشيخ وهو يكتب، حافيا، أمسك شبشبه بيديه، نفض عنه التراب، وصار أمامه مباشرة:

(هل لديك ترخيص بتوزيع كتابك)

(لا..).

(خذوهم..) أشار محمود بك إلى الجندرمة.



وقف كاتبه وهو يبكي:

(نحن خدام السلطنة. . نوزع هذا الكتاب مقابل قليل من المال. . نتبرع به للميري. .).

قال نفر الجندرمة: (نتركه. . بك).

صرخ البك بوجهه:

(أنا. . ضابط صغير كوجك سي في الجندرمة العثمانية. . كل شي حسب الفرمان).

سار فصيل الجندرمة نحو القشلة همايوني بطابورين متناظرين يتقدمهما محمود بك، وسار بينهما الشيخ الضرير وكاتبه. كان الشاب نحيفا ووجهه أسمر، وقد وضع عمامة صغيرة على رأسه، وكانت ملابسه بسيطة وقذرة، بينما كان الشيخ يمسك بيده قرآنه، وباليد الأخرى صندله وهو حاف، وقد نبحت الكلاب عليهما حين خرج فصيل الجندرمة من الجادة، وأخذ الأولاد الصغار ينظرون إليهم بخوف شديد، واصفرت وجوه الناس حين حجزتهم خيول الفرسان على حائط الزقاق، وهرب أصحاب الحمير والبغال والكدش التي كانت تعمل عند طاحونة سيد سلطان علي.

وفي الطريق واجهتهم عربة كارو محملة بالطسوت والطناجر الكبيرة والقلل المملوءة بالزيت وأكياس الطحين والدجاج المذبوح، فأخذوها معهم إلى الميري، وأخذوا صاحبها للسفر برلك وأطلقوا الصبيان بعد أن جعلوهم يخلعون أحذيتهم السختيان.

*

في القشلة همايوني، وصل طابور ممن ألقى الجندرمة عليهم القبض:

شقاوات، فلاحون، طرزية، جالغجية، دراويش، شحاذون، رهبان، جواهرجية، مزينون، حمالون، وقف محمود بك وفرق بينهم،



أطلق سراح قسم منهم مقابل كمية من المال، وقسم وضعه في الحبس خانة، وقسم آخر جعله يفرك روث الحمير والجمال والبغال والخيل من أرض القشلة همايوني ومن اصطبلات السراي واصطبلات القلعة.

وفي الظهيرة بدأ الغداء، كانوا يأكلون الطعام الوسخ وهو عبارة عن كرات من الرز مغموسة بالمرقة وموضوعة بصحون تشبه النعالات الخشبية، أيديهم السود مغموسة في الطبق حتى المرفق، وكل واحد يغمس كرة الرز قبل أن يضعها في فمه، صورة الفوضى للجائعين وقد وضعوا رؤوسهم بالصحون وأخذوا يأكلون.

*

كان على محمود بك أن يرافق الألمان هو ومجموعة من الحرس البكجية، والألدشات القلينجية بسيوفهم، والتفكجية ببنادقهم المارتيني والقبغلي، من سامراء إلى بغداد، كان الألمان: علماء، قضاة، سادة كبار، ممرضون، وعاظ متجولون، ومستشرقون، جاءوا إلى بغداد ليبشروا بالأمة الألمانية التي صارت مسلمة.

سمع محمود بك حين كان في الدقتورلك أو عيادة القشلة: أن غليوم بك رأى النبي محمد في المنام وأخبره بالنصر، وقد وزع نذره في جامع أبو حنيفة، سمعها من مضمد الدقتورلك وهو يحدث الخفير الذي كان يجلس على الدوام قبالة الحبس خانة. كانت العقوبات الموجهة أزاء الذين ينكرون إسلام غليوم أو ممن يناصرون الإنكليز هي: بتر الساق، بتر القضيب، سمل العينين بقضيب محمر، أو جدع الأنف بالسكين، أو يسلمونه للحراس الخرس لخوزقته على منصة قرب باب السلطان، أو يجلسونه في حبانة كبيرة ثم يصبون الزيت عليه، بعد أن يحلقوا شعره.

*

خرج محمود بك مع جندرمة السفر برلك إلى البولنجية، كان هنالك صناع البرادع والسروج، والجلالات، وحدوات الخيل والحمير



قبالة السواحل التركية مثل شبح أسود، وقد سمع محمود بك، ذلك اليوم، من بطرس غنيمة تاجر الإيزارات في محلة رأس القرية وعقد النصارى وآت آغاجي:

(الناس في أيك أوغلي.. استأجروا شرفات المنازل لمشاهدة الجيش البريطاني وهو يستعرض في شوارع استنبول..).

ولكن أسطول بريطانيا انهزم أمام الأسطول العثماني، وقرر أنور باشا إقامة الاحتفالات وتعليق الزينة في كل مكان، أمر بالطونانمة، طونانمة الانتصار، وقد أمر أنور باشا كذلك إقامة الطونانمة طونانمة الانتصار على الجيش الإنكليزي في الكوت، فسار محمود بك سعيدا وفرحا ذلك اليوم هو وفصيل الجندرمة ببساطيرهم المعوجة وكروشهم الكبيرة المحزمة بالأحزمة الجلدية العريضة، سار على جواده الأطهم المسرج وقد أحاط به بكجية القشلة همايوني بوجوههم الصارمة، وثلاثة من الألدشاتية في حراسة الباشا الذي حضر حفلة داود بن سوميخ بمناسبة الانتصار على الحامية الإنكليزية في الكوت، سار أمام الموكب الذي حيته جماهير العامة بحماس، ووقفت على الجانبين تصفق وتزمر وتهرج، بينما كان محمود بك على حصانه الذي يدربك في المقدمة وهو يصيح بصوته العالي آمرا الجماهير المحتشدة والتي تصرخ مثل المجانين، بالتنحي والابتعاد:

(دور... باش.. دور.. باش).

وحين وصل الموكب إلى القصر الكبير المطل على النهر، هبط محمود بك من على جواده الأطهم بسرعة بالغة، كاد طربوشه الأحمر القاني أن يسقط من على رأسه، بيد أنه تلقفه بسرعة بيديه الاثنتين، تحسس سيفه المستقيم ومسدساته الفرد إلى جانبه، وبندقيته المارتيني على كتفه، وقد شك بها القسطورة، ثم وزع الحرس بصيحات سريعة آمرة بعد أن هبطوا من جيادهم وانتشروا هناك، وقف بسرعة، بسرعة تحت الجوسق الخشبي المكعب الشكل، عند البوابة الخارجية الكبيرة،



وقد هرع سائس القصر الكردي ليأخذ الجياد إلى الحظائر، بينما دخل الباشا بهدوء، هو وعبيده السود وخصيانه وحراسه إلى القصر العالي المطل على نهر دجلة، على مقربة من قصر شعشوع.

دخل الباشا بوجهه الأبيض الذي لم تلسعه الشمس أبدا، دخل بقفطانه الموشى بخيوط الذهب، بنعله المصنوع من جلد الغزال، وبلحيته المصبوغة الحمراء، وقد سار عبيده وحراسه وخصيانه وراءه، وفي المدخل انحنى له رئيس الجندرمة، وانحنى له السرقمسير ورفع يديه إلى رأسه وخفضهما أكثر من مرة، انحنى له كل الوجهاء البلديين، من شابندرات، وجلبية، وبزركانية، وتجار، وشيوخ، ونقباء، ووكلاء تجاريين، وضباط أتراك، ما عدا العسكريين والدبلوماسيين الألمان الذين أدوا له التحية العسكرية، وقد اندهش محمود بك ذلك اليوم لأن أكثر الرجال قد ارتدوا الملابس الإفرنجية الأنيقة ووضعوا على رؤوسهم الطرابيش ما عدا الألمان الذين ارتدوا البرانيط الإفرنجية والبيريات، وارتدت النساء الملابس الأوربية الراقية على آخر موضة في لوندرة وباريز، ووضعن الأحمر على الشفاه، وعلقن في الأعناق المكشوفة، الحلي الذهبية المطعمة بالجواهر.

كان رزق الله نعومي أفندي هناك، يرتدي روندكوته الأسود، وطربوشه الأحمر مائل على جبينه، ويحمل بيده مذبة مصنوعة من ذيل حصان، وقد رآه محمود بك للمرة الأولى هو وزوجته زكية بنت يوسف شماس، بفستانها الطويل المخصر والموشى بالترتر الذهبي، وبيدها المهفة المنقوشة، وقد وضعت على رأسها إيشاربا دون أن تلفه إلى عنقها، وارتدت خمارا شفافا يكشف عن ملامح وجهها، وهناك أيضا بناته: شفيقة وإيلين ومسرورة اللواتي أسفرن تلك الليلة احتفالا بالانتصار، وقد رقصن أيضا، وسهرن، وشرب الجميع الخمرة بالبيالات البيشة والبقرجات الذهب، ووقفوا في صفوف على الموائد الطويلة، وأكلوا الخراف المشوية والمحشية، والفواكه والعصائر والداطليات الحلوة



والسكاكرات الإستنبولية، وكانت هنالك بضعة بلابل تغرد في أقفاصها الذهبية المعلقة في قمرية الحديقة الأمامية.

لقد فرح محمود بك لا بالانتصار وحده إنما بالأمة التي تترقى وتتطور شيئا فشيئا وتصبح مثل أوربا، لقد فرح بالأمة التي تترقى دون الحاجة إلى الإنكليز أو الفرنسيين كما يدعي الزهاوي وهو يمسك بالحذاء العتيق في خان الأسكجية:

(لك بابا الحذاء العثماني بعد ما يصلح للبس.. نريد حذاء إنجليزي.. فرنساوي..).

أمة تترقى وترقص دون أن تكشف عن مؤخراتها، تغطي رأسها بالبرنيطة ولكن لا تتخلى عن رد الطامعين أعداء الدين، وتكون كما أرادها حاجي خليفة، كما أرادها قوجي بك، كما أرادها هزارفن، وإبراهيم داماد، وجميع المصلحين، نطالب بالإصلاح.. نعم.. نعم.. نتأثر بالحياة الأوربية.. نعم نعم.. ولكن هذا ما يعني أن نتخلى عن الدين ونكون كما فكر وقرر توفيق فكرت، وكمال نامق، ويعقوب صروف، وشبلي شميل، وانطون فرح، إنما نكون مثلما فكر وقرر الوزير راغب باشا الذي تأثر بالأفكار الأوربية، وترجم فولتير ونيوتن للتركية أيام السلطان عثمان، والذي لخص الرصافي أفكاره لمحمود بك مرة حينما كانا جالسين في ملهى الهلال يشربان العرق المصلاوي، ويمزمزان بالزيتون الحلبي:

(تريد دين... هاك دين..).

(تريد حياة ولهو وسكر وعربدة.. هاك..).

(وين أكو أحسن من هيك حياة).

لقد وقف محمود بك مندهشا ومضطربا بعض الشيء، فلم يكن فهمه لأوربا وللأفكار الأوربية، أو لفرنسا بالتحديد، يتعدى قراءة ثلاثة كتب كانت رائجة في ذلك الوقت، الأول كتاب (تنبيه الأنام على زيارة



أوربا في المنام) للشيخ عبد الرسول الكرادي وهو عبارة عن تسجيل لأحلام الشيخ عن أوربا في منامه ورؤيته لمظاهرها الخلاعية والكفرية وتنبيه الأمة على الغفلة والزلة في تقليدها والانبهار بها، وكتاب تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي، وهو الكتاب الذي تناقلته أيدي الأفندية والمعممين في تلك الفترة من جامع إلى جامع ومن قهوخانة إلى قهوخانة، وكتاب صغير مطبوع في مطبعة الولاية في استنبول، كان قد اشتراه من دكان سليمان الوراق في شارع الأكمكخانة، اسمه (فرانسا سفارتنامة) لرحالة وسفير تركي اسمه محمد أفندي، وقد وصف هذا الرحالة العصملي مظاهر الحياة الأوربية في ذلك العهد -كما تبدت له- بشكل دقيق، وأنيق، ومفصل، لقد وصف وبأسلوب بارع ورشيق مشاهد العمران، ومشاهد النسوان على حد سواء، وعلى طريقة الرصافي ولكن هذه المرة:

(تريد عمران.. هاك عمران).

(تريد نسوان... هاك نسوان).

لقد كانت مشاهد العمران ومشاهد النسوان معا هما الصورة المظهرية التي جذبت محمود بك نحو الأمم الأورباوية، وهو يدرك في داخله أنها الصورة الوحيدة التي ألفها في تلك الفترة عن البلاد الكائنة وراء البحار والتي أطلق عليها منذ القدم ببلاد الإفرنجة، بل أدرك محمود بك ومنذ أيام المدرسة الرشدية أن مظاهر العمران المبهرة ومشاهد النسوان المثيرة لم تكن حصرا عليه هو فقط، إنما كانت تهم كل الأفندية الذين عرفهم:

الرصافي، منيب أفندي، الزهاوي، فهمي المدرس، عبد اللطيف ثنيان، يوسف غنيمة، داود صليوة، عبد الرحمن الخانجي، وحتى الضباط الأتراك في القشلة همايوني، وحتى الأطباء في الدقتورلك، أو الموظفين في الكمرك أو في مصلحة الولاية، لقد كانت صورة نمطية عن أوربا شكلتها جماهير العامة والنخب الخاصة معا، ولا فرق في هذا بين



مكاري في علوة المخضرات وكاتب في الصحيفة، بين شقي في باب الشيخ و شاعر في قهوخانة المميز، بين ملة في الجامع وضابط في القشلة همايوني، بين حارس في بكجية السراي وصاحب السراي نفسه، وقد رأى محمود بك أن الأفندية كل الأفندية دون استثناء، حين يشتد النقاش فيما بينهم يتهمون بعضهم البعض بالانبهار بمظاهر أوربا العمرانية والخلاعة النسوانية، وكان منيب أفندي الوحيد الذي رآه محمود بك لا يخفي إعجابه بالوزير إبراهيم داماد الذي نصح السلطان أحمد على تقليد الحياة الاجتماعية والعمرانية والمظهرية للغرب، وتقليد القصور الفارهة خارج المدن مثل الملوك والسلاطين الأورباويين، وكان يريد من الأمة الإسلامية تقليد الحياة النسوانية كما وصفها محمد أفندي في فرانسا سفارتنامة وهي تتجول سافرة في الشوارع، أو مثلما وصفها الطهطاوي في تخليص الإبريز وهي تسير جميلة وسافرة وقوية، وينحني الرجل لتقبيل يدها حتى لو ضربته بحذائها، أو كما وصفها الشدياق في رحلته الساق على الساق بأن الرجل يمشي وقلبه بين سيقان المرأة في باريس، وهي القاضية الناهية الآمرة.

كان محمود بك يفهم، مثله مثل منيب أفندي، مثل الرصافي، مثل ندرة مطران، مثل الزهاوي، مثل محمد كرد علي، مثل محمود العبيدي، فكرة داماد العمرانية والخلاعية عن الأمم الأورباوية، كان يشعر بها متجسمة ومتأسسة عبر تحولها -مثل كل مرة-عند السلاطين، ببناء القصور الفارهة على الطراز الفرنساوي طراز فرساي ومارلي وسان كلو كما فعل السلطان أحمد الثالث، وارتداء الملابس الإفرنجية على آخر موضة في لوندرة وباريز، وحياة السكر والعربدة وتقليد الخلاعة والمياعة والدلاعة على الطريقة الأوربية، ولم يشعر أي واحد منهم بهذا التمزق والانشقاق، كما كان محمود بك يشعر على الأقل بهذا التمزق بين حب المظاهر النسوانية التي تمنح الحياة- مهما كانت- شكلا راقيا، وهو أمر كان يلح عليه الأفندية بصورة متواصلة، وبين الفكرة الأصلية للأمة وهي



الصورة الصريحة التي تمنحهم امتيازهم واختلافهم وقوتهم عبر معاداتهم للإفرنجة.

لقد كان محمود بك يندهش من منيب أفندي وعبر جداله المستمر مع الشيخ أمين، حين يرى أن المظاهر النسوانية هي الشكل الأخير للأمة الإسلامية بعد أن تتحرر من العمامة وترتدي البرنيطة، وكان محمود بك يعتقد في داخله أن هذا الأمر يلقى صدى ولو خفيا عند الكثيرين، لأن مشهد المرأة في الشارع هو مشهد ساحر وخلاب، ولا ينكره إلا بليد الحس ومعدوم المشاعر وفاقد العواطف، ومن جهة أخرى هنالك الفهم الآخر الذي يطرحه المعممون ولا سيما الشيخ أمين، وهو العودة للأصول، العودة للنبع الأول للدين، العودة إلى المدينة التي هبط فيها الوحي لأنها مدينة خالدة وأبدية ولازمانية، مدينة تصلح لكل زمان ولكل مكان، شريعتها أبدية، وشكلها خالد سرمدي، وزيها المتمثل بالعمامة والعباءة والمخصرة موديل أبدي، وشكل حكومتها المتمثل بالخلافة هو شكل أبدي، وحتى قصيدة الشعر عليها أن تستمر مثلما كانت بشكلها ومعناها الأبدي، ولذا حين سمع الزهاوي مرة وهو يتحدث في القهوخانة عن الشعر المرسل، ووجوب إلباس الشعر العربي البرنيطة الإفرنجية والتخلي عن نظام القافية، اهتاج الشيخ أمين وفقد أعصابه، فالشعر نسبة له لن يكون إلا مثلما كان في المدينة الخالدة والأبدية واللازمانية، والمرأة عليها أن تكون مثلما كانت في الحجاب والنقاب دون مياعة ولا خلاعة، ومع ذلك كان محمود بك يعرف بأن الشيخ أمين إذا وجد فرصة للمياعة والدلاعة فإنه لا يفوتها، وكما شاهده مرة في خان القوافل قرب سامراء حينما كانا مسافرين إلى استنبول وقد تعرف على سائحتين أمريكيتين هناك، فأغرمتا بموديل عمامته الأفغانية، فقد كان يسرح خصلة من شعره الأسود الفاحم على جبينه من تحت العمامة على الطريقة الأفغانية، وكان موديل العمامة موديلا ساحرا وخلابا نسبة للسائحتين الأمريكيتين، فصاحت واحدة منهما:



(أوه. . نو. . إكزوتيك. . شيخ أمين. . .).

اهتز أمامهن، وتمايل بصوته المنغم، وبعينيه المكحلتين، وبشعره المنسدل على الكتفين، وبلحيته التي تشبه لحية السيد جمال الدين الأفغاني، وحين هز يده أمامهن تمايل خاتمه العقيق في بنصره، خاتمه المنقوش بعبارة لا إله إلا الله.

وقد ضبط محمود بك منيب أفندي أكثر من مرة متلبسا بالأفكار الدينية والغيبية والصوفية لاستغلالها لجانبه، وذلك عندما يشعر منيب أفندي بأن هذه الأفكار- مهما كان رأيه الصريح بها- صالحة حسب المناسبة للتقرب والتكسب والاستثمار، فإنه يدافع عنها مثله مثل الشيخ أمين، أو أي واحد من الملالي والسادة وشيوخ الجوامع وصغار الإفتاء والقراء والمؤذنين، وحين طالبه محمود بك أحد الأيام أن يصبح واضحا، ويتخذ طريقا واحدا، سخر منه، وهزء به، واستشهد بالزهاوي الذي كتب عليا الفلسفة، وكتاب الكائنات، وكتاب الجاذبية وتعليلها، والتي ضمنها جميع أفكاره ونظرياته واكتشافاته العلمية التي جلبت عليه صفة الإلحاد والربوبية، بدءا من الفكرة التطورية والقردية وانتهاء بالنظرية الدافعية والسوبرمانية، ومع ذلك، فإن الزهاوي هو لا غيره الذي كتب (الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق) وقد أثبت في هذا الكتاب وبالطريقة العلمية والتطورية والدافعية والسوبرمانية أيضا، أن الخرق والتكايا والكرامات قادرة على قلب حال الإنسان من حال إلى حال. ثم مسح منيب أفندي فمه بالمنديل بعد أن شرب الماء من الجرة، وتحدث له عن الزهاوي الذي كتب هذا الكتاب للتقرب من السلطان عبد الحميد الذي يحب الخوارق الدينية والطرق والتكايا الصوفية.

*

(رزق الله أفندي. . رزق الله ابن نعومي. .) قال محمود بك وهز



رأسه مرة أو مرتين وهو على جواده الأطهم أمام عمر الموصلي في سوق البولنجية، لقد تذكره وتذكر كل شيء عن طونانمة نصر الجيش التركي في الكوت، تذكر رزق الله أفندي وزوجته زكية وبناته في حفلة قصر سوميخ، تذكر غضب جماهير العامة من سفور النسوان ورقص إيلين ومسرورة وشفيقة في الحفلة:

في اليوم التالي لحفلة قصر سوميخ، في اليوم التالي مباشرة، ذهب محمود بك إلى قهوخانة التجار، سار في الجادة الجديدة، جادة خليل باشا، كان ثمة مجموعة من طلاب المدرسة الرشدية الفتيان يرتدون البنطلونات الكاكية القصيرة، ويضعون شارات الكشافة على أكتافهم ويسيرون صفا صفا، وكان حاكولي الترامبيتجي يقودهم وهو يعزف على آلة الترامبيت مارشا منغما للمسير، فخرجت بغداد عن بكرة أبيها لتسخر من بنطلوناتهم القصيرة، ومن شاراتهم الحمر، ومن قمصانهم الكاكية، وتضربهم بالقاذورات والسلال الفارغة والقشور.

دخل محمود بك وجلس في الفسحة المبلطة بالطابوق والقريبة من نافورة الماء التي تنبجس قرب الفسقية، كان هنالك بضعة زبائن يحتسون القهوة وينفثون الدخان في الهواء وهم يفكرون متوسدين التخت بمرافقهم، ويستغرق آخرون في الحديث عن حفلة بن سوميخ وطونانمة الانتصار، وتعليق الزينة، وجلب المزيقة، وضرب الطبول والدرابك والصناجات، ورقص الدراويش في باحات الجوامع، والجالغيات في القهوخانات، وصداح صوت يوسف حوريش في قهوخانة الشط:

(سبحانك ما حمدناك حق قدرك يا محمود..).

بعد دقائق جاء سليم القهوخانجي وقد وضع طربوشا مخروطيا أحمر على رأسه، وسرح خصلة من شعره الأسود لتتدلى على جبينه من جهة اليمين، كان يرتدي سترة زرقاء ودشداشة بيضاء، ويتحزم بحزام جلدي عريض، جلب لمحمود بك فنجان القهوة، وضع عند ساقه النارجيلة



ذات المنقار المذهب، والقصبة الحلزونية المصنوعة في بوهيميا، تناولها محمود بك ووضعها في فمه وأطلق الدخان في الفضاء.

في تلك اللحظة شعر محمود بك بشيء غريب يدور بين الناس.

دور نظراته الحادة نصف دائرة على رواد القهوخانة، فحدس غضب العامة وجماهير الناس على الطونانمة الأخيرة، خمن عدم رضاهم من تشبه أمتهم بالأمم الكافرة، شعر بقلقهم وحيرتهم وتعرضهم لنوع من الاضطراب أزاء فكرتين متقابلتين ومتناقضتين:

فمن جهة الدعاية الحربية والسياسية التي يرددها عليهم الأجانص والفرمانات الهمايونية والمحضرات الشريفية وهي أن الأمم الكافرة تبغي قتل الغيرة الدينية عند الأمة الإسلامية، وتعهير المرأة، وإشاعة الرقص والخمور والحفلات والتياتروات والبروذلات، ومن جهة أخرى فإن نسوان الأمة يتزين في الطونانمة أمام الباشا ويرقصن، ويضحكن، ويسهرن، ويتسلين، ويشرب التجار والوجهاء البلديون الخمور، وحين دافع سعيد بزركان تاجر البشت في خان الكهيسي، والذي كان أحد الحاضرين في حفلة بن سوميخ، عن التجار والجلبية والوجهاء البلديين الآخرين مدعيا بأن من رقصن هن بنات موشه اليهوديات، وبنات كوشكي الأرمنيات، وبنات نعومي المسيحيات، ومن شرب الخمرة هم الدبلوماسيون الألمان والتجار اليهود والنصارى، إلا أن هذا لم يقنع جماهير العامة ولا الشيوخ ولا علماء الدين ولا المؤذنين ولا القراء ولا صغار الإفتاء، ذلك لأن الباشا في مجلس شراب ورقص وهمس، وهناك نساء الأمة، والنساء قاصرات، يرين ويشتهين ويقلدن.

لقد أدرك محمود بك في تلك اللحظة أن جماهير العامة والشيوخ والمحافظين البلديين وقفوا حائرين أزاء فعلين متناقضين، ومتقابلين واحدا أزاء الآخر، فمن جهة صلاة الباشا في جامع الحيدر خانة، ومباركة محمود شكري الآلوسي، وشيخ الإسلام، وخرب السيد الحبوبي



والمراجع الدينية في النجف ضد الإنكليز، ومن جهة أخرى الرقص والمباذل والخمور والطونانمات والشكشكة، وهز البطون، والمواعيد والسهرات، والدعوات الصاخبة على حساب الانتصار على الأمم الكافرة.

ضرب عباس زادة على رأسه وصاح:

(شلون.. شلون تفسر هذا الشي.. على الحكومة أن تختار لو دين.. لو دنيا).

شعر محمود بك أول الأمر بالحرج، شعر بالبلبلة والاضطراب، فقد كان بوده لو يبرر وبكل صورة هذا الفعل-أي فعل ومهما كان يصدر عن الحكومة، كان بوده أن يضرب كفا بكف، ويلخص فكرة راغب باشا كما فهما الرصافي يوما ولخصها له في ملهى الهلال:

(تريد دين هاك دين... تريد دنيا هاك دنيا..).

أو يختار بينهما، يأخذ ما يريده، دين أو دنيا، بدلا من هذا الانتقاد الجاف والزائد للحكومة، وحين انفجر بوجهه حجي عبد الله السلمان الذي أسس جمعية أنصار الإسلام في جديد حسن باشا وقال له: (بشرفك.. شلون دولة إسلام تتشبه بالكفار؟).

صفن محمود بك أول الأمر، وضع فنجان القهوة بين أسنانه، ليأخذ وقتا بالتفكير، ابتسم له وهز رأسه موافقا ليجيبه بعد أن نفخ نار النارجيلة، ووضع قصبتها في فمه، ثم أطلق الدخان في الهواء، وبعد ذلك حضر الجواب في ذهنه، فقال بهدوء، دون عصبية، وبمزاح:

(.. إيه صحيح.. ولكن أنور باشا ناذر نذر لأبي الجوادين سيدنا الكاظم عليه السلام... إذا انتصر جيش الإسلام بالكوت... راح يفك سفور النسوان... هذا نذر للإمام وما يصح على الباشا أن ما يوفي بنذره.. كانت نظيرة بنت محمود الطيار في الكاظمية نذرت أن تسفر.. وتمشي في الأسواق... إذا رجع ابنها من حرب القفقاس... هذا نذر



يجب أن يوفيه المسلم وإلا راح يخسر جيش المسلمين أمام جيش الكفار.. والإمام راح ينتقم من أنور باشا...).

*

في المساء، مساء اليوم الذي أعقب حفلة بن سوميخ في قصره، التقى محمود بك منيب أفندي والزهاوي معا في قهوخانة سبع، كان الهواء عذبا ذلك اليوم وباردا، وقد نثت النافورة في القهوخانة بعض رذاذها على وجوههم، كان محمود بك بطربوشه وملابسه الإفرنجية يجلس إلى جوار منيب أفندي الذي يرتدي روندكوته الألماني وبرنيطته التي استبدل بها الطربوش، وكان الزهاوي يضع طربوشه الأحمر مائلا على جبينه، وقد سرح خصلة من شعره الأسود على كتفه مثل أدباء أوربا ومفكريها، لقد تعجب محمود بك، فغر فمه مندهشا، سخط أول الأمر، ثم صمت وهو ينظر متعجبا ومستغربا من الزهاوي الذي انتقد طونانمة الانتصار، وسفور النسوان في حفلة بن سوميخ وإشاعة الرقص والخمور أمام الباشا.

لقد كان الزهاوي يبحث عن فرصة لنقد الحكومة، وطالما كانت الفرصة متوفرة ذلك اليوم فقد استغلها هو ومنيب أفندي كلاهما، فقد كان كلاهما من أنصار الجمعية، جمعية الاتحاد والترقي التي أسسها في بغداد بعد الدستور مراد سليمان وتوفيق الخالدي وداود صليوة وساسون حسقيل، وعمل كلاهما في صحيفة بغداد الناطقة بلسان الجمعية، وحين تنكرت الجمعية لأهدافها، فقد تنكرا لها، ولذا فقد انتقد الزهاوي ومنيب أفندي كلاهما الحكومة علنا لإباحتها سفور النسوان، لإباحتها الرقص والمخالطة التي تجعل الشيطان يحوص ويوسوس، فإن كانا يطالبان بحرية وتحرير المرأة على طريقة قاسم أمين في الخطة المصرية، ذلك لأنها منافسة مع المعممين الذين لا يريدون، وقد كان محمود بك مندهشا بطبيعة الأمر من هذا التناقض وكان يشعر بنوع من الاضطراب والبلبلة، فالزهاوي الذي يطالب بسفور النسوان في صحيفة المؤيد هو ذاته الذي



ينتقد سفور النسوان في طونانمة الانتصار، وعلى طريقة الرصافي حين لخص فكرة راغب باشا:

(تريد دين. . هاك دين. . تريد دنيا. . هاك دنيا).

كان الزهاوي يلخص فكرته التعجيزية ب:

(تريد أرنب هاك أرنب. . تريد غزال. . هاك أرنب).

وحين التقى محمود بك الشيخ أمين في المساء في جامع الآصفية واجه الانتقاد ذاته الذي وجهه الأفندية إلى الحكومة، بيد أنه كان يشعر أن هذا الانتقاد الذي يوجهه الشيوخ في الجوامع، والقراء، وصغار الإفتاء، والملالي، والسادة، وعلماء الدين، والمؤذنون، هو الآخر في إطار المنافسة السياسية مع العسكر في الحكومة، في إطار المنافسة مع النخب العسكرية العثمانية التي حسمت أمرها لصالح أوربا ومنذ زمن بعيد، وبحجة إدخال التحسينات العسكرية على الجيش وتصفية الينجرجية والطوبشية والسباهي والزيعامات والتايمارات والبلربكية والقوات في الاوجاقات من الأرنائوط والبشناق واليونان والبلغار والأرمن، وبحجة بناء الجيش على الطراز الأوربي، دخلت الأفكار الأوربية، ولكن هل جعلت هذه الأفكار والتنظيمات والتحسينات منها دولة قوية كما كان قوبجي بك وهزارفن وحاجي خليفة يظنون؟

(أبدا. . أبدا. . .).

إنما جعلتها في منتصف الطريق. . . مثل الغراب-لا مثل الغرب- الذي ضيع المشيتين، فلم تصبح دولة قوية مثل دول أوربا، ولم تعد كما كانت إمبراطورية مؤلفة من مؤسسة إسلامية قوية وجبارة نظمها مؤمنون محليون وقضاة وعلماء دين لتأدية المهمات الشرعية والقانونية، ودعمها جهاز عسكري بيروقراطي متماسك ومتراتب ومنظم، لقد فقدت قدرتها على أن تعود كما كانت في السابق، كما أن هذه الإصلاحات لم تجعل منها دولة قوية كما كان يظن المصلحون والذين أدخلوا هذه التحسينات



والتنظيمات الغربية على نظام قديم، ولم يدركوا أنهم أصبحوا بين صراع الأنظمة، وإن التحسينات أصبحت عائق لأنها من منظومة أخرى، منظومة مجلوبة، منظومة غريبة، فأخذت الدول الأوربية التي نشطت سريعا تزاحمها وتزحف عليها شيئا فشيئا، فقد أصبحت شيئا مؤسسا على النصف، كل شيء فيها على النصف وإلى النصف، كل شيء فيها أصبح على كثير من التناقض والاضطراب والبلبلة، وكان محمود بك يعيش هذا التمزق وبشكل متساو مع أي واحد من النخبة العسكرية الحاكمة مثل: أنور باشا أو طلعت باشا أو مصطفى كمال، أو أي واحد من الأفندية الذين أيدوا المشروطية، وهي مشروطية إلى النصف، فمن جهة كانت هناك الروح الكومتية - على سطحية تأثرهم بأفكار أوغست كومت- هي الأفكار السائدة بين الأفندية في المراكز الحواضرية والمدنية، ومن جهة أخرى هناك الروح الغزوية التي كانت تصر عليها الظلامية المتعصبة للإسلام العثماني:

لقد أصبح مشهد استنبول الحقيقي، وللمرة الأولى، لا في آيا صوفيا، ولا في قصر يلدز، ولا في جامع طوب حنا اسكوتاري، إنما في مقهى السيرافيم أفندي خيرتان، والأفندية الذين كانوا يجلسون هناك يدركون أكثر من أي وقت مضى بأن الإمبراطورية التي كانت تغطي الشرق برمته، أصبحت مثل تمثال ضخم من المرمر بقدمين من صلصال، تمثال كبير عصفت به حوادث التاريخ وأحالته إلى خراب، كان الأفندية هناك في مقهى سيرافيم أفندي خيرتان في حي بيازيت بالقرب من البازار القديم، يجلسون على التخوت الواسعة يشربون القهوة ويدخنون النراجيل وينفثون الدخان في الهواء، هناك: نامق كمال مثلا، وهناك وأبو زيا توفيق، وجميل أفندي الزهاوي، وكذلك سيد أفندي، أو فيدونلو باشا، والرصافي، ومن جهة أخرى هناك لطفي أفندي، وندرة مطران، وبكر سامي باشا، وأيثم برتف باسلار.. نعم.. نعم كانوا أفندية بحق وحقيقي، أفندية مولعون بالحديث عن التنظيمات التي يمكن من خلالها



إصلاح الإمبراطورية التي كانت تغطي الشرق بشمسها التي لا تقهر، مثلهم مثل الأفندية في بغداد ودمشق، أفندية يجلسون بعيون مقطبة وذقون مدببة وطرابيش حمر وستر خضر بثنيات، وخناجرهم بالأحزمة الحمر على خصورهم، وهم يشربون القهوة بالأكواب اللامعة كالذهب، والموضوعة على الأطباق الدائرية والتي كان يحملها لهم سيفناك قهوجي، يجلسون في الصالون يقرءون الصحف وينفثون دخان سجائرهم في الهواء، ويرددون شعارات الثورة الفرنسية دون أن يدركوا الانحلال والتصدع الكبير الذي ظهر وبشكل جلي بعد صراع قاتل بين المؤسسة الدينية والمؤسسة العسكرية البيروقراطية، وكانت المشروطية هي إحدى ركائزه.

(ماذا جنينا من المشروطية.. غير الدعارة والبروذلات والشعارات). قال الشيخ أمين، وهو يهز يده أمام منيب أفندي.

غير أن الشعارات التي سخر منها الشيخ أمين ذلك اليوم في القهوخانة، هي التي أيقظت وحفزت وأججت سعار الحرية عند الأفندية الذين أيدوا المشروطية التي قادها العسكر في استنبول... أفندية نعم... ولكنهم أدركوا بعد فوات الأوان أن هذه الشعارات العظيمة، والمأخوذة من أوغست كومت سرعان ما دمرتها المطامح المسلكية للبيروقراطية العسكرية، والتي أدت إلى استبداد جديد وحكم أوتوقراطي ممزق بين أحلام الأفندية بالديمقراطية الغربية وبين استبداد من طراز شرقي قديم، كل شيء أصبح إلى النصف، كل شيء إلى النصف، مشروطية على الطريقة الأوربية حدثت، غير إن الاستبداد القديم عاد مرة أخرى، عاد هو الآخر على الطريقة الأوربية، على الطريقة النيتشوية تحديدا، عاد طبقا إلى ما كان يؤمن به الأفندية في ذلك الوقت: ناموس دوري، سيعود، ويعود، ويعود مرة بعد أخرى.

*



بغداد ١٩١٤

محلة المصبغة، في مدخل جامع الخفافين، هنالك قهوخانة صغيرة يغطي واجهاتها الخشبية المنحوتة والمنقوشة سعف النخيل، وفي العمق تخوت خشبية، وتخوت من اللبن مفروشة بالحصران، كان منيب أفندي جالسا عند الجدار وقد وضع ساقا على ساق يمسك كتاب عبد العظيم بابان الذي يشرح فلسفة نيتشة ويصرخ بوجه محمود بك الذي فغر فمه أمامه:

(لك إنت تعرف شنو يعني ناموس دوري...).

(لأ..).

(تعرف منو نيجة..). يقصد نيتشة بطبيعة الأمر.

(لا..).

(تعرف السوبرمان..).

(لا).

وفيما بعد عرف محمود بك فكرة الناموس الدوري، بل قبلها وتقبلها وأخذ يدافع عنها. لقد تغير محمود بك ولم يعد يفغر فمه مثل الأبله أمام منيب أفندي وهو يصرخ بوجهه تعرف الناموس الدوري، تعرف الفكرة السوبرمانية، تعرف نيجة، وكما عرف الفكرة القردية من قبل فقد عرف الناموس الدوري والفكرة السوبرمانية وقرأ دواوين توفيق فكرت، ولا سيما قصيدته التأريخ القديم التي ضمنها أفكار نيتشة، وكتاب فلسفة فنون لعبد العظيم بابان المطبوع في مطبعة الولاية في استنبول، والذي لخص فيه عبد العظيم أفندي أفكار نيتشة عن الناموس الدوري بأنه الابتسام الهادئ للتاريخ، والقبول بما لا يقبل، وتحمل ما لا يحتمل بكل براءة وبرضا تام، إنه الفرحة اللامتناهية من العبودية العمياء، إنه السعادة الحقيقية للطاعة الكلية التي زرعها العسكر.

وقد قبل محمود بك هذه الفكرة بحماس، طالما أن كل شيء



سيعود ويعود، ويصبح صدى، وصدى متحمسا لكل شيء قديم في الاستبداد القديم، وقد عرف محمود بك أيضا أن الأفندية يقبلون بالأفكار لأنها موضة، لأنها موديل، ولا علاقة للأفكار بالمنفعة والضرر كما كان الأوربيون يفكرون بها، وهي عظيمة طالما هي صرعة أخيرة يقبلون عليها.. وشيء عظيم وجميل ومقدس حين يجلس محمود بك ويضع ساقا على ساق في قهوخانة المصبغة أو المميز أو في قهوخانة حوري، ينفخ الدخان من قصبة نارجيلته في الهواء وهو يقول:

(نيتشة..).

(ناموس دوري..).

(توماس ديلامون..).

(نشوء.. ارتقاء.. قردية..).

يعدل طربوشه بيديه وينظر باحتقار للجهلة والفاسقين والماردين أعداء التطور والأفكار الجديدة، ينظر باحتقار للذين يعبرون هم وحميرهم وبغالهم حفاة من أمام القهوخانة وهم يحملون فكرة غير هندسية للكون، فأكثر الناس في بغداد كانوا يظنون أن وراء النهر من بعيد هاوية كبيرة، وهي نهاية الكون، يتحدث عن نيتشة وتوماس ديلامون وعلى مقربة من المقهى، عند النخلة القريبة من الطريق الهابط إلى النهر، توقف عابر سبيل بأقدامه الكبيرة المتربة الحافية، رفع دشداشته وجلس ليتغوط تحت النخلة وهو يستمع لزقزقات العصافير.

*

تذكر رزق الله أفندي أمام شريكه عمر الموصلي، وقال:

(ابن نعومي.. نعم... نعم...).

وتذكر ذلك اليوم، يوم طونانمة الانتصار، تذكر وقوفه أمام قصر سوميخ المشيد من الطابوق الكرماني، تذكر حدائق القصر الواسعة



ونافوراته الكبيرة، ومسنايته التي تنتهي بمرسى للزوارق على نهر دجلة، تذكر الحفلة في الليل، وكيف خرج الأعيان بأبهتهم فرحين من الباب الخشبي الكبير للقصر، وقفوا صفا في الأفنية الرخامية العالية لوداع الباشا، ثم جاءهم الحوذيون بملابسهم المميزة، وعرباتهم الأنيقة لنقلهم إلى منازلهم وقصورهم في المحلات العصملية في بغداد: محلة الحيدرخانة التي يسكنها الضباط، جديد حسن باشا التي يسكنها الموظفون والوكلاء التجاريون، طوبليان التي يسكنها كبار الضباط والدبلوماسيون الألمان، وفي تلك اللحظة هجم مجموعة من الأولاد العراة، والمنتفخي البطون على زبالة قصر سوميخ وأخذوا يلتهمونها، كانت النساء تسترهن رقع بالية، وقد ارتمين على الطريق أمامهم وهن يشحذن من الخدم خبزا ورزا، وقد جاء أحد الجندرمة وهو يحمل صحنا كبيرا فيه المرق، قال له الخادم: (هذا عشاء الحراس). ولكن الشحاذين تربصوا به، هجموا عليه، خطفوا الصحن من يده وهربوا.

استشاط محمود بك غضبا، صرخ على الجندرمة أن يتجمعوا، فتجمعوا بكروشهم وطرابيشهم المائلة وأسلحتهم وبساطيرهم المعوجة، وأمرهم بمطاردة الشحاذين لئلا تقع ولو مصادفة عليهم عينا الباشا فتفسد فرحته، ثم رفع محمود بك سوطه الأسود إلى الأعلى بكل قوته، وهددهم بسوطهم سوط العبيد السود، وزلغ جلودهم، إلا أن جوعهم ثبتهم في مكانهم وأرغمهم على النظر إليه بطرف العين وهم يلتهمون الزبالة دون توقف، وحين هبط السوط ولسعهم:

(طراب.. طراب... طراب).

هربوا وهم يصرخون.

*

وقف على مقربة من الجوسق الخشبي بينما كان السائس يعد ركاب جواده، صفن صفنة طويلة وقد فكر بعمق بفكرة الناموس الدوري، بعبد



العظيم بابان، بتوفيق فكرت، بالزهاوي، بالفيلسوف الألماني، لقد أدرك هذه الفكرة بعمق وبصورة عملية وواضحة ودقيقة عبر مشهد المجاعة الذي يعود ويتكرر كل عام، مشهد المجاعة الذي رآه وخبره وعرفه قبل عام تقريبا في الموصل، فإن اختلف المكان فقد تكرر المشهد كما لو كان ناموسا دوريا يتكرر ويتكرر كل مرة، كما لو كان ناموسا دوريا سيعود ويعود كل مرة، مشهد المجاعة في بغداد هو هو ذاته مشهد المجاعة في الموصل، مشهد الأشراف وهم يشحذون الطحين، مشهد أهل السرجخانة وهم يبيعون أثاثهم: أبوابهم، فرشهم، أغطيتهم، شبابيكهم، تخوتهم، سقوف منازلهم، طناجرهم، دسوتهم، كفاكيرهم، مشهد النساء وهن يبعن ملابسهن، وهن يبعن أثوابهن الداخلية، حتى أثوابهن التي تسترهن، لكي يأكل الأولاد.

لقد سمع محمود بك وهو واقف على جواده الأطهم في السرجخانة أنات النساء وصراخهن الكئيب في الدركزلية، لقد سمع أنات الأطفال الصغار الذين يطلبون شيئا، أي شيء يضعونه في أفواههم دون أن يجدوه، بينما امتلأت محلة الدركزلية والسرجخانة والدواسة وباب البيض بالجثث المرمية هنا وهناك، وقد أمر الوالي الجندرمة بتجميع الموتى بعربات التكلك والكارو ودفنهم في مقابر جماعية:

سار محمود بك بطربوشه الأحمر المتوهج بلون دم الديك، وبملابسه الكاكية المرتبة وهو على جواده الأطهم، وتقدم الجندرمة الذين يسيرون صفين اثنين على يمينه وشماله، ومن خلفه سارت عربة تكلك، وعربة كارو كبيرة وهي تحمل جثث الموتى إلى المقبرة خارج سور المدينة، وعند كل منعطف كان الجندرمة يهبطون من جيادهم لالتقاط الموتى من الأرض ثم يرمونهم في العربة، وحين وصلوا إلى حفرة كبيرة حفرها الجنود هناك أمر الجندرمة برمي الموتى فيها ثم أمرهم بردم التراب.

عاد محمود بك على جواده الأطهم إلى المدينة مرة أخرى، كانت



الشمس حمراء تنحدر شيئا فشيئا نحو الغروب، وكان الهواء يهب عذبا من جهة النهر، وحين وصل إلى باب البيض رأى الجندرمة والأطفال والنساء والشيوخ هناك يهجمون على البقالات ومحلات الأكل وينهبونها، فرفع سيفه عاليا وهدد به كي يعيد النظام والهدوء إلى المدينة بأي شكل كان، وحين استدار بحصانه وذهب إلى القلعة سمع من طوغان باشا أن حمدية زوجة سعيد الكركوكلي قد طبخت أولادها بالدست وأكلتهم ليلة أمس.

ناموس دوري... كما قالها الزهاوي في قهوخانة الشط، كما قالها توفيق فكرت في قصيدة التأريخ القديم، كما شرحها عبد العظيم بابان في كتابه المطبوع في مطبعة الولاية في استنبول، ناموس دوري، هذا يعني: جندرمة يدقون طبول الحرب، إنكليز يقتربون من بغداد، طاعون يفتك بالناس، جوع يدور بين البيوت، ودرك يعدمون الهاربين من السفربرلك.

حين مر بالقاطرخانة، نظر محمود بك إلى اليمين وهو يسير على جواده، رأى بعض الفقراء يأكلون الجيف، وهنالك شحاذ وصبي معه يزحفان لاصطياد كلب يقترب من عتبة منزل مهدي أفندي، وقد أدرك محمود بك أن البعض لا يميز بين الروث وفتات الأكل المرمي في الزبالة، وقد ضحك من كل قلبه على مشهد الأطفال العراة الذين يطاردون الذباب ليدعسونه على الجدران ثم يلتهمونه.

بائع الباقلاء يصيح: (باقلة بالدهن... باقلة بالخبز).

وعلى مقربة منه ثلاثة عراة يتلوون من الجوع، وأحدهم كان على وشك الموت، والآخر استطاع أن يزحف نحو جواد محمود بك وقد أمسك به من مهماز حصانه، أمسكه من حذائه المبرنق الموضوع في الركاب، وهو يصيح:

(الله يخليك.. خلي أبو الباقلة يعطيني شوية).

قال محمود بك بعد أن دفعه بقدمه وأسقطه على الأرض:



(أنا ضابط صغير. . كوجك سي. . . ما عندي فرمان يخص الباقلة).

*

خلف بازار الجمعة كانت مئذنة الجامع قد ظهرت، وكان شيوخ الجوامع ذلك اليوم قد حذروا المسلمين من التعامل من الإنكليز وجيش الكفار، بينما سمع محمود بك أن مود أصبح قائدا لجيش دجلة الإنكليزي بعد أن أسر الأتراك طوزند.

وبعد أيام قالوا العكس، فقد انكسر الجيش العثماني وجاء الجنود يهرولون بلا بساطير، وعبروا جسر القفف، كان صوت الطقاطيق في سوق الهرج يعلو على جلبة السراجين، والغبار يغطي أرضية الدكاكين التي خلت من البضائع، ورأى محمود بك ذلك اليوم خواجه عبد العزيز يسير في عقد النصارى وهو يمسح بطرف قفطانه الخشن أنفه الأحمر المسلوخ، وفي طرف السوق سلمان أفندي يحمل الطنجرة والكفكير والملح والفلفل الحار، وكان الخبازون الأفغان قد أشعلوا التنور وراحوا يرقون السنبوسك بالشواف، وحين صعد بالقرب من الليوان سمع محمود بك خادمة قرغيزية في بيت المميز تحمل قلة الزيت، وقد كشت الدجاجات التي كانت تقوقيء في باحة المنزل، وبعد أن سارت خطوات قليلة من هناك، أمسكت بعباس أفندي من زيقه، وأخذت تصرخ، قالت إن عباس أفندي فاجأ الدجاجة التي تقوقئ وأخذ منها البيضة التي باضتها ووضعها تحت طربوشه، وحين سأله محمود بك أنكر ذلك وأخذت قدماه تهتزان، فمد محمود بك يده وخلع الطربوش فتدحرجت البيضة من رأسه الذي حلقه بالموسى وسقطت على الأرض. فأمسك به محمود بك من ردن قميصه بيد، وباليد الأخرى صفعه على وجهه، وأدماه، بكى عباس أفندي وقال: (أنا شريف من الأشراف بس الجوع جبرني. .).

(شريف وتبوق بيضة. . لو مكاري شكان سويت).

صرخ يوسف الخالدي: (الناس صارت تشحذ. . . والطحين صار



بأربعين مجيدي. . وباع أهل رأس القرية الأخشاب والأحجار من بيوتهم. . حتى ياكلوا).

(لكم يا جهاد. . بعنا الحصران والكفاكير والطسوت حتى نعيش. . يا جهاد. .).

سار محمود بك على جواده رافعا رأسه مثلما أوصاه الشيخ أمين:

(اليوم تمتحن فيه الأمة الإسلامية. . .).

سار في أزقة بغداد وهو يتفرج على أهل المجاهدين الذين أخذهم الجندرمة والدرك في السفربرلك لقتال الكفار الأورباويين أعداء الدين وهم يتجمعون على الأزبال، كان يتفرج على الدرك والجندرمة الذين لم تدفع لهم الحكومة رواتبهم فأخذوا يهجمون على باعة الأطعمة وعلى البقالين، توقف قليلا، كانت هناك رائحة حادة، نفاذة، تملأ الفضاء، وفي الشارع الذي يتفرع من العقد الأخير رأى قططا كبيرة تنهش بجثة سعيد ابن الحجية وهو مرمي على عتبة منزله، وأمامه طفل صغير يبكي ويتلوى من الجوع، وفي الطريق الذي يؤدي إلى النهر مرت عربة تكلك سوداء تحمل جثث موتى الطاعون ورمتهم في النهر، فارتاع الخواجات وقالوا سينتقل الطاعون عبر الماء، كان محمود بك في البازار عصرا، وقد هبط من جواده وتوقف عند متجر عباديا وهو ينظر إلى المجيديات الذهب وهي تتقلب بين أيدي التجار: يهود، شابندرات، خضيريات، جلبيات، أغوات، قال مكاري العلوة:

(ارتفعت أجرة العمال. . ارتفعت أجرة الدوبة. . والحمار هم زادت أجرته).

فصرخ نعمان جلبي في باب الخان على مجموعة من العتالين الذي طالبوه بزيادة أجورهم:

(كل واحد منكم يأخذ عشرين غرش. . تريدون تاكلونا. . كافي عليكم عشرين غرش).



وعلى مقربة منه عدّ صالح مرجان على يد سعدون الجمالي في الكاظمية ثلاثة آلاف ليرة مجيدية، وفي المساء ذاته سمع علوان خجو وهو يصرخ:

(يا ناس.. أكلنا الكلاب الجايفة والبعر والروث وسليمة الكرمانية ملأت خوابيها بلحم الأوادم.. لكم يا جهاد... يا إسلام).

وحين جلس محمود بك في قهوخانة المميز الواقعة بالقرب من جامع الآصفية ذلك اليوم سمع ابن السويدي يقرأ بالسال نامة ويبكي:

(يا ناس إحنا أشراف مثل آل الجميل.. وآل الكيلاني... وآل الآلوسي... وآل الحيدري.. نحن من بني العباس... كيف يعتبرونهم أشراف واحنا لا...).

على الرغم من المجاعة والطاعون وحرب السفربرلك ضد الناس، كان أعيان بغداد يتنافسون بينهم، وكان التجار يجلسون ذلك اليوم على التخوت ويتبارون: جلس في الزاوية البعيدة اسكندر استيفان مركريان وقد وضع ساقا على ساق، كان طربوشه أحمر مثل دم الديك، وعيناه زرقاوان، يضع إصبع النارجيلة في فمه وينفخ، أمامه حنا الشيخ بملابسه الجديدة، وعبد الأمير عيسى الجميل، وعبد الله الحيدري الذي قال:

(أعيان الشيعة أحسن من أعيان السنة.. بيت الجمالي من الكاظمية وبيت مرجان من الحلة).

وضع أهل المصبغة التراب عند نهاية المحلة وصعدوا المتاريس وهم يمسكون الهراوات والقضبان والمسدسات والسكاكين والأحجار، كان أهل الحيدرخانة يتجمعون ذلك اليوم ويهددون بكسار المصبغة، قالوا سيقلعون شبابيكهم وأبوابهم وأحجار بيوتهم ويستولون على الأثاث والفرش والسجاد والملابس وسيخلون أهل المصبغة ينامون على الأرض.

*



جلس محمود بك على كرسي مصنوع من الجريد على ضفة النهر من جهة شريعة المصبغة وهو ينظر إلى سعف النخيل الذي تهزه نسمات هوائية باردة عذبة تهب من جهة الشمال، امرأة تسير وهي ترتدي عباءتها وخلفها خادمها وكلبها وتتجه إلى المقبرة، حمال يضع أكياس الخيش على ظهره ويمر، حمار وبغل مربوطان مع بعضهما يسوقهما السقاء ويدخل إلى أحد العقود، وفي النهر كانت الباخرة التركية مرمريدس تروح وتجيء، الباخرة مرمريدس طويلة الحيزوم تشق موج دجلة الأصفر كل مساء بأضوائها المتعددة وبمدفعها الكبير الموضوع على سطحها، وبصوتها الموحش الكئيب الذي تطلقه كلما مرت من خلف القشلة همايوني، مرمريدس التركية في دجلة، وعلى الطرف البعيد تتعالى قرعات طبول السفر برلك، بينما هرب التجار والعمال من مكاتبهم وأعمالهم، وذهبوا إلى منازلهم واختفوا فيها.

*

(رزق الله أفندي..) قالها بصوت مسموع، ونهض من مكانه حيث كان مضطجعا على السرير، واتجه بخطوات متثاقلة إلى نافذة البرج في القشلة همايوني.

أخذ يحدق بعينيه المتعبتين إلى جهة الشمال، إلى زقاق صغير يتفرع من الأكمكخانة ويقود إلى محلة جديد حسن باشا، كانت هنالك أصوات كثيرة تختلط مع بعضها وتتعالى، وعلى مقربة من بوابة القلعة الحديدية الكبيرة كان هنالك ثلاثة جنود أتراك يسيرون ببطء وهم يلفون رؤوسهم المدماة بضمادات بيض سميكة، فعرف مباشرة أنهم عائدون توا من ميدان المعارك التي تدور قريبا من بغداد، بعد قليل، مرت بالقرب من طوب القلعة، طوب أبو خزامة الموضوع على منصة كبيرة وعالية وقد انطفأت الشموع التي تحيط به، ممرضة ألمانية شقراء ترتدي صديريا بلونين، وتضع على رأسها شريطا أبيض، ورأى عند كتفها شارة الصليب الأحمر بلون قان ومشع، مرت بخطوات سريعة وقد حمل اثنان من الجنود



ضابطا تركيا على نقالة وساروا وراءها، وعند العطفة القريبة مرت مجموعة من البغال المربوطة مع بعضها يقودها أحد حراس السراي، وعند باب القشلة همايوني أحدثت عربات السرقمسير ورئيس الجندرمة وآمر اللواء السابع وعربة شيخ الإسلام قرقعة في الطريق اختلطت مع صوت خليل باشا الواقف على المساحة المبلطة التي تحيط ببوابة القشلة همايوني وهو يجادل الضباط الأتراك بالقرب من سيارته الفورد أم اللوكية.

لقد خرج الضباط الأتراك بملابسهم الكاكية وقلباغاتهم الفرو على رؤوسهم وهم يمسكون عصي التبختر بأيديهم من الاجتماع الذي دعا إليه الباشا لمناقشة وضع الجيش المنكسر والمهزوم في ميدان المعركة، وقد اقتنع الباشا أخيرا وهو يقف أمام بوابة القشلة همايوني بالانسحاب من بغداد أمام الجيش الإنكليزي الذي يقوده مود، على أن يفجر باب الطلسم الذي يحوي كل ذخيرة البارود، وأن يغرق جسر الدوب في النهر، ويحطم محطة اللاسلكي، ويغرق المدافع والرشاشات والمعدات التي لا يمكنه نقلها في الترامواي من الكاظمية إلى سامراء.

*

هبت ريح عنيفة وقوية وأخذت تهز حافة النافذة الزجاجية الصغيرة في برج القشلة همايوني بقوة، لقد أحدثت صوتا كئيبا حزينا وموحشا، فشعر محمود بك في تلك اللحظة بطلائع عاصفة ترابية ستهب من جهة الجنوب وتتجه إلى الشمال، عاصفة ترابية عنيفة ستضرب بغداد قبل أن تدخلها سرايا الجيوش الإنكليزية المحتلة.

اهتزت قدماه وما عادت قادرة على حمله، فوضع يده على البشتختة وجلس، ثم نهض، عدل قيافته ونظر من النافذة إلى التجار الذين ركبوا جيادهم تحت جنح الليل وهم يحملون بضائعهم التي يتسلمونها من البوسطة خانة على شكل طرود ويبيعونها إلى كورجي بن شاؤول في خان شعشوع: الألبسة الحريرية والساعات والدانتيلات والمجوهرات والأشياء



الثمينة والصغيرة الأخرى التي تأتي من أوربا على شكل طرود كبيرة وصغيرة يبيعها التجار إلى المضاربين اليهود ويهربون على جيادهم خارج بغداد. قال محمود بك مع نفسه:

(إن باع التجار بضائعهم لكورجي بن شاؤول هذا يعني إن الإنكليز اقتربوا... إن أحرق الضباط مخزن البارود في باب الطلسم... وأغرقوا جسر الدوب في النهر... وأحرقوا البنايات الرسمية... وحمل موظفو الولاية السجلات واتجهوا إلى القطار في الكاظمية يعني الإنكليز اقتربوا... إن حملت اللوريات الكبيرة الجنود الألمان واتجهت إلى الجسر يعنى الإنكليز اقتربوا).

مر بضعة جنود من تحت نافذة برج القشلة همايوني وهم سابحون بدمائهم، وعلى مقربة من جامع الأوزبكية جنود جرحى يشحذون كسر الخبز من البيوت، ومن جهة اليمين خرج الشيخ أمين بعمامته وعباءته وهو يحمل القرآن في يده، ويحرض المؤمنين على قتال الأمم الكافرة.

هرب بكجية القشلة همايوني وهم يصرخون: (إخلاء.. إخلاء..).

(سيخلون بغداد.. والله عجيب.. ستتخلى الدولة الإسلامية عن بغداد للأمم الكافرة...).

صعد الباشا سيارته الفورد أم اللوكية وغادر القشلة همايوني، أطلق الحوذية الخيول للضباط والجنود وهم يحملون بنادقهم المارتيني والقبغلي ولوحوا بسيوفهم وانطلقوا وهم يحطمون بطريقهم الفوانيس المعلقة على الجدران ويحرقون هري التبن في المذاود، أشعل الألمان النار في البنايات الرسمية، وهنالك مجموعة من الجنود والجندرمة يتقدمهم السرقمسير أخذوا يحرقون ذخائر البارود ويغرقون الجسر في النهر.

عاد محمود بك إلى السرير وقد شعر بقشعريرة تجتاح جسده، لقد شعر بقرب الإنكليز، شعر بقربهم كما قال له يوما عمر الموصلي حين



جاءه من أجل شريكه رزق الله بن نعومي أفندي، يوم التقاه في بازار البولنجية:

(اطلقوا سراح ابن نعومي وإلا راح الإنكليز بعد كم يوم يحتلون بغداد ويطلقون سراحه..).

*

(ابن نعومي... نعم.. نعم..) قال محمود بك وهز رأسه هزتين أو ثلاث وهو ينظر بوجه عمر الموصلي الذي كان يشرح له قضية شريكه، يتكلم بهدوء ومحمود بك ينظر إليه وهو يخلع طربوشه الأحمر من رأسه ويمسكه بيده، ينظر إليه باندهاش كامل، ينظر إلى مونوكوله الذي يلمع موضوعا على عينه اليسرى، ينظر إلى شواربه السود المقلمة، إلى ياقته البايمباغ المرفوعة، وهو يقول:

(رزق الله أفندي أخذونو الجندرمة من بقاليتو.. وهو كان أعطى صاحب السعادة البرطيل حتى يخلصو من هذي الورطي.. قالوا إنو يتعاون مع الإنكليز.. وهارب من السفر برلك...).

(شتريد بالضبط). قال له محمود بك وهو يضع السيجارة اللف في فمه.

(يعطينو برطيل مرة ثانية ويطلقون سراحو).

(صعبة).

(ليش صعبي... يقولون أنو أنور باشا أعطى أوامر بإعدام نصف الهاربين من السفر برلك).

(نعم ورزق الله من اللي راح نعدمهم بكره).

(الله يخليك إذا خلصتونو من هذي الورطي الله يخلصكم من نار جهنم).

*

سار محمود بك على جواده الأطهم وسرجه التتري الجميل إلى



القشلة همايوني، ذهب إلى صاحب السعادة، كان وجهه جافا يابسا ذلك اليوم، وكان أحد الخدم ينظف له البالطو بالفرشاة، كان قميصه الحرير مكويا ويهفهف، وطربوشه نظيف، ولا توجد عليه ذرة غبار واحدة. حدثه بما رآه اليوم من عمر الموصلي الذي يعمل عند رزق الله نعومي في متجره، قال له بكل صراحة إنه كان يظن بأنك أعلمت الجندرمة بالأمر، ولم يستغرب صاحب السعادة ولم يصفر وجهه أبدا، إنما بدا عاديا تماما، قاطعه بهدوء وقال بالتركية:

(كم يدفع هذه المرة).

(أكثر من الأول).

(طيب اتفق معه على المبلغ وأنا أتدبر الأمر).

*

في الساحة المبلطة بالطابوق في القشلة همايوني، ركب محمود بك جواده، سار ببطء من البوابة واتجه صوب متجر رزق الله ابن نعومي أفندي، كان المتجر خاويا، لأن الجندرمة نهبوا كل شيء، وفي نهاية المتجر كان هنالك باب يفضي إلى المخزن، دفع الباب ودخل، فوجد عمر الموصلي جالسا على التخت المفروش بالسجادة القرمانية ويثرثر مع خضوري ماسك دفاتر بيت الشابندر، وحين رآه الأخير أخذ يرتجف، وضع قلمه خلف أذنه، استدار من خلفه، فتح الباب، وهرب.

كان إبريق القهوة الساخن موضوعا على البشتختة، والخبز الأفغاني في الطبق الخوص، وهنالك قيمر المعدان في الصحن الفرفوري، أبيض ودسم ورائحته شهية، ما أن جلس حتى أخذ يضع القيمر على الخبز الساخن ويلتهمه، بينما الموصلي يصب له القهوة في الكوب القاشاني، ويناولها له وهو واقف.

(صاحب السعادة يريد المبلغ).

(من يخرج رزق الله أفندي نعطينو).



(لا . . يريد المبلغ مقدما).

(أعطيني مهلة).

(بعد ساعة وأنا جالس هنا. . لو. . . ترا. . الظهر. . رزق الله. . ينعدم).

*

خرج عمر الموصلي كي يستدين من ابن الشابندر.

أخذ محمود بك يفتش دولاب الملابس في الحجرة، أخذ يقلب، يشيل ويحط بالصحف والمجلات العربية والتركية، كانت هناك: صدى الإسلام لرؤوف أفندي العمري، المقتطف ليعقوب صروف، الزوراء، الشهبال. دخل عليه عمر الموصلي، جاء له بمحفظة مملوءة بالمجيديات، قال له بأنه استدانها من ابن الشابندر. وفي اليوم ذاته قام صاحب السعادة باستبدال رزق الله أفندي ببنيامين بن يعقوب المطهرجي، بنيامين اليهودي الختان الذي يقطن في محلة القشل لم يكن فارا، إنما جاء وسلم نفسه إلى سرقمسير الجندرمة في القشلة همايوني بعد أن وقعت قرعة السفر برلك عليه، وقد جره نفر الجندرمة بقوة إلى الساحة المبلطة القريبة من سياج البوابة، وهناك، أمام جماهير العامة، شدوا يديه على العمود وأغمضوا عينيه، وضربوه على رأسه بالطبوز الحديد، وهو يصيح: (يا ناس والله مظلوم).

في اليوم ذاته جاء آل الجادرجي يتوسطون لابنهم كامل، قالوا إنه مريض، وإن صحته لا تحتمل السفر برلك، أعطوا هدية كبيرة للباشا واستبدلوا ابنهم بجاسم بن علوان الذي يعمل عتالا عند بيت كمونة، غير أنه تخلص من قرعة الإعدام ورحل في السرية التي عسكرت قرب نهر ديالى وتخصصت في حفر الخنادق والسوبيرات، يقول إسماعيل الكدشجي لجاسم ابن عبد الهادي السلمان الذي يبيع بسوق البسطية بالقرب من خان اللزمة: فلت أبناء الجواهرجية، والتجار، والجلبية،



والبكوات، ووقع فيها الطرزي، والنجار والشحاذ والإسكافي والعطار والحلاق والصفار والحمال.

*

بنيامين ابن يعقوب الذي أعدمه جمقدار الجندرمة بضربه واحدة على رأسه بالطبوز، هو ختان القشل الذي يعمل في داقمية عبد الرحمن الحكيم الذي ختن أبناء الباشوات والأغوات والسعاة والجاوشية والجلبية والبزركانية والتجار، كان يحمل جنبر الختنة على صدره حلقة دائرة، ويمسك جراب الخيش المطرز بقصب أصفر ومخيش باللؤلؤ بجملة واحدة «مطهراتي في معشب عبد الرحمن الختان» ويسير في شوارع وأزقة الأحياء والعقود.

(بنيامين المطهرجي..) قال محمود بك وهز رأسه لصاحب السعادة هزة أو هزتين، وتذكره، تذكر اليهودي الذي يحمل تصريح بيورلدي لختان المسلمين لا من الباشا حسب إنما من العلماء والشيوخ والخنكارية، تذكره وهو يحمل جنبر الحلاوات والملبسات والكعك المصنوع بالعجمية والسكر والغريبات والخشكنانكات والمربيات للمختونين، تذكر جرابه المصنوع من الخيش وهو يحمله على صدره وقد ملأه بقلف المختونين وهو يصيح:

(ما كو سيد ولا شيخ ولا أفندي ولا جلبي من اليهود والمسلمين ما عندي لحمة منو بجرابي).

(بنيامين...) وهز يده يمينا وشمالا، هز يده مستهزئا لأنه لا يمشي إلا وراء عبد الرحمن الحكيم صاحب المعشب في سوق الدهانة والصدرية، عبد الرحمن الحكيم الذي ختن أبناء الباشا حسن وفيق يوم المولد، فجلس بنيامين بصدر المجلس وفرق على الجالسين القلايا وقصاع الرز والزردة، وفرق صدقات الباشا على المحتاجين، وقد سار ذلك اليوم ماشيا بجانب عبد الرحمن الحكيم وبيده عكازه ومن خلفه أطفال المحلات الذين ختنهم، لابسين الثياب الكشميري والعرقشينات



المزركشة، وحملهم حراس السراي في القوارب والبلام للفرجة على النهر، وفي الأزقة ضرب الباشا سرادقات الضيافة فجاءته الهدايا والأغنام والجواميس والسمن والعسل من العربان والتجار والأعيان والسعاة والأغوات، وفي الميدان اجتمع أهل الزورخانات ولعبوا الألاعيب، وغنى أصحاب المزيقة والجالغيات، وعلق اللمبجية القناديل والفوانيس والوقدات حتى الصباح.

وفي ذلك اليوم أمر الباشا وفيق أن يدفع من دفتردارية الولاية أجرة ختان كل طفل من أطفال البغداديين يختن مع أولاده لعبد الرحمن الحكيم الذي جعل على يمينه بنيامين بن يعقوب الختان، وعلى يساره سوادي الطبال الذي يقطن الجوبة، ومع أول ضربة طبل مصنوع من جلد الإبل، تجمع أهالي بغداد من جميع المحلات والعقود في الميدان الكبير بعد أن أزاحوا العربات، وقد قدموا صغارهم وهم يرتدون الدشاديش البيض ويضعون على رؤوسهم العرقشينات المزركشة، ويحملون بأيديهم الصواني النحاسية التي تحمل طاسات الحنة وأغصان الآس الصغيرة والصحون الصغيرة التي تحمل السكاكرات والملبسات، فأجلسهم عبد الرحمن الحكيم على طرفي الجادة الصغيرة القريبة من جامع الأوزبكية على البسط الصوف والحصران الملونة والوسائد المنقوشة، وبعد أن رفعوا دشاديشهم إلى بطونهم ومدوا سيقانهم، برزت أعضاؤهم إلى الأعلى، فانحنى يعقوب بن بنيامين، ليبتر القلفة بالموسى ويضعها في جرابه، ثم يشد القضيب بالخرقة، وعبد الرحمن خلفه يصب عليه قطرات من الترياق والعنبق، كان صراخ المختونين يتعالى في الميدان الكبير الذي احتشدت به الأهالي مختلطة بزغاريد النساء، وضربات الطبل المصنوع من جلود الإبل الذي يدق به الزنجي الذي كان يقطن الجوبة، الزنجي الطبال.. قال محمود بك في نفسه وقد تذكر تلك اللحظة كيف أخذه إلى السفر برلك بعد أن داهم الجوبة هو والجندرمة الذين كانوا معه، تذكره وهو ينظر من نافذة البرج الزجاجية التي أخذت تحدث صوتا كئيبا



وموحشا بسبب العاصفة الترابية التي هبت بعنف وأخذت تدمدم وتزمجر وتقلع الجينكوات من أسيجة السطوح.

وقف محمود بك متذكرا ما قاله منيب أفندي يوما وبصوت عال عن عبد الرحمن الحكيم وبنيامين بن يعقوب وسليمة السحارة وكاظم المنجمجي وقراء الكف وضاربي الرمل والكشافين الخرس والعطارين وأصحاب الخرز والبازبندات:

(لو جاء الإنكليز وفتحوا الخستخانات العظيمة بعد ماكو شغل ولا عمل للعشابين والسحارين والعطارين..).

(طبعا.. طبعا..) قال محمود بك بصوت مسموع مع نفسه، ولهذا كان عبد الرحمن الحكيم يشتم في الليل والنهار أصحاب الفكرة القردية والطب الأوربي، من جميل أفندي إلى سيروب الأرمني الذي كان يعمل في خستخانة المجيدية.. تساءل: ماذا سيعمل عبد الرحمن الحكيم إذا أتت الخستخانات والدقتورلكات الفرنساوية والإنكليزية، ماذا يعمل الحكيم الذي درس الطب والحكمة في كتب داود الانطاكي، وأبو قراط، وجالينوس، والرازي، وابن سينا، ولم يقرأ توفيق فكرت أو عبد الحق حامت أو صفاء بك أو جميل أفندي الزهاوي أو شبلي شميل ولا يعقوب صروف، ولم يتحدث عن داروين أو نيوتن أو نيتشة أو كبرنكوس أو كانطة أو ديلامون، إنما مثله مثل كل المعممين في بغداد الذين درسوا في جامع الحيدرخانة أو في جامع الآصفية أو في جامع الشيخ معروف، أو في الحوزة العلمية في النجف، مثله مثل كل الشيوخ المعممين الذين درسوا الأجرومية، وقطر الندى، وشذور الذهب، والألفية في النحو، وابن الحاجب في الصرف، ومراقي الفلاح في الفقه، والبيضاوي والنسفي والزمخشري وموطأ مالك وصحيح مسلم في التفسير، والإيساغوجي في المنطق، والمختصر والمطول للتفتازي في البلاغة، وشرح الزينية في الفرائض. هؤلاء بعد أن تأتي الخستخانات الإنكليزية والدقتورلكات النظيفة ماذا يعملون؟



(منو أحسن ممرضة بيضة وحلوة مثل هذي الألمانية اللي تشتغل بالصليب الأحمر الألماني لو حسنية السحارة. . . ؟). قال منيب أفندي.

فاضطرب محمود بك، تلجلج أمامه في الكلام، ثم ابتسم وهز يده: (هاي وين. . ذيك وين. .).

ومع ذلك، ما كان عبد الرحمن الحكيم عاطلا عن كل معرفة بأوربا، فقد زاره محمود بك أكثر من مرة في منزله، وحين دخل إلى مكتبته أول مرة اندهش من وجود كتاب أبو طالب خان (مسير طالب في بلاد الإفرنج) وكتاب الطهطاوي في رحلته إلى باريز، وكتاب الساق على الساق لأحمد فارس الشدياق، وقد علق على الحائط المقابل لمكتبته خريطة كبيرة لأوربا والعالم كان قد رسمها البحار الفرنسي إخلاصي شيخ محمد أفندي الذي اعتنق الإسلام قبل قرن تقريبا، وقد ضمنها في كتابه (لوامع النور في ظلمة أطلس مينور) والذي ترجمه حاجي خليفة إلى التركية، ووجد تعليقات بهرام الدمشقي على نظرية كوبرنكوس، وكتب الطبيب الإنكليزي سيدنهام المترجمة إلى العربية منذ عهد السلطان عثمان الثالث، وبعض الكتب الأوربية لفولتير ومنتسيكيو التي ترجمها راغب باشا، وقد عرف محمود بك ذلك اليوم أن عبد الرحمن الحكيم وبالرغم من عدم اعترافه بمعارف الأفندية إلا أنه يعرف عنها الكثير، ولم يكن أقل نفعا من خستخانة سيروب الأرمني، فهو يوزع المشافي على الفقراء في قواريره الهندية، وهو يحجم الصغار والكبار، ويبصق في فم العاقر لكي تنجب، ويحفظ كتب السحر والتنجيم، ولديه اصطرلاب في بيته، فيعرف مواقع الأفلاك والشموس، وله القدرة على تحديد البشائر والنحوس والتي كانت تدور على بغداد تلك الأيام، وقد عرف بالطاعون والفيضان قبل أن يحل الطاعون وقبل أن يحل الفيضان، وقد عرف بموت القائد الألماني درغولج الذي كان قائدا على جيوش بغداد قبل موته، وكان العامة يسمونه قولنج، وعبد الرحمن الحكيم هو الذي أطلق هذا الاسم على كل مرض غريب ومجهول يؤدي إلى الوفاة، وكان أهل بغداد وجماهيرها



وعامتها يدعو أحدهم على الآخرب:

(عساك بقولنج يصيبك ببطنك..).

وقد عرف عبد الرحمن الحكيم أيضا بانكسار الإنكليز قبل أن ينكسر الإنكليز في حامية الكوت، سأله محمود بك يوما، وكان الأتراك يحاصرون الجيش الإنكليزي في الكوت:

(يا حكيم منو راح ينتصر خليل باشا قائد جيوش بغداد لو طوزند قائد الإنكليز في الكوت..).

قال عبد الرحمن الحكيم بصوت واثق: (خليل باشا... طبعا).

لقد قال الشيء الصحيح، لقد تنبأ بالفعل بما كان دائرا في جبهة الكوت، لقد عرف عن طريق الغيب كيف ركب كاظم باشا على جواده الأبيض وتقدم إلى أمام، ويده على مسدسه الفرد الموضوع إلى جانبه، وقد سار خلفه رتل طويل من الجنود الأتراك بملابسهم الحربية، وهم يحملون بأيديهم بنادقهم المارتيني والقبغلي الطويلة وقد شكوا في مقدمتها القسطورات البيض الحادة، ساروا باتجاه الحامية الإنكليزية المستسلمة في قلعة الكوت تتقدمهم الطبول، واقتربوا من موقع القائد طوزند، لقد تنبأ بأهالي الكوت الذين استقبلوا كاظم باشا بالهلاهل والهوسات، واندفعوا نحو الجيش التركي المنتصر بعد أن رفع جنود الإنكليز الأعلام البيض على المتاريس، وفي الطوفة كان حميدي البلام يصرخ:

(طاحوا الإنكريز... طاحوا الإنكريز).

وحينما مر محمود بك ذلك اليوم بالقرب من تياترو الهلال في الميدان كانت منيرة اليهودية تغني بصوتها العذب عن القرنة في البصرة التي ظلمت بعد احتلال الإنكليز لها، وقد تركوا حكمها للهنود:

(مظلومة بالقرنة نصبوا جسر فيك... من بعد عسكرنه هندو حكم فيك).



لقد تنبأ عبد الرحمن الحكيم بهذا الانتصار الذي لم يتنبأ به لا طبيب ولا ممرضة إنكليزية في الخستخانات والدقتورلكات الإنكليزية، لقد تنبأ بحصار الكوت عن طريق الكشف، تنبأ باليوم الذي انتصر فيه الأتراك على الإنكليز وأسروا قائدهم طوزند، فتذكر محمود بك في تلك اللحظة بالذات خسارة الأسطول الإنكليزي أمام الأسطول العثماني في الدردنيل، وتذكر معها هذه الأفراح الحربية والانتصارات والطونانمات، وتساءل في نفسه وهو يطلق زفرة ساخنة من نافذة البرج في القشلة همايوني:

(ماذا لو استمر هذا الانتصار... وتقهقرت جيوش الإنكليز إلى الخلف..).

(إلى الخلف... إلى الخلف..) قال بصوت مسموع.. فبدلا من أن تتقدم جيوش الإنكليز التي يقودها مود قائد قوات دجلة إلى أمام، بدلا من أن تتقدم قوات الغازين الكفرة إلى أمام.. بدلا من أن تتقدم بسراياها وألويتها ومدافعها وطائراتها وتقترب من بغداد، وينسحب أمامها الأتراك بجندرمتها وجيشها وضباطها الجرحى، ويتراجع جيش المسلمين إلى الخلف.. بدلا من ذلك يتقدم الجيش التركي مع العشائر والمتطوعين والمجاهدين، يتقدم جيش المسلمين ويندحر الكفرة أعداء الدين.

(لكن التركي هم محتل.. مثله مثل غيره.. محتل...) ترددت في أذنيه كلمات منيب أفندي الحادة والقوية.

(محتل مسلم ولا محتل كافر..) ترددت في أذنيه كلمات الشيخ أمين، وهو يقترب من النافذة التي أخذت تخفق من شدة الريح، ترددت في أذنيه هذه الكلمات وهو يحدق بعينيه المتعبتين إلى السماء التي أصبحت حمراء وقد أخذت العاصفة الترابية الشديدة الهابة من جهة الجنوب تقلع الأبواب وتطير الصفائح من السطوح، ترددت كلمات الشيخ أمين واختلطت بكلمات منيب أفندي ومن بعيد كان يسمع: (إخلاء... إخلاء..). كان ينظر إلى اللوريات التي تحمل الجنود الألمان وتتجه من الشورجة باتجاه الجسر إلى المحطة، ينظر إلى الجرحى السابحين بدمائهم



وهم يلتجئون إلى الجوامع والمحلات العامة بعد أن امتلأت المستشفيات بهم، ينظر إلى الجنود وهم يضرمون النار في دار الحكومة والمستودعات ويحرقون الجسر الذي بين الكرخ والرصافة، ينظر إلى اضطراب الناس في الليل بعد أن صعد المؤذنون على المنائر وأخذوا يصيحون بأصواتهم الباكية:

(يا قريب الفرج... يا فارج الفرج... يا من فرجك قريب..).

لقد شعر بخوف شديد بلده، وأرعشه وهو واقف في مكانه، لقد شعر برعب شديد من مشهد الجيش الهارب والفار والمنسحب أمام تقدم الإنكليز، قال من أين يأتي الفرج إذا هرب الجيش وانسحب أمام الإنكليز وتجمع أمام القطارات في محطة الكاظمية والمتجهة إلى سامراء، من أين يأتي الفرج؟.

قال محمود بك وتذكر عبد الرحمن الحكيم قبل عام حين ذهب إلى قهوخانة القيصرية في خان الأورطمة، ليستمع إلى حكايات حميد القصخون.

هبط من بغلته البيضاء وربطها إلى شجرة كبيرة وارفة قبالة القهوخانة، كانت لحيته حمراء كثة الشعر، تميل إلى اللون الرمادي، وكان وجهه حاد القسمات، وكرشه الكبير يتقدم إلى أمام وقد لفه بقطعة من حرير، جلس على القنبة المواجهة للقصخون مباشرة، وضع إصبع النارجيلة في فمه وبقراج القهوة في اليد الأخرى، وفتح عينيه كلتيهما وهو يستمع إلى قصة السندباد الذي يصارع السجانين في جزيرة منفية في البحار، فجأة أغلق حميد القصخون كتابه الكبير الذي كان يحمله وهو جالس على كرسي موضوع على دكة عالية بصدر القهوخانة، وقال لهم بصوت خشن حاد النبرة:

(وبعد أن قبض حراس السجن على السندباد شدوا إيديه وخلوه بالحبس... وباكر المسا أكمل لكم باقي القصة...).



فز جلاس القهوخانة من مكانهم واضطربوا، وصاحوا صيحات متداخلة ومتمازجة مع بعضها لأنهم لا يستطيعون النوم هذا اليوم والسندباد بالحبس، فجأة قفز عبد الرحمن الحكيم من مكانه وصرخ بحميد القصخون الذي طوى كتابه إلى جانبه، وأخذ يضع أقدامه بنعاله متهيئا للمغادرة، قبض عليه عبد الرحمن الحكيم من خناقه وسحب خنجره ووضعه على عنقه وقال له:

(لك حميد... أبن النعال... تخلي هالساعة السندباد يقتل السجان ويطلع من الحبس لو أسيح دمك على التراب).

أخذ حميد القصخون يرتجف في ملابسه، عاد إلى مكانه، فتح الكتاب، قلب صفحة أو صفحتين، ابتسم لهم ابتسامة خائفة، ثم قرأ لهم كيف قتل السندباد حراسه وهرب ونجا وتزوج وأثرى، فتنفس الجالسون الصعداء.

لو كان إخلاء بغداد، وانسحاب الأتراك أمام الجيش الإنكليزي قصة من قصص السندباد في كتاب حميد القصخون، لفعل محمود بك ما فعله يوما عبد الرحمن الحكيم في قهوخانة القيصرية، لنهض من مكانه الآن، وسحب سيفه ووضعه على عنق القصخون وقال له:

(اكسر جيش الإنكليز وغرقهم بالطوفة وانصر جيش المسلمين وخلي الناس تفرح... وافتح لهم باب الفرج..).

لو كان الحريق الذي يراه الآن محمود بك وهو يشب في دوائر الولاية قصة من قصص حميد القصخون، لو كان الجنود السابحون بدمائهم وهم يلتجئون إلى الجوامع قصة مجرد قصة، لو كانت اللوريات الألمانية الهاربة، والنفر الذي يحرق دوب الجسر ويغرقها في النهر قصة.. أو خرافة من الخرافات، لما احتمل محمود بك هذا الأمر لحظة واحدة، ولجعل حميد القصخون يغير الخرافة، لو كان المنظر الذي يشاهده الآن من نافذة برج القشلة همايوني صفحة من كتاب لطوى هذه



الصفحة. . لكن الجيش العثماني ينسحب الآن من بغداد أمام عيني محمود بك، والإنكليز يتقدمون، وبعد ساعات سيدخلون المدينة، وحميد القصخون نائم في قبة القيصرية خلف خان الأورطمة، لو كانت المسألة برمتها لا تتعدى سؤالا يسأله لعبد الرحمن الحكيم، كما سأله يوما في قهوخانة القيصرية:

(يا حكيم منو راح ينتصر إحنا لو جيش الإنكليز والأمم الكافرة).

فقال له عبد الرحمن الحكيم: (طبعا إحنا. .). دون أن ينظر إليه، قالها دون تفكير ولا تدبير، قالها دون تأمل، قالها بشكل واثق ومتحمس، وكأنه كشف بالغيب، أو تنبأ، قالها هكذا دون أن يعرف ذلك اليوم بهرب أكثر من ألف جندي بغدادي من الجيش العثماني الذي كان ملتحما بمعاركه مع الإنكليز بعد الكوت، قالها هكذا وكأنه يحدس ويتنبأ دون أن يعرف أن العشائر انقلبت على الجيش التركي وأخذت تنهبه وتسلبه بعد أن فر من المعركة، قال هذا وكأنه تنبأ وحدس وكشف وعرف كل شيء، بيد أن حدسه وتنبؤاته وكشوفه قد خانته، ولم يعرف بأن ولاء العراقيين للأقوى إذا كان الجيش العثماني قويا ومنتصرا فهم معه، مع الإسلام والجهاد ضد الأمم الكافرة، وإذا الجيش الإنكليزي هو المنتصر فهم معه يسلبون الجيش العثماني وينهبونه ويعدونها غزوة على الحكومة الظالمة من أي دين كانت، لم يكن عبد الرحيم الحكيم يعرف بهرب القوة الكبيرة المجندة من بغداد في الجيش العثماني، وصارت عصابات تشن الغارات على الترامواي، وعلى طرق القوافل، وأخذت تفرض الأتاوات على الناس.

دخل محمود بك على كاظم باشا في قصره المشيد من الحجر الأبيض بالقرب من سبع ابكار، دخل عليه ووقف أمامه في الأورسي، كان الباشا جالسا على تخت عال مزخرف، مصنوع من الساج الهندي، وأمامه منضدة مفروشة بملاءة بيضاء، وعلى النوافذ كان سعف النخيل وشجر النبق يتهدل، وهنالك بلكونة تطل على الحديقة، وببغاء في



القفص، وخيول مسرجة تلعب في الحديقة قبالة الاصطبل. قال لمحمود بك:

(أريدك أن تأخذ مجموعة من الجندرمة وتهاجم الفارين قرب الكاظمية).

وقد عرف محمود بك ذلك اليوم أن سالم جلبي تاجر البيض والبصل قد قتل، ونهب الدرك الفار قافلته، وعلى الجندرمة أن ينصبوا كمينا لهم، ولم ينطق محمود بك بكلمة أمام كاظم باشا، ولكنه في المساء سير مجموعة من الجندرمة دون أن يكون هو معهم لينصبوا للفرارية كمينا، وبدلا من أن ينصبوا كمينا، كان النفر الفار هو الذي نصب للجندرمة كمينا:

ما أن وصل الجندرمة إلى التل من جهة السميلات حتى أطلق الدرك الفار عليهم النار، كانت هيئاتهم مرعبة: ملابسهم ممزقة، ولحاهم طويلة، وقد خلعوا قلباغاتهم من على رؤوسهم، وحين رأوا قوة الجندرمة الضعيفة هجموا عليها بخيولهم، ففرت الجندرمة أمامهم، تاركة لهم أسلحة وعتادا ومؤونة.

في المساء وقف محمود بك أمام كاظم باشا، قال له:

(باشا إحنا بحاجة إلى قوة كبيرة..).

بدلا من أن يعطيه قوة كبيرة، بصق في وجهه.

عرف محمود بك ذلك اليوم أن التنبؤات والحدوسات والكشوفات وضرب الرمل والبازبندات كلها سقطت أمام الدقتورلكات والخستخانات والأفكار التي كان يبشر بها سيروب الأرمني الذي كان يعمل في خستخانة المجيدية، وسقطت معها الأجانصات والأخبار الكاذبة التي تنشرها الحكومة، والتي يوزعها رزوقي في الأكمكخانة، لقد قرأ في الأجنصات والأوراق المطبوعة في المطبعة الحربية في استنبول، أن الجندرمة العثمانية أبادت العصابات الهاربة من جهة السميلات في الكاظمية،



وقبضت على من بقي منهم حيا دون خسائر، وقرأ عن انتصارات الجيش التركي المتلاحقة وتقهقر قوات دجلة بقيادة مود قرب بغداد، كما قرأ يوما تقهقر هذه القوات في الكوت وتقهقرها في الديوانية وتقهقرها في الناصرية وتقهقرها في البصرة وقد صدق منيب أفندي حين سخر يوما من الشيخ أمين قرب سياج جامع الآصفية وقال:

(هذا أول تقهقر يتقدم للأمام..).

كانت أخبار الأجانص المتفائلة والمنتصرة والبليغة شيئا، والوقائع على الأرض شيئا آخر، كانت أخبار الأجانص التي يجلبها رزوقي- مبتسما بدشداشته المخططة التي يضع ذيلها بحزامه الجلد وعرقشينته البيضاء على رأسه- تحوي العفو عن الهاربين، واندحار الروس أمام جيش الترك والألمان، وانسحاب الجيش البريطاني من الكوت والبصرة والدغارة، وخطة الجيش العثماني والألماني بتدمير الأعداء، وقصائد جميل أفندي عن هزيمة الغرب الكافر أمام جيش المسلمين، ومقالات إبراهيم حلمي العمر وخيري الهنداوي وحكمت ثريا بك والأفندية المبتهجين بانتصار جيش الإسلام على جيش الكافرين، غير أن الوقائع على الأرض كانت تقول شيئا آخر، شيئا عرفه محمود بك وخبره من خلال الوقائع، والتي كان شاهدا هو بنفسه في بعضها، مثل هرب الجندرمة في السميلات أمام النفر الفار، والعشائر التي أخذت تنهب الجيش العثماني المتقهقر في كل مكان، وهرب المسفرين بالقرعة وتحولهم إلى عصابات تهاجم القوافل وتفرض الأتاوات على الأهالي، ودعاء العامة في الليل والنهار للخلاص من الجندرمة وموظفي الضرائب، والعقوبات البشعة، والرشاوي، والاستهتار الحكومي، ومصادرات الميري، وظلم السفربرلك، وكان اللصوص والآداب سزية والنهابين والسلابين وشذاذ العامة ينتظرون فقدان الأمن وتقهقر الحكومة للسلب والنهب واستباحة المنازل والمحلات والأسواق والدكاكين، وأخذ الثارات واغتصاب النساء وسرقة الأموال والأطفال وإشعال الحرائق في كل مكان.



لقد كان الأجانص لفة من الأوراق الطرية في جيب رزوقي، لفة من الأوراق المطبوعة في مطبعة الولاية توزعه الحكومة مجانا على الناس، يلف بها رزوقي أزقة بغداد وعقودها وأحيائها وهو يصيح بأعلى صوته: (أجانص.. أجانص..) فتظهر سنه الأمامية المخلوعة، وكان محمود بك يدرك أن هذه الأخبار كاذبة، وإن طلائع الجيش الإنكليزي ستدخل بغداد، وإن الجيش العثماني يتقهقر، والأفندية الذين يكتبون القصائد في صدى الإسلام كلهم كذابون فهم ينتظرون اليوم الذي يدخل فيه الإنكليز إلى بغداد وتتحول إلى مدينة على الطراز الأوربي مثل لوندرة وباريز، تنفتح أزقتها على نفسها، وتتوسع الدرابين والعقود والمحلات، وتتشيد المايخانات والمنزولات والملاهي والتياتروات وتتعهر المرأة المسلمة وتلبس التوكات والبرنيطات مثل الأوربيات، مثلما صورهن الكرادي في تنبيه الأنام، وتصير الخستخانات مكان المعاشب، والجامعات مكان الجوامع، والمزيقة محل الجالغيات.

نظر محمود بك بعينيه المتعبتين من نافذة برج القشلة همايوني وتذكر قصيدة جميل أفندي التي يتحدث فيها عن هزيمة الغرب الكافر، عن هزيمة أوربا الداعرة المنحطة أمام عظمة الجيش المسلمين، تذكر الزهاوي وحديثه عن دارون والفكرة القردية، تذكر الزهاوي والحذاء الإنكليزي في خان الاسكجية، تذكر حديثه عن عظمة الغرب وانتصاراته، عن تخلف الأمة واندحارها، تذكر حديثه عن الفكرة التطورية والبقاء للأصلح، عن السوبرمان الغربي الذي جاءنا طائرا بألف جناح، قال في نفسه:

(معقولة هذا الزهاوي الذي يبشر بهزيمة أوربا في قصيدته.. وفي القهوخانة يتحدث عن أوربا السوبرمان التي جاءت.. لأن البقاء للأصلح).

وقد رأى محمود بك جميل أفندي الزهاوي ذلك اليوم وهو راكب حماره الحساوي الذي وضع عليه سرج ولجام حصان، رآه وهو يمر من



سوق شاؤول طوبه من خان قاب كهية جركسي، وقد رد طربوشه للوراء وهو يتصايح مع المكارية والحمارين والحوذيين والشقاوات والآداب سزية والشلايتية الذين ضحكوا عليه ورموا على رأسه القشور التي التقطوها من باب دكان كورجي ابن شاؤول كوهين، دلال الحرير في السوق الذي يمتلكه خضوري شعشوع، والذي يمتد من سوق شاؤول إلى خان خضوري باتجاه خان دلة، رموا على رأسه القشور وهم يصيحون وراءه:

(بالله فد سؤال. . أنت قرد من جهة الأب لو من جهة الأم. .).

مر محمود بك من هناك وقد رأى التجار وهم يضعون على دكات السوق الصناديق الخشبية المستطيلة التي يجيئون بها من خوزستان ويضعونها في الخان، الصناديق التي تحمل الفرفوري القيشاني وإلى جانبها يبيعون النعالات والعباءات والشرابات والعطور والبهارات، أما المؤونة التي يحتاجها الفقراء مثل الرز والطحين والزيت والبقوليات فقد أخفاها التجار من يهود وشابندرات وخضيريات وجلبيات وأخذوا يضاربون بأسعارها حتى جعلوا فقراء الناس يزحفون على البطون.

*

كانت الشمس تميل إلى الأصيل، وقد سكب الغروب على حافة الأفق غضارته الأرجوانية، بضعة زوارق تعبر النهر الرصاصي إلى الصوب الآخر من النهر، نساء يحملن الجرار الخزفية ويذهبن إلى الترعة، ومن بعيد أصوات البازارات المتداخلة تعلو وتهبط مع هبوط الليل، ومحمود بك يقف قريبا من دكان الصاغة يقرأ خطبة محمد كرد علي في قصر يلدز أمام السلطان بعد أن أوفده جمال باشا من دمشق إلى الأستانة مع محمد الباقر، وعبد الباسط الأنسي، ومحمد حبيب العبيدي الموصلي، بمناسبة هزيمة الائتلاف في حرب الدردنيل، فقد امتدح محمد كرد علي الانقلاب الدستوري العظيم، وامتدح جمال باشا الذي أعدم المشتغلين بالقضية العربية، وامتدح الحرب لأنها عمرت دمشق، وشن حملة على الخائن،



والخامل، والجاهل الذين وقفوا ضد الوالي جمال باشا، وقد أقر كل من محمد كرد علي ومحمد الباقر وعبد الباسط الأنسي ومحمد حبيب العبيدي بأن ما فعله جمال باشا بإعدام الجواسيس هو حق من حقوق الدولة العلية.

وقد أدرك محمود بك شيئا فشيئا أن الأفندية يقولون شيئا في القهوخانات ويقولون شيئا آخر في الصحيفة، وقد قرأ تلك الأيام عشرات المقالات التي كتبها الأفندية في الصحف الرسمية التي تصدرها الدولة والتي تشرف عليها الحكومة مختلفة عن الأشياء التي يسمعها في القهوخانات والخانات والبازارات، لقد قرأ مقالة لداود صليوة في الجرنال يقول فيها إن البغداديين مسرورين بالسفر برلك، وإنهم فرحون ومسرورون ومحتفلون، وإنهم شبعانون وقانعون وراضون، فاضطرب محمود بك وتلجلج وتبلبل أمام الدعوة السلطانية لمحمد كرد علي وعبد الباقر الأنسي ومحمد الباقر ومحمد حبيب العبيدي الموصلي لحضور قراءة كتاب الشريف البخاري على الأسطول الذي سيشارك حرب الإسلام ضد الكافرين.

(شريف البخاري شعليه بنصر المسلمين..) قال أحد الأفندية.

(أيها الناس اسمعوا وعوا إن قراءة الشريف البخاري على الأسطول هي وحدها التي تجعل الأسطول ينعم بنصر دائم..). قال أحد المعممين في خطبة صلاة الجمعة في جامع الأحمدية.

وفي اليوم التالي مباشرة، وقفت جماهير العامة أمام واحدة من أكثر الأفعال حدية وجرأة في عموم الأمة وذلك حينما دعا السلطان مجلس المبعوثان للتصويت على قراءة الشريف البخاري على الأسطول ومباركته، فاعترض الأفندية على ذلك، وكان الزهاوي هو أول المعترضين والساخرين من رجال الدين ومن السلطان ومن الشريف البخاري أيضا، لقد صعد المنبر وسط صراخ المعممين وصاح بأعلى صوته وهو يضرب بعصبية على لوح المنبر:



(الأسطول الحربي يسير على شريف البخار. . . لا على شريف البخاري).

وقد أدرك عموم الناس ومحمود بك من بينهم أن الأمة هذا اليوم مقسومة لا محالة بين أنصار شريف البخار وأنصار شريف البخاري، لقد أصبح الصراع مكشوفا هذه المرة بين شريف البخار الذي تسير عليه القطارات والباخرات والأطومبيلات والطائرات وبين صورة كتاب الشريف البخاري الذي تعيش عليه الإمبراطورية العثمانية وتتحرك وتحارب وتصادر، وهو شباك الكاظم الذي يطلب منه السلطان أن ينصره على الكفار، وكان الأفندية يتساءلون هل الحرب ضد الإئتلاف الأوربي والدخول مع ألمانيا في الحرب هي حرب إسلامية؟.

صاح محمود بك: (هذا جهاد. .).

أخذ الأفندية في القهوخانة يضحكون ويغمزون ويتهامسون، فالدولة قد ضعفت أثناء الحرب وتضعضعت ولم تعد مخيفة كما كانت، والإنكليز على مشارف بغداد يهددون أمن الأمة برمتها، ولم يعد محمود بك مخيفا ومرعبا ومتسلطا كما كان، فخرج من القهوخانة غاضبا بعد أن ألقى عليهم نظرة اشمئزاز واحتقار.

(ماذا جرى للناس) قال الشيخ أمين. لقد كان يائسا ذلك اليوم هو يسمع أن العرب يفرون من جيش الإسلام ويلتحقون بجيش الكفار، لقد كان يائسا ومبتئسا من الضباط العراقيين والجنود العرب الذين أسرهم الائتلاف وأخذوهم إلى جزيرة سمربور، ذلك لأن أكثرهم فضل الالتحاق بجيش الشريف حسين ضد جيش الإسلام، لماذا التحق نوري السعيد ومولود مخلص وياسين الهاشمي بالقوات العربية التي تحارب الدولة السنية؟

ارتعش مجذوب بالقرب منهما وصرخ، وأخذ فمه يزبد، كانت رجلاه ترتفعان وتنبسطان بقوة، وذراعاه ممدودتان متصلبتان، وكان



الظلام الداكن يخيم على المكان وقد اشتعلت الفوانيس بعد أن بدأ عبود اللمبجي بإشعالها، قابلوا في الطريق حميد السقا بحماره الذي يحمل القربة، وأكرته في يده وهو يؤشر على المنازل، كان يتحدث مع زوجة الحاج رشيد الدهان:

(هذا الدرب ويعد بس).

وكان محمود بك والشيخ أمين يسيران دون أن يكلم أحدهما الآخر، لقد كانا مندهشين من مواقف الأفندية المتناقضة والمتضاربة والمتعارضة، وكانا يعرفان أن المجتمع كله دون استثناء يصبح أمام السلطة الاستبدادية دون جهد كبير إلى جمهور كذاب، دجال، متناقض، ولكن الشيء الذي بلبل محمود بك وجعله يضطرب، هو جهله بموقف الأفندية الحقيقي، فالناس تنظر للأفندية بوصفهم المعرفة الكاملة، والحقيقة الكلية، والمجتمع كان بحاجة إلى نخبة ينظر نحوها، غير أن النخبة في بغداد كانت أكثر اضطرابا وبلبلة من مكارية العلوة عند تحميل الطماطم في يوم قائظ.

*

كان السؤال الوحيد الذي اجتاح محمود بعد أن سمع بالإخلاء، السؤال الذي لم يكن يعرف جوابه بالضبط مطلقا، هو ماذا سيفعل به الناس لو اندحر العثمانيون وجاء الإنكليز.. كان بمجرد التفكير بهذا الأمر، بمجرد مروره العابر في ذهنه، يشعر محمود بك بقشعريرة تجتاح كيانه كله، يشعر بخوف ورعب مهولين يغزوان جسده، كان يرتجف ويجلس على السرير ويضع رأسه بين يديه، ويمر في خياله مباشرة ما كان يفعله هو بالناس أيام السفر برلك، تمر في ذهنه صور كل أولئك الذين هددوه بأنهم سينتقمون منه، كل أولئك الذين قبض على أبنائهم الهاربين فأعدمهم السرقمسير في القشلة همايوني بالطبوز الحديد، فهل سيعذرونه لأنه عبد مأمور ضابط صغير بالجندرمة العثمانية، كوجك سي يعمل بالفرمان.



لم يكن محمود بك قادرا على منع نفسه من الخوف والارتجاف، لم يكن قادرا على منع نفسه من التفكير بما سيحدث، وهو يرى أن الجيوش الإنكليزية بعد ساعات ستدخل لا محالة إلى بغداد، سيدخل جيش الكفار لا إلى بغداد حسب إنما ستصعد طلائعه هنا في برج القشلة همايوني، وسيقف وللمرة الأولى أمام أوربا الكافرة وجها لوجه.

نهض من مكانه وعدل قيافته، رفع رأسه مثلما أوصاه الشيخ أمين حين قال:

(هذه الأيام تمتحن فيها الأمة الإسلامية..).

فجأة سمع محمود بك انفجارا رهيبا هزه من مكانه وكاد يلقي به على الأرض، لقد انفتح باب البرج لقوة الصوت، كاد أن يتذكر ما قاله عبد الرحمن الحكيم أن الإنكليز لو انتصروا في هذه الحرب ودخلوا بغداد فإن يوم القيامة سيحدث لا محالة، هل هذا هو يوم القيامة؟ يوم القيامة؟ يوم الخلاص؟ يلقون بالأفندية بالنار ويصبح الشيخ أمين هو الباشا ومحمود بك يصبح هو السلاحدار؟

هرع إلى نافذة البرج فرأى خليل باشا الذي أمر بتفجير مخازن البارود في باب الطلسم بعد الانسحاب من بغداد وهو يغادر بسيارته الفورد أم اللوكية، كان الانفجار شديدا وقد ارتفع وهج النار أحمر إلى السماء بقوة، وارتفعت كرات مرتعشة حمراء صافية من بعيد، وقد أنارت جداران البيوت الكئيبة وأصابتها بالرعب، وقد شم محمود بك من بعيد رائحة النيران والبارود وهي تدخل في حجرة البرج، وبعد قليل أخذت النيران تتصاعد وتختلط بأعماق الليل، وترتعش تحت ضربات الريح التي كانت تهب بعنف، فألقى محمود بك ببصره إلى سحب الدخان الهائلة وقد أضيئت من أسفل، وخيمت فوق بغداد، وبقي ينظر في الظلام المعادي والعزلة المتوعدة إلى الأنوار التي تكشف عن جوه اللصوص الذين أخذوا يركضون أسفل النافذة ويتوجهون إلى الطرقات الخالية والتي لا يسير فيها سوى جرحى الحرب وآخر النفر الفار من القشلة همايوني.



جلس محمود بك على السرير مرة أخرى وقد ارتعشت قدماه حين رأى السجناء الذي فروا من قلغ القشلة همايوني وقد رفعوا أصابعهم وأشاروا نحوه وهو واقف خلف النافذة في البرج، لقد رأى بعينيه ابن بطرس الطواب والحوذية الذين قبض عليهم يوم نصب لهم كمينا قرب بيت القنصل الألماني، رأى أهلهم وقد تجمعوا قرب طوب القلعة وقد رفعوا سكاكينهم وخناجرهم، رأى النفر الفار والمسجونين واللصوص وأهل الهاربين من السفر برلك الذين قبض عليهم وسلمهم للإعدام، وأولئك الذين سبب القبض عليهم حينما جاء بمجموعة من الجندرمة الخيالة الذين ساروا بقلباغاتهم الفرو القذرة، وملابسهم العتيقة المضحكة لتلفها وصغرها على كروشهم ومؤخراتهم، وسيوفهم الصدئة التي رفعوها بوجوه الناس، وجيادهم الهزيلة المسرجة بالخرق، وقد مشت أمامهم مجموعة راجلة وهي تقرع الطبول، بينما كان محمود بك بأناقته وطربوشه الأحمر وجواده المسرج بسرج تتري جميل وجزمته السوداء النظيفة، يقف، ينظر حوله إلى البازارات والخانات والجادات والمحلات والعقود، ويرى بعينيه الشباب وهم يقفزون من سطح إلى سطح هربا من السفر برلك، يرى بعينيه البقالين وهم يقفلون متاجرهم ويهربون، يرى بعينيه الباعة المتجولين وهم يحملون صوانيهم النحاس ويفرون.

رفع محمود بك يده وهو يسير على جواده، توقف، فتوقف خيالة الجندرمة خلفه، سار على جواده خطوات قليلة ثم توقف، حمحم الجواد وصهل صهلة صغيرة، أدار رسنه جهة الجندرمة المتوقفين وأومأ لهم أن يهبطوا من جيادهم. لقد توقفوا عند خان الدفتردار، عند الجادة التي تقود إلى شريعة المصبغة، وقد ظهر النهر من بعيد بلونه الرصاصي الصافي بشكل واضح، وكانت الباخرة الحربية (مرمريدس) تجوب النهر، جيئة وذهابا، إلى الشمال وإلى الجنوب. رفع رأسه إلى الأعلى، كان الأهالي قد صعدوا إلى سطوح منازلهم، وأخذوا يتفرجون على توقف الجندرمة المريب في رأس الجادة المؤدية إلى الشريعة، كان صوت قرع



الطبول يأتي من بعيد، ويقترب شيئا فشيئا، وعند الحافة النهائية للجادة المؤدية إلى الشريعة كان هنالك قصران كبيران يطلان على النهر، أحدهما يملكه رأفت أفندي السويدي، والمنزل الآخر يشبه السراي القديمة يسكنه القنصل الألماني، وهو في الأصل يعود لأحمد أغا البرزنجي.

كان القصر المطل من جهتين على النهر تحيطه حدائق خضراء كثيفة، أما بابه التي تذكر بقلاع استنبول القديمة فقد كانت عالية، مصنوعة من الخشب الهندي السميك، وكانت نوافذه واسعة ومعتمة، وعند عتبة البوابة الكبيرة جلس حارس تركي بشوارب كثيفة، مرفوعة نهاياتها للأعلى، كان قد جلبه القنصل الألماني معه من سالونيك.

توقف محمود بك هناك مع فصيل الجندرمة وقد هبطوا من جيادهم وربطوها عند سياج قصر أحمد أغا البرزنجي وطلبوا من الحارس التركي أن يجلب لهم من اصطبل المنزل مذودا، كان الباعة المتجولون الذي يسلكون هذه الجادة كل يوم إلى الشريعة، ينظرون فصيل الجندرمة من بعيد ويهربون، يدخل بعض الأحيان أحد المكارية مع حماره إلى هذه الجادة، وما أن يرى محمود بك وهو يسير أمام الجندرمة وهو يحمل عصا الجوز القصير بيده ويتبختر بها يمينا وشمالا، حتى يهرب من حيث أتى وهو يقول: (مو مشكلة اليوم ماكو شغل). لقد أدرك الجميع أن محمود بك قد قطع الطريق على الفارين، فما أن تدخل مفرزة السفر برلك وهي تقرع الطبول في رأس كل عقد وجادة، يقف الضابط يفتح الفرمان ويقرأ:

(سفر برلك دار- عسكر أولانلر سلاح باشته).

وفي كل زقاق يحمل المختار أسماء من وقعت عليهم القرعة، ويداهم المنازل مع مجموعة من الدرك المسلحين، فيقفز الفارون من على السطوح، كانوا يقفزون من سطح إلى سطح، من سطح إلى سطح، حتى يصلوا إلى منزل السويدي، أو منزل القنصل الألماني، ولكنهم يتوقفون، ذلك لأن مفرزة محمود بك قد قطعت عليهم الطريق.



لم يكن محمود بك يكلف نفسه عناء القبض عليهم، طالما هو قطع عليهم الجادة تماما، وإنهم سيسقطون بأيدي المختار والدرك الذين يداهمون المنازل، ثم يحملونهم بالعربة المتوقفة في الجادة الجديدة، جادة خليل باشا، لتحملهم من هناك إلى الحبس خانة في القشلة همايوني.

كانت عربات التوج والتكلك والكارو تحدث أصواتا وقرقعة على الشارع، وصوت سنابك خيولها يخف كلما تقترب منهم، فيهبط حوذيها بسوطه، ويهرع نحوهم، يقول:

(هذا فلان ابن فلان يريدني أن أوصله إلى الخستخانة) أو (هذه فلانة بنت فلان وزوجة ابنها فلانة بنت فلان يريدوني أن أوصلهم إلى بيت فلان).

في الظهيرة وصلت عربة صغيرة، هبط الحوذي بعرقشينه البيضاء على رأسه، وبيده سوطه الأسود، هرع نحوهم، وقال:

(مولانا أنا عربنجي فقير من تحت التكية.. وهذا الحاج سعيد بن مريوش القلمجي.. يريدني أن أوصله إلى خستخانة الكرخ).

أومأ له محمود بك برأسه، فصعد الحوذي إلى العربة، أخذ له سلاما وهو يسحب بأعنة الخيل، الحاج خليل جالس إلى الوراء بطربوشه الأحمر المدرع بقماش أبيض، رفع يده هو الآخر شاكرا ثم وضعها على قلبه، جاءت عربة أخرى هبط حوذيها وبيده سوطه الأسود، سقطت عرقشينه من رأسه، وتعثر بصايته، وحين وصل إلى محمود بك خنقته عبراته من الخوف:

(والله عمي ما مطلوب للسفر برلك.. أنا خادم للدولة السنية.. وهذي ماه سلطان زوجة عباس زادة.. تريدني أوصلها إلى سوق الصياغ بخان التمر). أشار له محمود بك برأسه، انحنى الحوذي على يده ليقبلها، صعد إلى العربة وهو يصرخ: (ديخ.. ديخ).



كل مرة يقف حوذي يهبط من العربة وهو يتوسلهم بينما طبول السفر برلك تقرع من بعيد، ومداهمات الدرك الذين يقودهم المختار تقترب من مفرزة محمود بك، والفارون يصلون إلى سطح دار القنصل وهم يتلفتون محتارين ثم يعودون، كانوا يدركون أن سبل الهروب للأرياف قد انقطعت، فهذه الجادة كانت معبرهم إلى الشريعة، ومنها يذهبون إلى الكرخ على دوبة ثم ينحدرون نحو الصحراء، أو يذهبون للكرخ يعبرون السور ويلتحقون بالفارين من الجيش العثماني، يقطعون الطريق على القوافل، ويقبضون الأتاوات، أو يهجمون على الترام الذاهب إلى استنبول.

قبيل الغروب حين وصلت قرعات الطبول ومداهمات الدرك إلى رأس الجادة، خرج بطرس بن ميخائيل الطواب من منزله القريب من منزل القنصل الألماني، كان منزله من دور واحد واطئ السقف مبني من الطابوق المفخور العاري من الملاط، وكانت أمام منزله شجرة سدر كبيرة، وقد وضع على الباب حذاء مقلوبا لرد عين الحاسدين. كانت زوجته معه، عرفها محمود بك من عرجها، وقد وضعت الخمار الأسود على وجهها، وكانت ترتدي إيزارا ملونا ترتديه المسيحيات بدلا من العباءة السوداء التي ترتديها المسلمات، وكانت زوجة ابنه معه أيضا، وكانت قصيرة وبدينة، وإلى جانب زوجته كانت تسير امرأة طويلة ترتدي عباءتين، وخمارا أسود سميكا، وكانت تتعثر بعباءتها، فارتاب للأمر. وقف بطرس أمام محمود بك وقال:

(أنا بطرس الطواب أريد أعبر جسر الدوب عندنا زيارة).

قال له محمود بك: (هذي زوجتك... وهذي زوجة ابنك... ولكن هذي منو). امتعض بطرس من كلام محمود بك، وغضب لأنه من المعيب أن يسأل بغدادي آخر على الحرمة التي ترافقه، قال له:

(لو كنت من الجندرمة الأتراك كان عذرتك... بس أنت ابن



الأصول هيك تسوي بينا). لم يعبأ محمود بك بكلام بطرس على الإطلاق، إنما دار بهدوء حول الحرمة وهو يحمل عصا الجوز ويهزها بيده، نظر إلى أقدامها، كانت العباءة قد ارتفعت قليلا، فظهر الحذاء الرجالي المصنوع من الجلد، فقال لها: (قولي أنت منو).

فصاحت زوجة بطرس، معاني بنت سمعان، معاني العرجة، بوجهه:

(به داده هذا شلون بشر يريد يكلم الحرمة..). اقترب منها، مد يده إلى الخمار ورفعه، فواجهته مباشرة شوارب سليم ابن بطرس الكثة ومنخراه العريضان، فانفجر الجندرمة بالضحك، أخذ سليم يبكي ويتوسل، أخذت أمه تصرخ، جلست على الأرض وأخذت تهيل التراب على رأسها، صرخت زوجته بصوت عال: (يبوي... . يبوي).

كان سليم يتوسل وهو يرتجف ويبكي، بطرس الطواب يتوسل ويبكي، لقد خلع طربوشه ورماه على الأرض، وأخذ يتوسل وينحني على يد محمود بك ليقبلها وهو يقول:

(أفرج عنه الله يفرج كربتك... هذا هارب... وأخاف تعدمه القشلة.. أعطيه مهلة.. وهو يسلم نفسه).

قال محمود بك بعصبية وهو يمسك سليم من زيقه: (عمي أنا كوجك سي ضابط صغير في الجندرمة العصملي.. هذه فرمانات بيورلدي أنا مو أنور باشا... ولا طلعت باشا... تفتهم علي).

*

صعد على حصانه وسار في جادة السراي واتجه نحو القشلة، تناهى إليه صوت بطرس وهو يتكلم حكاية مضطربة وثقيلة عن ابنه. سار على جواده بهدوء، كان طابور الجندرمة يحيط به، وقبل أن يصل إلى القشلة، كان هنالك مجموعة ممن شنقوا أمام جمهور العامة فأخذت الرياح تهز بجثثهم، مخوزقون على المنصة قرب باب السلطان، مشنوقون قرب



البازار في الشورجة أو خان الكهية، معدومون برصاص الجندرمة وسط الشارع، أمام النظارة، وفي بغداد لم يعد الموت شيئا سريا ولا خفيا، إنما فرجة يمر منه محمود بك يمنحه نظرة خفيفة ويمر، مشهد مألوف، والناس على مقربة منه يمارسون أعمالهم وحياتهم بصورة طبيعية. مر من هناك، كان العساكر يحاصرون القشلة بأسلحتهم بأمر من الحكومة، وذلك لكثرة الفارين من السفر برلك، فلم يتسع لهم الحبس خانة هناك، فوضعوهم في الساحة، كان قسما منهم يقضي ليله على الأرض، وقسما آخر ينام على مقاعد خشبية طويلة، بينما كان عساكر الثكنة يصوبون أسلحتهم عليهم، ويتجمع أهلهم خارج القشلة ينتظرون تسفير النصف بالتراموای، وإعدام النصف الآخر.

وقفوا في صفوف متراصة، وجه الجندرمة عليهم البنادق، وسحبوا السيوف، ومن يتكلم يضربونه بالعصي الغليظة، كان بعض الدرك يتأهب خشية حدوث تمرد وعصيان، وقد صوب الوالي على منازل الأهالي طوب الثكنة، صوبه نحوهم نحو منازلهم وأسواقهم، لو تكلم أي واحد معه سوف يكون مصيره أسود، ولكن ماذا لو جاء الإنكليز؟ لو جاء الإنكليز مثلما تصور الأفندية ذلك، يجيئون باختراعاتهم وحياتهم الثرية وجمال نسائهم وألوان طعامهم وسيارتهم وطائراتهم.. ابتسم محمود بك مع نفسه وتذكر ما قاله منيب أفندي:

(يجب أن نبني دولة عصرية.. وأن نتبع الدول العصرية.. هذا ما أوصى به كاتب جلبي أو حاجي خليفة من زمان... أول ما زار أوربا...).

كان منيب أفندي مبتهجا حين رأى أول مرة الطائرات البريطانية وهي تحلق في سماء بغداد، وقد تذكر محمود بك ذلك اليوم تذكر صراخ النفر التركي الذي كان واقفا على مقربة من حرس البكجية أمام سراي الباشا: (أوجاق... أوجاق).

انتبه محمود بك للصوت، رفع رأسه، فرأى الطائرة تحوم في



السماء، خاف واتكأ على جدار السور، وأصبح بمواجهة سراي الباشا، وقف وهو ينظر إلى السماء الزرقاء الصافية وقد حامت فيها الطائرة مثل ذبابة سوداء تروح وتجيء، وبعد لحظات دخلت سيارة الباشا إلى السراي وقد جلست فيها الراقصة الآثورية فيلم صديقة خليل باشا، لم يكن متأكدا بالضبط، ولكنه رأى شيئا يشبهها، وقد جلست في الخلفية وأحنت رأسها كي لا يعرفها الحراس، ربما تخيلها في تلك اللحظة، تخيلها وقد دخلت إلى السراي خلعت خمارها وانطرحت على الأريكة أمام الباشا الذي كان واقفا يسمع أزيز الطائرة، ويسمع صوت بكجية الباب وهم يصرخون بالتركية (أوجاق. . . أوجاق).

الطائرة تحوم على بغداد وفيلم تنطرح على الفراش الناعم وتسمع زقزقة العصافير من باحة السراي تأتيها ناعمة طرية متصالبة. لم يكن محمود بك قادرا على منع نفسه من تخيل صورة الباشا عاريا ومحلقا على جسد أبيض مثل سماء صافية، وكلما وضع لسانه على حلمتها تشهق، فيشهق معها، ويشهق حراس البكجية وهم ينظرون الأوجاق مثل عربة اللاندون تطير في السماء وتئز أزيزا مخيفا ومتواصلا.

*

في الواقع لم يكن لا محمود بك ولا أي أحد في بغداد يصدق أن الحديد يمكنه أن يحلق في السماء مثل الطير، وقد ضحك محمود بك قبل أعوام على رفائيل أفندي حين قدم من أوربا وحدث الناس عن عظمة الأوربيين الذين أصبح بإمكانهم صنع طيور من حديد، ترمي على الناس البومبا من البارود والنار، لقد ضحك عليه في قهوة حوري وسخر منه لأنه كان يعتقد إنها دعاية مسيحية عن أوربا، وكل مسيحي في بغداد دون استثناء كان يعتقد أن الأوربي ابن عمه ومن عشيرته وإن فرقت بينهم المسافات، وحين قالها مرة صراحة للأب أوراها السرياني في كنيسة اللاتين أجابه:

(طبعا. . . كل شمري في بغداد حين يلتقي بالصدفة بشمري جاء



من أطراف الجزيرة على نجد. . أو من أطراف الشام وقال له آني شمري يحضنه ويقبله من رأسه. . . ويقول له يا أبن عمي. . ليش للمسلم إيه. . ليش للمسيحي لا. . فأي مسيحي جاء من لوندرة أو من باريز أو من أمريكا من حق المسيحي في بغداد يحضنه ويبوسه من رأسه. . ويقول له يا ابن عمي أني وإياك أولاد عم شق المنشار).

*

صرخ حرس البكجية في باب السراي بالناس:

(أوجاق. . . أوجاق).

وكان خليل باشا يحلق على جسد أبيض، مثل سماء صافية مفتوحة ومبقعة بغيوم شفافة وناصعة، كان يحلق ويطير، يمد يديه على الجانبين ويحرك أقدامه بصورة متناظرة، ويحلق في سمائها، لقد حلق فيها منذ أن رآها في حفلته الصغيرة التي أقامها في باخرته التي سارت في نهر دجلة يوم توليه بغداد، شعر بقلبه وقد انخلع من مكانه للشيء الغريب والساحر المنبعث من عينيها الواسعتين خلف الفريجي الشفاف، فاقترب منها بملابسه الأنيقة وشواربه المرفوعة وأنفه الطويل وما أن ابتسم لها حتى حسرت نقابها عن وجهها مباشرة ونظرت إلى الشرارات الملونة التي انطلقت من عينيه لحظتها، ما أن تكلم بصوته المتهدج والمشتهي حتى نظرت إلى خاتمه الذهبي الذي لمع في بنصره تحت وهج الضياء، فخلعه وقدمه لها. وقد عرف الحراس في القشلة همايوني ذلك اليوم أن الباشا أمضى ليلته ساهرا، ولم يطفئ في حجرته المصباح. لقد كان سعيدا ومحظوظا لعثوره من بين جميع البغداديين الذين يحيطون به بكروشهم وقفاطينهم وطواقيهم وعماماتهم وملاياتهم الملفوفة التي تضجره على امرأة ترتدي الفريجي الشفاف وتتحرك أمامه بالصندل الأصفر والساتان المحبوك، وبالبياض الذي يجرح، وبالعينين المكحلتين بسواد السورمة.

*



غنى يوسف حوريش بصوته العذب أغنية ناعمة عن الراقصة الآثورية التي خلبت فؤاد الباشا العثماني الذي جاء من جبهة القفقاس إلى بغداد ليصد هجمات الإنكليز، كان صوته يعلو في الليالي الدامسة في الميدان الكبير قرب باب السلطان، وفي كل عقد وجادة ثمة سكارى يغادرون ملاهي الليل وقد امحت همهماتهم في الظلام، وعلى مقربة من تياترو الهلال موقد للنار يتحمى عليها الجنود، وشحاذون يحملون الطسوت يبحثون عن شيء يأكلونه، خرق محزومة بشرائط بلا لون تتدلى على سيقان العاهرات التي تشبه جذوع الأشجار، وفي النهار كانت الراقصة الآثورية تجلس في العربة جنب عشيقها الباشا وقد ارتدت ثوبها الأبيض الذي طرزته بأقراص من الترتر الأزرق، كان زيق صدرها الأبيض مفتوحا، وكانت سيقانها الممتلئة تحتك بسيقانه كلما مالت العربة يمينا أو شمالا، وشعرها الكث الذي يهبط إلى أكتافها يخدره، وكانت تعرف الكلمات التي تجعل الباشا يشقشق مثل الزيت المغلي.

(نامت معه. . .) قالت خادمة الباشا الاستنبولية لمحمود بك(تحت اللحاف المطوي. . اللحاف الدافئ المصنوع من نتف ملبدة من القطن. .).

كان محمود بك يراها كل يوم تصعد على سطح دارها وهي تعلق على الحبل رؤوس الثوم والبصل كي تضربها الشمس، وحين تخرج من الدار تضع عباءتها على رأسها وهي تسير أمام العقد ذاهبة للقاء الباشا في الجادة الجديدة، وبالقرب من جامع الحيدر خانة تقف سيارة الباشا، السيارة الفورد، فتصعد فيلم بسرعة، وتبقى عيون محمود بك تراقب سرعة دوران العجلات، حركة الأقدام أمام الدكان، القواطي التي تومض في العتمة، وجدران الجامع الفخمة بأحجارها الكبيرة والمملوطة، كان محمود بك يحاول أن يرى عنقها الأبيض، لحمها الأبيض الذي يفور من سواد العباءة وهي تجلس جنب الباشا، لكنه لا يرى من سيارة الباشا التي تجري على الشارع المترب، سوى قلباغه الأسود الطويل، وكتفه



العريض، فيتخيل نهدي فيلم الأبيضين البارزين وقد انسدل عليهما ثوبها المحبوك.

ينام الباشا على جسد أبيض مثل الفراء وينام الجنود على التراب في الخنادق، هكذا يقول الحارس وهو يمسك بالباقلاء ويسحقها بين أسنانه، فتنقسم إلى فلقتين، بينما كان محمود بك يسير قبالة البوابة وهو يسمع جواد الباشا الذي أخذ يصهل، سمعه وهو يقترب من بوابة السراي الكبيرة، وعلى مقربة من الحظيرة الكبيرة كانت حنفية المذاود مفتوحة، ويصب الماء في الحوض وقد أخذ السائس يملأ الجرادل الكبيرة بسطل صغير، وعلى مقربة من الحظيرة حلقت الطيور قريبا من حجرة نوم الباشا حيث ربط الطرطر سيور خيولهم بأوتاد مدقوقة في التراب، وجلسوا هناك يدخنون الشبوق حتى الصباح.

*

خرج الباشا بسيارته وقد كانت سترته داكنة تلف ظهره من الخلف، وعلى رأسه قلباغه الأسود المصنوع من الفرو الموبر، كانت شواربه مرفوعة إلى الأعلى، عيناه محمرتين من السهر، ورائحة الخمرة تفوح من فمه، ورائحة فيلم تضوع من ملابسه ومن قلباغه، تضوع منه رائحة حلاوة خافتة وهو يبتسم بشفاهه التي تنفرج عن أسنانه البيض، وفي منتصف الطريق بدأ كاظم باشا يحدثه عن الطائرات الإنكليزية التي حلقت في سماء بغداد.

كان محمود بك مختبئا بالقرب من الحرس وهو ينظر إلى السراي، وهناك حلق خياله بعيدا واندفعت عيناه نحو النوافذ المغلقة بإحكام وأخذ يتخيل حجرة الحريم في سرايا الباشا من الداخل:

كانت حجرة كبيرة شبه معتمة، وقد وقفت فيلم عند السرير مباشرة لتخلع ملابسها، ما أرق حركتها وأعذبها، مدت يديها لتفتح الأزرار بهدوء، وبترو مذهل خلعت فستانها الأبيض المخصر بالترتر اللماع، وانطرحت على الفراش بعذوبة كاملة، دون صوت، أطبقت ساقيها



الناعمتين المنسابتين، ثم رفعت رأسها لتنظر نحو الباشا بحنان كبير وقد هبط شعرها الأسود الفاحم، وانسدل على أكتافها.

ابتسمت، واتسعت عيناها، ابتسم لها، كانت تنظر نحوه بصورة مستقيمة وقد حملت جذعها على عكسيها، وحين ارتخت وأنزلت رأسها وانطرحت، التهب أمامها مثل طائر، لقد استبدت به رغبة شديدة للطيران في بياضها، فخلع ملابسه الحربية ورماها على الأرض، ووقف أمامها، مد يديه إلى الأمام، حرك أقدامه، ثم حلق في الهواء، وانطرح على صدرها الذي اندفع إلى الأعلى، وحين لامست بطنه بطنها ارتعش، حين شم رائحة وحشية من أبطها بطياته البيض التي تحاذي اندفاعة النهد وتوثبه، اشتعل، وارتعش، وقد نسي تلك اللحظة حصار الكوت الذي أرقه، نسي طوزوند، نسي كاظم باشا الذي يصر على إخلاء بغداد، نسي المقر العام، ونسي الأوجاق التي تحوم على بغداد، بعد أن تحول إلى أوجاق من لحم ودم.

شهق الباشا حين مدت فيلم أصابعها الناعمة وداعبته، شهق محمود بك حين أزت الطائرة أزيزا مخيفا فوق القشلة همايوني، شهق حرس البكجية وهم يصرخون (أوجاق.. أوجاق).

حلقت الأوجاق في سماء بغداد، حلق خيال محمود بك، حلق الباشا في سماء فيلم الناصعة والشفافة، حلق على جسدها، وقد حلق الناس فوق السطوح:

صعد ربيع ابن بهية إلى سطح الدار وهو يحمل مسدسه الفرد، صوب على الطائرة وأطلق الرصاصة، فتصاعد الدخان من مسدسه عاليا وهيمنت على الشارع رائحة البارود، لقد صوب عليها لكنها فلتت منه ولم تسقط، ثم صعد الشيوخ على المآذن وصاحوا عليها صيحة واحدة: (الله أكبر..) ولم تسقط، ركب محمود بك جواده الأطهم وسار في الجادة، وعيناه شاخصتان في السماء، وقد أدرك بأنه لم يبق شقي في محلة من محلات بغداد لم يصعد فوق سطح داره أو فوق مئذنة، أو فوق



قبة جامع وحاول أن يصيبها، ولكنها بقيت تئز، تروح وتجيء على سماء بغداد، وكان الجندرمة يضعون أيديهم على عيونهم ويشيرون عليها، وفي القشلة صوب الأوزباشي طوغان مدفعه عليها إلا أنه لم يضرب، قال حكمت بك الذي يعمل في دقتورلك القشلة همايوني: (الحمد لله لم يطلق البومبا من الطوب وإلا سقطت علينا وقتلتنا).

صرخ شكيب المصلاوي:

(أشون زيه كفار والله مكنهم أكثر منا).

لقد أصبح الأمر واضحا، لا لمحمود بك حسب، إنما لكل الناس، سواء من الشيوخ والملالي والسادة وعلماء الدين، أو من العاهرات والشقاوات والآداب سزية، إن هذا التقدم هو أمر حقيقي، والتطور أمر مرتبط بالأمم الكافرة، وحين أصر محمود بك على هذا الأمر أمام الشيخ أمين، قال له الأخير:

(إيه.. إيه... هذا صحيح... ولكن أكو معرفة ربانية وأكو معرفة شيطانية.. ومعرفة الكفار من الشيطان وهذي حكمة ربانية للاختبار). وقد أرضاه هذا التفسير، وأرضاه هذا الاختبار ولكنه لم يكن يعرف بأنه اختبار قاس، حتى سقطت القنبلة الأولى على القشلة همايوني وقتلت ثلاثة من حراس البوابة الكبيرة، وقد كان جالسا على مقربة من هناك، ورأى بعينيه كيف أصبح فرار الشجعان البكجية والقلينيجية وحراس السراي أمام الناس دون خجل، كل واحد منهم أمسك ببنطلونه الواسع بيد، ووضع اليد الأخرى على طربوشه وأطلق كرشه للريح.

سقطت الثانية على النعمانية مدرسي، قرب البوستة خانة التي بناها محمد زكي باشا قرب السراي، والثالثة سقطت على الترامواي موقفي، صوب الكرخ وقتلت تاجر التبغ أيوب جلبي القلمجي. سار محمود بك على جواده الأطهم بهدوء في الجادة المؤدية إلى باب الشيخ، كان باعة الخضرة وباعة الفواكه وأصحاب الحمير التي يضعون عليها الأباريق



والطسوت المنقوشة والجرار يمرون من هناك باتجاه باب الطلسم، وكانت بائعات القيمر والحليب يجلسن على الأرض ولا أحد يشتري، ولا يقترب سوى الذباب الذي يحوم على الوجوه وعلى الصواني، وحين اقترب محمود بك من الحضرة الكيلانية رأى جمهورا من المؤمنين يتجمعون هناك، جمهورا من المعممين والمدنيين والباشوات والتجار والجلبية يتجمعون لمقابلة حضرة الشريف عبد الرحمن النقيب، لسؤاله عن الأوجاق التي حلقت فوق بغداد:

خرج النقيب بوجهه النحيف ولحيته الخفيفة وعمامته البيضاء الصغيرة، وقف، ورفع رأسه للأعلى وأطلق فتوته:

(على النسوان ارتداء العباءة والخمار في البيت... أيضا.. لأن الطيارين البريطانيين جايين يتفرجون على نسوانا..).

كان محمود بك يدرك أن ما يهم المعممين وأصحاب الغيرة الشرفية، هو أن الطيار الإنكليزي حين يصوب نظراته من فوق على بغداد سينظر إلى بنت الحجي، وبالتالي فإن القضية هي حرشة نسوانية أكثر مما هو احتلال عسكري، ولكن ما أغضب محمود بك حقا هو أن أكثر المراهقات كن يتزيّنّ دون علم أحد في المنزل، ويقضين النهار على السطح بحجة إطعام الخراف وعلي الشيش، علهن يحظين بنظرة ولو صغيرة من الخواجة اللعوب، ذي العينين الزرقاوين والشعر الأشقر الذي جاء يتدلع فوق البيوت، ويبحث عن الحلوات هناك.

لقد داخ المعممون بالأمر، ابتداء من نقيب نقباء بغداد، ورئيس حزب المشور إلى أصغر مؤذن في جامع الحيدر خانة، وكان الأفندية يعدون الأمر نصرا لهم، كانوا يرون الموضوع برمته هو انتصارهم بالنقاش والجدال على المعممين، فأي أفندي من جلاس القهوخانات بمن فيهم منيب أفندي حين يدخل في جدال مع أي معمم، ويصل هذا النقاش إلى حد الصراخ والصياح والشتم، كان يتمنى في نفسه أن يمسح الإنكليز بغداد عن الأرض، لكي يثبت لهؤلاء المعممين الجهلة صحة فرضيته،



ليثبت لهم أن العلم واقعة حقيقية ولن يصمد العالم القديم أمامها مطلقا، وفي الوقت ذاته كان المعمم هو الآخر يدعو الله ليلا ونهارا أن يخسف الأرض ببغداد، لا لشيء، إلا ليثبت لهذا النعال ابن النعال إن ما يقوله صحيح ولكنه أصم وأبكم وهو لا يفقه شيئا، لقد كان النقاش لديهم مهما، وكان كل واحد منهم يحاول إثبات ما يعتقد بصحته بكل وسيلة، بالكذب بالتزوير بالتهديد، وبأي وسيلة أخرى.

أما البدو فقد حلوا الأمر على طريقتهم، وقد سمعهم محمود بك بآذانه وهم يحدون على أباعرهم وجمالهم، حين رأوا الطائرات تحلق في السماء، قالوا: إذا كان الله متعجب لأنه خلق البعير فإن الإنسان قد خلق الطائرة، وغنوا وهم على جمالهم:

(متعجب خالقله بعيرة وبنادم خالق طيارة).

*

خالق الطيارة هم الإنكليز الذين يقتربون من بغداد بينما تتقهقر الأمة الإسلامية أمامهم، وألسنة لهب النيران المشتعلة في باب الطلسم تلقي بأشعتها على جدران البيوت، صوت إطلاق رصاص من بعيد، ومحمود بك ينظر إلى العاصفة التي تقلع أبواب البيوت وتهز بالقطعة الحديدية للبوسطة خانة قبالة برج القشلة همايوني، كان صوت المؤذنين يتردد بقوة:

(يا فارج الفرج.. يا من فرجك قريب..).

(يا فارج الفرج على من ستفرجها؟..) قال محمود بك في نفسه، وهو ينظر إلى السماء التي امتزجت حمرتها الأرجوانية بسواد شديد، وهو ينظر إلى دوب الجسر السود المبعثرة والغارقة في ماء النهر الرصاصي وهو يتقلب بقوة، ينظر إلى ألسنة النيران الحمراء التي تخفق بها الريح العنيفة وتتصاعد من باب الطلسم ومن دور الولاية في بغداد، ثم أطلق زفرة ساخنة ممزوجة برعب شديد، وقال:



(على من ستفرجها وممن؟.. من الجندرمة.. من السفر برلك.. من الضباط الأتراك.. من رشاوي موظفي الولاية.. أم من الإنكليز..).

أطرق قليلا وتساءل:

(هل سيفعل الإنكليز في بغداد مثلما فعل العثمانيون... ؟). تذكر يوم دخول الإنكليز إلى البصرة، وقد غنت منيرة اليهودية في تياترو طويق في المصبغة: (مظلومة بالقرنة نصبوا جسر فيك... من بعد عسكرنه هندو حكم فيك).

تذكر مقهى الشط: كان النخيل يظلل باحتها، وعرائش العنب تمتد على أبوابها الكبيرة، وقد فرشت دكاتها بالحصران، كان القهوخانجي يقدم القهوة بالفناجين القاشانية، ويعمر النراجيل بالتنباك الممزوج بالأفيون، ومن بعيد كان محمود بك يتسمع إلى التجار وهم يتحدثون جالسين على دكتين متقابلتين، وجوههم السمينة، شواربهم الكثيفة المصبوغة بالحناء تميزهم، كانوا يرتدون الطرابيش الحمر، ويخلعون نعالاتهم على الأرض، ويضعون أقدامهم على الدكة، ويمسك كل واحد منهم قصبة النارجيلة، وبعيون شبه مغمضة يقرقر بها.

كانوا يتحدثون عن البصرة التي احتلها الإنكليز، وطردوا منها الجيش العثماني، قال سيد جابر الدهوي:

(الأمور زينة بالبصرة... والإنكليز يساعدون التجار هناك.. فانتعشت التجارة.. لا تصدقون دعايات الحكومة... آني أعرف سالم الدهوي... ما كان عنده قرش أيام زمان.. هسه يلعب بالروبيات لعب..). كانوا جالسين على دكتين متقابلتين: عبد الرحيم الباججي، صالح شمدين أغا، أمين الصابونجي، وابن ساسون ملتزم جباية الضرائب، وعبد المنعم جلبي كشمولة تاجر الأغنام القادم من الموصل، والذي قال بعد أن أنهى سيد جابر الدهوي كلامه: (العثمانيون يصادرون بضائع التجار. وجيش الإنكليز في البصرة هو الذي يساعد التجار ويوزع عليهم الروبيات).



قال أمين الصابونجي: (صحيح شفت عبد الرحمن باش أعيان.. وقد جاء من البصرة وسكن في أوتيل أحمد. وقلت له ما يصير تسكن في الأوتيل وعندي قصور فارغة... وسكنته في قصري بالأعظمية... وحكى لي أشياء عظيمة عن الإنكليز).

(ابن الصابونجي...) قال الشيخ أمين.

(ابن الصابونجي... من صابونة كان يبيعها على الجسر إلى قصور في بغداد بفضل الدولة السنية صار يمدح الإنكليز ضد دولة الخلافة). وكان محمود بك والشيخ أمين يعلمان أن ابن الصابونجي هو الذي صاح: (الدين الدين.. يا محمد) يوم احتلت إيطاليا طرابلس وقد تجمعت جماهير العامة من كل الجوامع بعد الصلاة: من جامع سيد سلطان علي، ومن جامع العادلية، من جامع الحيدرخانة، من جامع العاقولية، من جامع المرادية، من جامع محمد الفضيل، من جامع الخاصكي، وتجمع الناس في كل مكان: من خان التمر، ومن الدنكجية، ومن كنج عثمان، ومن دكان شناوة، ومن كوك نزر، ومن عباس أفندي وساروا في الشوارع وهم يصيحون وراء الصابونجي: (الدين... الدين يا محمد). خرج أهل الكرخ من باب الشيخ صندل وتجمعوا في خضر الياس، وشريعة السيف، وجاء أهل الشواكة، وسوق حمادة، وتجمعوا عند رأس الجسر، ولكن محمود شكري أفندي الآلوسي منعهم من العبور، لئلا ينكسر الجسر بهم ويكون قتلهم عظيما.

كان صوت المغنية اليهودية قد صمت تماما، ولم تعد تغني على القرنة ولا على الهنود الذين جاءوا مع الإنكليز، فقال صالح شمدين أغا: اليهود ينتظرون المنتصر إذا انتصرت الدولة السنية فهم معها وإذا انتصر الإنكليز فهم معهم، وقد وافقه حنا أفندي الشيخ، وافقه مباشرة، نهض من مكانه وحياه على لماحته وحسن قوله، لأن يهود البصرة هم أول من استقبل الجيش الإنكليزي ورش عليهم الورود، وفتحوا التياتروات



والمايخانات والبروذلات واستقبلوهم في البيوت وزوجوهم نساءهم، واتهم الدهوي حتى حسقيل أفندي صراف باشي الدولة العثمانية:

(من راح يجي الإنكليزي هم راح يصير صراف باشي الحكومته).

وكانوا يعرفون أن حسقيل أفندي كان صديقا لخليل باشا وهو أول من عارض حزب المشور الذي أسسه عبد الرحمن النقيب، لأن الباشا كره الحزب وعارضه، والصراف باشي يعارض كل من يعارضه الباشا، ومثلما كان أبوه يتقرب لمحمد سعيد أفندي حامل أختام السلطان، كان يتقرب هو لأبي الهدى الصيادي لأنه أقرب شخص للسلطان عبد الحميد، قال له منيب أفندي:

(مو عيب.. جميل أفندي هم كان يتقرب للسلطان عبد الحميد.. وكان الرصافي يتقرب له هو الآخر... مثلما كان كرد علي يتقرب لجمال باشا السفاح..).

وقد ركز على كلمة سفاح وأطلق ضحكة قوية في وجهه، كان يقصدها، يقصد ما فعله محمود بك بفوزي القهوجي الذي يعمل في قهوخانة حوري، وقد كان يخاف من محمود بك ويخشاه، فيهرع أول ما يراه ويعمر له النارجيلة، يضعها عند أقدامه ويهرب متحاشيا النظر في عينيه، وفي يوم أراد أن يتمسح به، أراد أن يتقرب له ويتزلف إليه، فجاءه وهو يبتسم ويرتعش معا، وقال له:

(بيك ما تعرف أشقد أحبك... الله يعلي سعودك ويسويك مثل جمال باشا السفاح).

فمسكه محمود بك من خناقه وقال له: (كيف تقول على الباشا سفاح..).

فأخذ يتوسل ويبكي:

(والله ما اعرف شنو يعني سفاح.. اسمع جميل أفندي وداود أفندي وعبد الرحمن أفندي يقولون سفاح فتصورتها لقبه).



فوزي القهوجي هو الذي تزوج فيما بعد من خديجة الداغستانية التي كانت من سرائر الباشا وفيق، وحين تركها عملت خادمة في منزل صالح الكليدار، خديجة العاقر التي طلقها تاجر الفراء الداغستاني الذي كان يعمل في خان البزازين، والذي كان يراه محمود بك جالسا على الدوام على دكة عريضة بروبه الأصفر المعقوش، وبطاقيته الحمراء التي يلبسها الداغستانيون، وحين يخلعها يظهر جرح طويل على صلعته فيبدو رأسه مثل بطيخة مفلوعة.

كانت خديجة تبيع اللبن الرائب والخبز الساخن قرب القنصلخانة، تضع سلطانياتها قرب حظائر الجياد، فتفوح رائحة خبزها الأفغاني الساخن من شقوق طبق الخوص، كان محمود بك يقف أمامها على جواده يناولها الجرة وهو ينظر إلى نافورة منزل القنصل حيث يجري ماؤها على المرمر، وتحيط بها زهور الحوش والعليق الأصفر والسوسن والجوري والخزامى والدفلى، ومن بعيد يلوح البازار الكبير الذي تقود إليه الدروب الترابية الطويلة، فيسير بهدوء بالقرب من موقف العربات، قال في نفسه ماذا ستصبح فيلم بعد أن يرحل خليل باشا؟

ماذا ستكون حالتها يوم يرحل العثمانيون ويأتي الإنكليز؟

ستصبح هي الأخرى خادمة بعد أن يرحل خليل باشا، ستعمل في بازار الجمعة، أو تجلس تحت الأروقة المروسة لسوق الهرج، أو سوق الرصافة، أو خان جغالة زادة، تجلس وسط الشوالات العتيقة، والبسط المبقعة، وتصبح عاهرة على السلعيين والعطارين، وعلى الذين يبيعون مراهم القمل، والبراغيث، والزيوت التي تداوي الجرب، وستجلس قذرة وقبيحة وسط القلل والأزيار والأباريق والطسوت، أو ستبيع اللبن الرائب مثل خديجة الداغستانية، أو ستعيش في منزول القواد جاسم الأعرج، قواد السرقمسير الذي انتهى به الأمر -بعد أن رحل السرقمسير إلى الروملي-إلى سايس في اصطبلات الشاوية يقدم الماء للخيول، أو يحمل القربة المصنوعة من جلد الإبل لسقاء الجياد المارة، وأحيانا يبيع اللبن



المشنوق بالماء، بعد أن كان يجلس في صدر مجلس رئيس الجندرمة، وكان التجار يخافونه ويتوسطونه مثل موظفي الولاية.

صمت محمود بك قليلا وهو يتذكر خديجة الداغستانية التي تزوجها فوزي القهوجي فيما بعد، فوزي القهوجي الذي كان يشك به محمود بك، وكان يعتقد بأنه ممن كانوا يعملون في القضية العربية، إلا أنه تيقن من ولائه بعد أن رآه مبتهجا بأسر القائد الإنكليزي طوزند وجلبه إلى بغداد بعد أن انتصر الجيش العثماني في الكوت.

(طوزند.. طوزند)

انطلق الجنود الأتراك والعرب بكل سرعة لنهب الحامية الإنكليزية بعد أن استسلمت للجيش العثماني بقيادة كاظم باشا، هرعوا لدخول المستشفى الذي هيأه الإنكليز هناك لمداواة جرحاهم وأخذوا ينهبون أغطية المرضى وشراشفهم ووسائدهم وملاحفهم وبلانكيتاتهم وأحذيتهم وملابسهم، وقد دخلوا المطبخ الصغير الذي يقع في المؤخرة، فنهبوا الصحون والملاعق والسكاكين وحتى الستائر والبوفيتات، كان محمود بك مع الجنود في الردهة الأمامية وهو ينظر نفر الجندرمة الذي اختطف حذاء الجنرال الإنكليزي الذي كان راقدا على السرير.

قفز النفر على حذاء الجنرال الأسود الذي كان نظيفا ويلمع مثل صفيحة، وخلعه منه وهرب به، فأثار هذا الأمر غضب الجنرال وسخطه، ربما لأنه ما كان قادرا على احتمال المسير حافيا، أو لاعتزازه بحذائه الأسود الجميل والجديد والنظيف والذي فرح به النفر التركي، وأخذت عيناه تومضان من الفرح، ركض النفر بعد أن وضع بندقيته على كتفه وأمسك بالحذاء الإنكليزي اللماع، وقبل أن يخلع بسطاره المبعج ليرتديه كان الجنرال الإنكليزي قد قفز من فراشه وركض وراءه وهو يصرخ: (ستوب... ستوب).

وحين أمسك بالجندي أخذ يضربه بأيديه وأقدامه وقد انتزع منه حذاءه وهو يشتم:



(سن أوف بج. . . سن أوف بج).

*

طلب آمر اللواء التركي من محمود بك أن يرابط هو وجندرمته مع الجيش الذي كان يحاصر الكوت، وحين استسلم الجيش الإنكليزي ورفع الجنود حتى ملابسهم الداخلية البيض رايات للاستسلام، انطلق الجنود الأتراك وخيالة العشائر لنهب الحامية الإنكليزية والانتقام من الخونة، كان محمود بك هو الذي قبض على ساسون اليهودي، ساسون تاجر الجرار والأزيار في الكوت والذي كان يدل الإنكليز على مخابئ الأطعمة، وحين رأى ساسون محمود بك بجندرمته وألدشاتيته وخيالته اقتربوا من بيته رمى نفسه من سطح الدار، وحين وصله محمود وأحاطه بفرسانه وجده وقد تحطم ظهره وأكتافه ولكنه لم يمت، فأمر الجندرمة فرميه مرة أخرى من السطح، مرة بعد مرة حتى زهقت روحه، وعند الظهر سار هو وجندرمته وخيالته وألدشاتيته إلى منزل الحاج عباس العلي وابنه سعيد وابن أخته محمد لأنهم ساعدوا الإنكليز على دخول الكوت، رفع محمود بك سيفه إلى الأعلى وأخذ يطاردهم من منزل إلى منزل، فصعدوا الطوف وأخذوا يقطعون النهر جيئة وذهابا، بيد أن محمود بك وزع الجندرمة والخيالة والألداشاتية على هذا الصوب من النهر وذاك الصوب، وحين استسلموا اقترب منهم محمود بك بكوا، وقبلوا يديه، قال لهم أمركم بيد كاظم باشا:

أمر كاظم باشا محمود بك بقطع يد كل واحد منهم بالساطور، ثم أمر بلف الحبل على عنق كل واحد منهم وتركهم يهربون، وحين هربوا شد الحبل على أعناقهم وأخذوا يتمرغون بالتراب، ثم أخذوا يزبدون الليل كله وفي الصباح فارقوا الحياة.

*

كان محمود بك ينظر من البرج إلى بغداد التي خلت من ضجة العثمانيين وصوت مدافعهم وصليل سيوفهم، وبدلا من بغداد الكئيبة



والخالية تتراءى له صورة كاظم باشا وهو يتقدم خطوات هادئة وواثقة في الممر المبلط الذي يقود إلى حجرة طوزند:

مسح كاظم باشا جبينه بيده اليسرى أولا ثم أدى التحية العسكرية للعجوز الذي يقف في الباحة مع خادمه وكلبه سبوت الذي وقف على قائمتيه، وهناك في الخلفية حيوانات أخرى: قوانص ذات مخالب، وعقاب لصيد القطاة، وديك حبشي فخم وسمين، بنفسجي اللون وعرفه أحمر مثل النار، كان طوزند أبيض الوجه لا يخلو جبينه من التجاعيد، يقف بهدوء مرتديا ملابس كاكية بسيطة وقد وضع على كتفيه معطفا من الصوف السميك، ووضع علي عينه اليسرى مونوكولا، بينما أهمل في طرف الفم غليونا كبيرا مشتعلا يطلق رائحة طيبة، حين يتحدث مع كاظم بك يعظ على طرف الغليون فتخرج الكلمات قوية النبرة ومتشددة.

نظر طوزند بوجه كاظم باشا نظرة إنكليزية رصينة وطلب منه أن يعامل كلبه سبوت برأفة، وأن يرحله إلى صديقته في البصرة، وافق كاظم باشا وصافح طوزند، بينما كان سبوت هادئا يهز بذيله وينظر إلى كاظم باشا بحكمة ووقار مثل فيلسوف أوربي، كان كلبا شجاعا، كلبا استعماريا قاتل من أجل مبادئ المملكة بشجاعة، وتحمل القصف أثناء حصار الحامية الإنكليزية في الكوت مع طوزند، وقد عامله الأتراك معاملة تليق بمقامه، لقد عاملوه أفضل من معاملتهم لجنودهم الذين تركوهم في المواضع دون مؤونة، لقد كانت حياة سبوت أهم من حياة ألف جندي تركي أكلت جثثهم كلاب العشائر في حصار الكوت، أو الجرحى الذين نغلت جراحهم وتحولت إلى غنغرينا، بينما يقول داود أفندي سمعان تاجر الأخشاب في خان المرادية وقد زار لوندرة وباريز إن الكلاب الأوربية تأكل أحسن وأكثر من أي بغدادي، بل أن سعيد بك يصر بأن الكلاب الأوربية تأكل أحسن من النقباء والبرزركانية التجار ومن الجلبية، ويصر الأفندية في بغداد أن كلب طوزند، الكلب سبوت مدرب على آخر المخترعات العلمية الأوربية وإنه يعرف لا في الصيد والسباحة والرماية



فقط، بل يعرف حتى في الفلسفة الغربية، وهذه الطريقة مفيدة ولائقة لتعليم السكان المحليين العلم الأوربي على الطريقة التي تعلم بها سبوت والتي سماها الأفندية في ذلك الوقت الطريقة السبوتية.

لقد كان محمود بك يعرف أن احترام الأتراك للكلب سبوت عظيما، ولم يطالب أحد من العرب أو الأكراد أو الأرمن بمساواتهم بالكلب الإنكليزي الذي حضي برعاية خاصة حتى وصوله إلى صديقة طوزند، ولا حتى الجنود الإنكليز، فلم يحصل الجنود الإنكليز الأسرى على حقوق مشابهة لحقوق الكلب، وربما حصل الضباط وحدهم على حقوق متساوية من الرعاية والدعاية والاحترام، بعد أن أودعوهم في البواخر التي رست على رصيف النهر في الكوت وأنزلوهم في الثكنة العسكرية في باب المعظم، أو في أوتيل بابل، وقد عاملوهم معاملة الضيوف فأجلسوهم في الحدائق المسقية والمزروعة لتناول طعامهم مثل البكوات والباشوات والجلبية، أما الجنود فقد سيروهم على الأقدام أربعة أيام دون أن يحلقوا لهم رؤوسهم المشعثة، أو لحاهم التي عشعش في القمل، أو أجسادهم التي نتنتها الخنادق والسوبيرات، سيروهم مثل النعاج دون أسلحة أو قبعات، أمام ضباطهم الذين جلسوا مع الضباط الأتراك في الحدائق المشمسة يأكلون الخراف والدجاج والرز بالزعفران وينظفون أسنانهم بأعواد الثقاب.

(طوزند.. طوزند).

صاح محمود بك وهو يرى طوزند قائد الجيش الإنكليزي الذي دخل الكوت وهو يصعد أسيرا في زورق بخاري سريع هو وحاشيته: خادمه الهندي بلحيته وشواربه وعمامته البيضاء، طباخه البرتغالي بشعره الأشقر ووجهه المجدور، وبضعة أشخاص من مراسليه، رأى محمود بك طوزند وهو يدخل بهدوء مبنى القنصلية القديم برفقة الضباط والجنود الأتراك، بينما كانت جماهير العامة بشقاواتها ووجهائها ومكاريتها وسياسها وبقاليها وسقائيها ومعلميها وحتى بائعات الفجل والخبز والبيض



في صبابيغ الآل وسوق حنون يتفرجون على الأسرى الإنكليز الذين سيّرهم الأتراك صفا، صفا، في شوارع بغداد الموحلة، وجوههم البيض شحبت، أجسادهم نحفت من الجوع، لحاهم الشقر طالت، وكانت ملابسهم الكاكية وسخة وممزقة، ساروا بين الجماهير الذين تجمعوا في الميدان صفين وهم يضعون القلاطة المصنوعة من الطحين في جيوبهم، كان محمود بك يسير على جواده مبتهجا وهو ينظر النساء والرجال والأطفال الذين تجمعوا عند رأس الجسر حول الحواة والقرادين وأصحاب الطبول الذين أخذوا يدقون ويرقصون، وعند محطة القطار حمل البغداديون للأسرى ما لديهم من الخبز والبيض المسلوق والتمر والخيار والطماطم وقدموه للأسرى مقابل ما لديهم من ساعات يدوية أو أحذية أو معاطف.

*

(طوزند.. طوزند).

رنت هذه الكلمة مرات ومرات في آذان محمود بك، رنت في أذنيه، ورنت معها (مود.. مود..) الذي خلف طوزند على قوات دجلة التي زحفت على بغداد.

مود يزحف بقواته والباشا يزحف على جسد الراقصة الآثورية، يزحف على ساقيها الناعمتين، على نهديها الأبيضين الممتلئين، يخلع قلباغه الهمايوني من رأسه ويضعه على رأسها، يعلق على صدرها أوسمته ونياشينه وشاراته الحربية، وفي الصباح يخرج ثملا من نشوته معها إما بسيارته الفورد أم اللوكية أو على جواده الأشهب، ولا يترك في ساحة السراي سوى فرقعة سوطه على الأرض المبلطة، ودربكة حصانه الذي يجري بسرعة، يدور ويثب، وحين يخرج من بوابة السراي يتبعه حراسه على الجياد وراءه.

كان محمود بك ينظر إلى هذا الشارع الذي كان خليل باشا يسير فيه ويدربك على حصانه، ووراءه حراسه وقد أقفر اليوم، كان محمود بك



واقفا هناك، واقفا في مكانه في البرج يحدق بشوارع بغداد الخالية، يحدق بمحلاتها وعقودها وأزقتها وبازاراتها وميدانها الذي عصفت به الرياح بقوة وعنف حتى أقفر من العربات والخيول والبغال والحمير البيض الصغيرة التي كانت تتوقف هناك كل يوم حتى الصباح، حدق بها وكأنه يراها للمرة الأولى، كان ينظر بعينيه المحمرتين والمتعبتين إلى شيء مختلف بالكلية عن المرات السابقة، كان يقف وحده في الحجرة الصغيرة العالية المضاءة بمصباح الزيت والمطلة على العتمة، وحده ينظر بعينيه الساهرتين من نافذة برج القشلة همايوني إلى بغداد التي خفتت فيها ضجة العثمانيين وسكتت ضوضاء ولاتهم وضباطهم وجندرمتهم، سكتت فيها قرقعة أسلحتهم ومدافعهم وصليل سيوفهم، وانخرس صوت فرماناتهم الهمايونية وسفربرلكهم وجامعي ميري حربهم، وضرائبهم، وطرطرهم، سكتت بعد أن دمدمت أكثر من خمسة قرون بين أزقتها الضيقة التي بلون القنب، ومنازلها التي شحبت وأصبحت بلون العظام البالية، سكتت بعد أن صاحت أكثر من خمسة قرون على نهرها الرصاصي الذي يتقلب كل عام بالفيضان.

كان محمود بك ينظر إلى لهاث العواصف العاتية، لهاث العواصف الدوارة العنيفة التي قلعت مئذنتي جامع الآصفية من حوضيهما وأحالتهما إلى شظايا وكسر صغيرة وزعت نثارها على كل سطح وباحة كل دار، بينما خرج الشيخ أمين بصعوبة من وسط الركام المهدوم والغبار المتصاعد الذي ارتفع في الفضاء، وقد سقطت عن رأسه عمامته البيضاء التي تشبه عمامة جمال الدين الأفغاني، وسقط من يده كتابه الكبير الذي خط غلافه بالبنط الكوفي المذهب، وسيفه المعقوق الذي يشبه سيف خالد بن الوليد كما صورته كتب التاريخ، خرج من الركام وهو يسعل بقوة وينكت بيديه الاثنتين الغبار من رأسه وملابسه.

انذهل محمود بك، وفتح عينيه كلتيهما، فتحهما على اتساعهما وفغر فمه وهو ينظر إلى الجامع دون مئذنتيه، وهو ينظر إلى الشيخ أمين



الذي زحف دون عمامة، دون سيف، دون كتاب، واتكأ على الحائط شبه المتداعي وجلس وقد هده الإعياء، لقد شعر محمود بك في تلك اللحظة بأن العالم القديم، عالم الإمبراطورية العثمانية قد انتهى تماما، تهدم وولى مع المئذنتين المنهارتين إلى الأبد، وجاءت هذه العاصفة الترابية العنيفة بعالم جديد، عالم أوربا الغريب والمرعب، عالم أوربا الجذاب والغاوي، عالم الجيوش المخيفة، والمراكب والجونكات المتطورة والآلات البخار، عالم الرجال الشقر الذين يرفعون رؤوسهم بعنجهية الفاتح والعالم والعارف، عالم النساء الداعرات والعاريات والمستهترات كما صورهن الشيخ الكرادي في كتابه، عالم المدن النظيفة والموضات والملابس والعطور كما صورها الطهطاوي أو محمد أفندي، عالم العلوم والجرنالات والغازيتات والأسلحة والمعدات الحديثة كما صورها حاجي خليفة، عالم يستحق أن تقلده الأمة كما قال هزارفن، كما أراد محب أفندي، وجميل أفندي، وشبلي شميل ويعقوب صروف ونقولا الترك، عالم جديد يزحف بقوة وسرعة كبيرتين على المدينة المهدمة البالية، يزحف بمدافعه وخيالته وأزيز رشاشاته وهو يترقبه من نافذة القشلة همايوني، يترقب حضوره المخيف وهو يدرك جيدا أن تحت هذه الشرفات الكبيرة التي تغطيها زخرفة الشناشيل التي تشبه عروق الشجر آلاف من الأشياء الصغيرة الباقية من الزمن القديم، أشياء باقية تنمو وتتهدل مثل النباتات التي تنمو وتتهدل أطرافها، عالم مخيف وجذاب حالفته العواصف الترابية التي هبت بعنف وطاردت معه فلول العثمانيين الهاربين.

(هذا يعني أن الله معهم... هذا يعني أن الله مع الأحسن ضد الأسوء..). قال هذا في نفسه وقد أطلق زفرة ساخنة أمام زجاجة النافذة التي تضببت ببخار أنفاسه، قال هذا وهو ينظر بفزع إلى العاصفة الحمراء التي جلبت معها أزيز الرشاشات وصوت المدافع الإنكليزية التي تدمدم مثل الرعد من المعركة التي أخذت تقترب شيئا فشيئا من نهر الخر القريب



من الخط الدفاعي في بغداد، قال هذا وهو ينظر بفزع إلى اللصوص الذين يحومون على المنازل والدكاكين والخانات ومباني الحكومة وقد وقفت آذانهم مثل الأرانب، ينظر إلى الفوضى والشغب والاضطرابات التي أحدثها الشذاذ والهاربون من السجون، إلى الصراخ المجنون الذي يطلقه البدو القادمون من الجزيرة وقد بدت على وجوههم الصرامة والتقشف.

نظر إلى اليمين، كان بعض الجنود العثمانيين يرفعون سقالات الجسر التي تربط القفف مع بعضها ويغرقونها في النهر، أما من الجهة الثانية فكان بإمكانه أن يرى بضعة تجار يهربون في الليل بعد أن وضعوا نساءهم بثيابهن المحبوكة وبضائعهم الثمينة على التختروانات التي تجرها البغال والخيول، ومن بعيد تمتد الأراضي المتربة حتى الفاصل الأسود للسور القديم.

صفق يدا بيد وقال: (الإنكليز..). وهز رأسه مرة أو مرتين، قالها بصورة فاترة أول الأمر، ثم كررها وقد كز على أسنانه: (الإنكليز... الإنكليز..).

صفق يدا بيد وهو ينظر بخوف وترقب شديدين إلى هذا المشهد الذي أخذ يتضح شيئا فشيئا، بينما كانت الفوانيس تنطفئ واحدة بعد أخرى في أعماق الظلام، وقد ارتفعت صورة الأشجار وجبهات المنازل حين انبعث بصمت ضوء خافت من جهة النهر، بينما صعد عبد الرحمن الحكيم هو ومجموعة من المنجمين والعطارين والسحرة وفتاحي الفال إلى السطوح ليتأكدوا من مصير المدينة المجهول: (يا حكيم.. شنو تشوف..)

(يا جماعة شوفو كوكب النحس.. هذاك.. راح يقترب من طالع بنات نعش..)

(شوفو زين.. يا معودين.. شوفو زين). قال الشيخ أمين من مكانه.



(شوفو زين..) قال مع نفسه بتهكم شديد وهو ينظر إليهم بعينيه المتعبتين من السهر، ينظر إليهم وهم يمارسون أسرار مهنتهم في الضوء العكر الذي لا تبين فيه لون دماء جرحى الحرب والذين يملئون الطرقات ببكائهم وأنينهم، كانت الأضواء تتلاشى بخفوت شديد في الظلام الضارب إلى الزرقة، وقد أخذ الوهج الأخير لهذا المساء الفريد الذي تجري أحداثه بين عالمين مختلفين ومفترقين، يخبو، عالم متهالك قديم يهرب وعالم جديد يتقدم، عالم يتقهقر إلى الوراء بكل قدمه وعتقه وأدواته البالية والمتهرئة، وعالم يزحف بمخترعاته وفنونه وأفكاره وملابسه وموضاته وقد انعكس ضوءه الساطع الشديد ليغمر الجهة المقابلة من النهر، ويلمع لمعانا خافتا في مؤخرة جامع الآصفية وقد هدمت الرياح الشديدة مئذنتيه، وقلعتهما من حوضيهما، بينما كانت أشجار الحامض المغروسة في باحته تذبل ويسود لونها.

حدق محمود بك بفزع إلى الشارع المقابل لجادة قنبر علي وقد هدأت تماما ولم تعد كما كانت مثل كل يوم، لقد كانت الأزقة الضيقة والعقود والدروب الملتوية بمسجدها وحمامها وحلاقها، تستيقظ في الفجر على صوت المؤذن أو على أصوات الباعة المتجولين وهي ترن في الفضاء، أو على أصوات كعوب وحدوات الحمير والجياد والبغال التي تسير في الطريق فترن في أعناقها الأجراس، أو على شعاع الشمس التي تبزغ بصورة هادئة فينصرف الموظفون إلى السراي وإلى دوائر مصلحة الولاية، والتلاميذ إلى الكتابخانات، والبقالون إلى حوانيتهم في البازار، وفي المساء يذهبون إلى القهوخانة في رأس البازار أو في الخان، ومن ثم ينصرفون إلى منازلهم بعد أن يصفر الحراس والجرخجية الذين عينتهم البلدية، ويعود اللمبجية المكلفون بإنارة الأزقة والعقود بواسطة اللمبات والفوانيس النفطية والوقدات المعلقة في كل مكان.

لقد سكت كل شيء في الجادة القديمة ولم يعد هناك سوى اللصوص الذين يسيرون بحذر وهم يريدون التأكد من مغادرة وهروب



الأتراك وخلو المدينة من كل حكومة، من كل جندرمة، من كل جيش، كانت بعض الطرقات والدروب والأزقة خالية بعد أن أفرغها الجنود الخيالة تماما وهم ينسحبون، وكانت عقود المصابيح والفوانيس والوقدات النفطية ما زالت مشتعلة وراءهم، أما الميدان القريب من باب السلطان فقد فرغ تماما من العربات والحمير والبغال والخيول، وارتفعت الرايات الكبيرة التي حملها بعض اللصوص والشذاذ والأوباش وأفراد العصابات وساروا بها، لقد التقطوا الرايات العثمانية ذاتها التي خلفها الجيش المهزوم وراءه على الأرض، وعند الأزقة المزروعة بالخس والجرجير والتي تقود إلى مسناية النهر كانت هنالك بضعة ثعالب ساهرة جنب الجذوع الغليظة والمحززة للسدر المعمر في سواد الليل.

نظر محمود بك إلى مجموعة من العائلات الهاربة من محلة القشل ومحلة القاطرخانة ومحلة أبو دودو ودكان شناوة بعد أن سمعوا بمغادرة الجيش العثماني من المدينة في الليل، بعد أن سمعوا المؤذنين وهم يصرخون بأصواتهم الباكية:

(يا فارج الفرج.. افرجها علينا يا من فرجك قريب..). فصرخ الناس وراءهم:

(افرجها يا من فرجك قريب..). فحملوا أوانيهم ومواعينهم وملابسهم وأثاثهم وطسوتهم وكفاكيرهم على الحمير والبغال وتجمعوا عند سرادق الحراس الفارغ بالقرب من الباب الوسطاني المفتوح على مصراعيه، تجمعوا هناك ثم اندفعوا نحو البوابة متجهين إلى الشرق هاربين من بغداد، كانوا يندفعون من الباب بقوة هم وأوانيهم وملابسهم وحميرهم وبغالهم ثم يرتدون على أعقابهم بسرعة واضطراب ذلك أن البدو كانوا يختبئون وراء المنعطفات يحملون سيوفهم وخناجرهم وبنادقهم يهاجمون الفارين والهاربين يسلبونهم نساءهم وبضائعهم وحتى ملابسهم التي يرتدونها، ويدمرون كل من يغادر المدينة.



(وين تروحون منا. . وين تروحون منا. .) كان البدو القادمون من الجزيرة يصرخون، ومحمود بك ينظر إلى هذا التبلد الأخلاقي الذي أصاب الناس ففقدوا كل قيمة ذلك اليوم، وأصبح كل مجرم يسير في الشوارع والجادات والخانات والبازارات يتصيد ضحاياه علانية، يقتل، يغتصب، يسرق، ويرمي الفارين في النهر.

بغداد وليمة عارية. . . ومحمود بك ينظر إلى أمواج النهر المتدفقة بقوة وهي تحمل أجساما كثيرة لنساء ورجال وأطفال وجنود أتراك، ينظر إلى المياه المتقلبة التي تحمل هذه الجثث وتكتسحها بصمت، فراحت ملابسها البيض تطفو مختلطة بالطين، وبالقش الذي تجرفه الأمواج من الترع القريبة من الضفة.

وليمة عارية. . ومحمود بك يرفع يده للأعلى وكأنه يتكلم مع نفسه، يرفع يده للأعلى وهو يسمع من بعيد أزيز الرشاشات الإنكليزية وأصوات المدافع تأتيه مثل الرعد، يرفع يده وكأنه يعيد فلول الجنود الهاربين وجنود الخيالة الأتراك الذين انسحبوا بسرعة من المدينة، كان يحاول أن يعيد الفارين والهاربين وقد غاصت قاماتهم وخيولهم وعرباتهم في الليل الذي هبط وراء جلبة حرائق البنايات المتروكة والمعسكرات المهجورة والأحجار المهدمة وبقايا انسحاب الجيش: الملابس المرمية، أكياس الخيش، الصناديق المحطمة، السجلات المحروقة، العربات المتكسرة، والخونة المخوزقون على المنصات والمشنوقون الذين يتأرجحون بالحبال في الرياح.

بعد ذلك ظهر عدد من الأوباش والشذاذ واللصوص والسلابة البدو الذين عبروا السور واكتسحوا شوارع محلة القاطرخانة ومحلة كوك نزر واتجهوا إلى الحيدرخانة وطوبليان، وفي الساحة الصغيرة المقابلة للبازار كانت هنالك عصابة أخرى تكتسح المدينة، كان أفرادها يصرخون بقوة، يرفعون الحبال والسكاكين والمسدسات والخناجر والسيوف بعصبية وببغض شديدين، كان محمود بك ينظر إلى وجوههم المشوهة المتلوية،



إلى أفواههم التي أرعشها الحقد بعد أن أخذت أقدامهم تضرب الأرض بقوة مهتاجة، كانوا يصرخون ويعولون أشبه بالذئاب الجائعة وهم يلوحون بخناجرهم وسيوفهم ويطلقون نيران بنادقهم وسط الدخان والضجيج والجلبة والاضطراب.

لقد ارتعشت أقدامه وهو يحدق بهذا الجو الوحشي والمخبول، وهو يحدق بهذه الشراسة والهياج والجنون، كانت العصابات تتجول في الطرقات وتفتك بالأحياء، كانوا يحطمون الأبواب ويخلعونها، يسلبون النفر الفار من المعارك، يجهزون على الجرحى، يغتصبون النساء، كانت الصيحات والاندفاعات تسمع بوضوح في كل مكان، وفي كل زقاق هنالك مجموعة من الرجال الملثمين الذين يحملون خناجرهم ويغرسونها في صدور الضحايا دون رحمة.

جلس على الأرض من الفزع، ماذا لو صعدوا إليه، بغداد دون حكومة، دون جندرمة، والقشلة دون حراس، هذه البلاد أصبحت وليمة عارية، غادرها الأتراك وتركوها في الليل، ولن يدخلها الإنكليز إلا في الصباح، بينما أخذ البدو واللصوص والشذاذ والأوباش يفتكون بالأحياء علانية، وأخذ الفقراء والجائعون ينهبون الأسواق والبازارات والخانات التي جمع فيها التجار مؤونة الناس وأخذوا يضاربون بها طيلة أعوام الحرب، أخذوا يضاربون بالاحتكار وزيادة الأسعار حتى تكرشوا وتكرشت بيوتهم وقصورهم وخزائن أموالهم وبساتينهم، بينما كانت بطون الناس تضمر وتجف وتذبل، كان الفقراء يموتون بالأوبئة والحرب والمجاعات، وكانت كروش الخضيريات والشابندرات والجلبيات والبزركانيات والتجار من الفرس والأتراك ومن العرب المسلمين واليهود والنصارى وأرباب العشائر من الشاويات والعقيليات تكبر وتتسع وتنتفخ وتصبح أعظم وأعظم، لقد فتحوا بوابة في منزل عبد العظيم البزركان كي يخرج منها لأن كرشه أصبح أكبر من الباب، وكان سعدون الجمال الذي شارك بيت المسعدي في تجارة البشت يتقيأ بعد كل وجبة دسمة حتى



يقدر يأكل مرة ثانية، وكان الفقراء يبيتون ويصبحون على لحم بطونهم، يبيتون ويصبحون وهم يبكون من الجوع ويئنون:

(الله إلكم.. الله يعطيكم.. انتم غشعتم يهودي كن عطى أحد قبل..) قال ساسون بن سوميخ للشحاذين الذين تجمعوا ببابه.

ورأى محمود بك بعينيه الاثنتين عباس الكردي وهو يحمل كيسا من الغروش والمجيديات من أجل كيلة عدس أو رز، لقد أخذوا الشباب الذين ضيعتهم سفربرلكات الحروب في القفقاس وعلى جبهة البصرة والكوت، وكان التجار يعدون قصورهم لسكن الباشوات والولاة والضباط الأتراك الكبار علانية ويتعاملون مع الإنكليز سرا، قال محمود بك وهو ينظر إلى قصور الجلبية والبزركانية والتجار التي أصبحت في الحرب أعظم مما كانت وهمس مع نفسه:

(كانوا مع الأتراك من كان التركي ينفع... واليوم مع الإنكليز لأن الإنكليزي يدفع...).

كان محمود بك ينظر إلى الرجال الملثمين بالغطرات وهم يدورون في الأزقة والعقود والطرقات ويحومون حول البيوت، بينما أخذ الرجال يبنون الخنادق حول بيوتهم وسراديبهم ودكاكينهم، كانوا يدورون بالقرب من شارع الأكمكخانة، وقريبا من البازار، وهو يسمع أقدامهم وهي تطب بالقرب من باب القشلة همايوني ولكنهم لا يجرءون على الدخول، كانوا يعرفون أنها خالية وفارغة وقد غادرها الجيش، والجندرمة، وبكجية الحراس، والألدشاتية، والقلينيجية، والتفكجية، والطوبجية، وموظفو السراي، لكن صورة الموت القديم بالخازوق والطبوز وبشد أكياس الخيش تتراءى لهم حية، واضحة، متجسمة، كلما اقتربوا من بوابتها الحديدية الكبيرة، كانوا يرتعبون من شعار السلطة العليا وقد انتصبت ببرجها الكبير إلى الأعلى، شعر محمود بك بأهمية الحقد، الحقد والكراهية هي التي تجعل للقشلة همايوني هيبتها القوية والمخيفة حتى



وإن غادرها الباشا، حتى وإن ركب سيارته الفورد أم اللوكية وهرب تحت جنح الليل، حتى وإن غادرها القطار الذي حمل الضباط والجنود من الكاظمية إلى سامراء.

نهض محمود بك من مكانه فرأى بضعة عربات حربية، ومدافع تجرها الخيول، ولوريات ألمانية تنتظر على الجهة الثانية من النهر، وفي فجوة قريبة عند منعطف أحد الأزقة التي تقود إلى باب السلطان هناك حديقة مكتظة بالأشجار والنباتات الرمادية ذات الجذوع الغليظة والأغصان العملاقة والوارفة وقد جلس تحتها الجنود الجرحى المحمولون على النقالات، آلاف من الجرحى الذين عصبوا رؤوسهم بالخرق البالية أو شدوا أيديهم إلى رقابهم بالأحزمة أو بمزق من قمصانهم، وتقرفصوا أو تمددوا على الأرض وقد هدهم الإعياء، وكانت هناك فلول الجيش التركي الهاربة على العربات التي تجرها الخيول والبغال وقد تلاشت في أعماق الأزقة المتعامدة، أو وراء السور الكبير الذي تثلم من كل مكان، وعلى شاطئ النهر الرملي العريض احتشد الهاربون من المعارك الضارية بحثا عن القوارب والقفف لتقلهم إلى الصوب الآخر، فشكلوا سياجا مضطربا ومخلخلا وقد حجب الرؤية، ولم يعد بإمكان محمود بك رؤية ضفة النهر.

نظر إلى الجهة الثانية فرأى بضعة شاحنات وعربات عسكرية وبغال تجتاز الرصيف، كان بإمكانه أن يرى بعض الوحدات والفصائل الخلفية وهي تشتبك بالقوات الإنكليزية عند الخط الدفاعي في الخر وتشاغلهم، حتى أخذت جيادهم التترية تصطدم بجياد الهنود والسيخ برأسها أو رقبتها أو بصدرها، وازدحمت الطرقات بالعربات والخيالة والراجلة الذين يحملون السيوف، وبالجياد التي تحمل جليكانات الماء والمؤونة، والعربات التي تجرها أيدي الرجال، والسيارات الألمانية التي تحمل الجنود، وبعض العربات التي تحمل أثاث الضباط وقد برزت إلى الأعلى أرجل المناضد والكومدينوات، وكانت الصفارات والأبواق بدلا من أن



تدفع الجنود إلى القتال كانت تحرضهم على الفرار، وقد ضربت المدافع بصورة متتابعة فتصاعد دخان الحرائق من المنجزرات الإنكليزية من بعيد، وظهرت بعض الألوية التي كانت تتخفى بين الخنادق التي نصبها الأتراك في الجهة الثانية من النهر، وكان الدوي، دوي المدافع يهز جدران البيوت في بغداد.

لقد ارتاع الناس وهم ينظرون من الشبابيك إلى الجرحى الذين غادروا المعارك التي نشبت على حدود المدينة وهم مصبوغون من رؤوسهم إلى أقدامهم بالدماء، لقد ارتاع الناس وهم ينظرون إلى اللصوص الذين يدورون في الشوارع وهم يقلعون الأبواب والشبابيك ويحملون الأثاث على ظهورهم ويفرون، ينظرون إلى القشلة همايوني رمز السلطة العليا وهي تصفر من الوحشة وقد غادرها حراسها وجندرمتها وهرب المسجونون منها وانظم قسم منهم إلى اللصوص وأفراد العصابات، لقد ارتاع الناس وهم ينظرون من شناشيل بيوتهم إلى بغداد التي أصبحت بين جيش يتقدم وجيش يتقهقر مثل وليمة عارية.

وليمة عارية.. ومحمود بك عاجز عن مقاومة مشاعره، وكان يعلم أن هذا ليس هو الشيء الجوهري، فالشيء الجوهري والذي كان يعذبه إلى درجة القلق هو كيف يواجههم لو دخلوا عليه، فتح عينيه مرة أخرى، فزع من صوت إطلاق الرصاص الذي أخذ يقترب، نهض من مكانه واقترب من الباب، لم يعد يفهم ما كان يعانيه اليوم، كانت غريزته تدفعه أن يلمس شيئا من الجدار والنافذة التي كان يراقب منها المدينة كل يوم، والتي لن يراها بعد اليوم أبدا، نظر بقلق وهو يقف على بعد خطوتين من النافذة، وأخيرا فطن في ومضة خاطفة إلى ما يريده، إنه الهروب، لقد فطن لما كان يريده وهو: أن يلوذ بالفرار.

هل يهرب؟ أعاد هذه العبارة في نفسه بقوة مكدودة، أعادها وأعادها أكثر من مرة، وفي الفجر ابتسم مع نفسه، ابتسم ابتسامة صغيرة شاحبة، ابتسامة من طرف الفم، وقد انعصر قلبه، لقد حاول أن يتفادى هذه



الرؤية، رؤية الفوج البريطاني وهو يدخل بغداد إلا أنه لم يقدر، قال بصوت مسموع: (ها.. دخلوا..) نظر بإمعان وهم يهرولون برفقة الترجمان نحو باب القلعة: الشوارب الحليقة، العيون الزرق، الملابس الكاكية، القبعات الحديدية، الأحذية الجديدة، وقد تأرجحت المناظير السود، يمينا وشمالا، على صدور ضباطهم.

نظر من جهة اليسار كانت بعض وحدات الجيش البريطاني تدخل من الجانب الغربي، وهناك بعض القطعات التي ترابط عند الكرخ تحاول عبور النهر إلى الرصافة إلا أنها لم تستطع لأن الجسر كان مدمرا تدميرا كاملا.

عبرت مجموعة منهم بالقوارب والقفف ومروا بمشهد من مشاهد الفوضى والانسحاب غير المنظم: مخازن كبيرة للذخيرة وهي تحترق، طائرات محطمة خارج السور، جرحى ينتظرون حملهم على القطار، قطعات كبيرة من الجنود الهاربين يحزمون يطغاتهم على ظهورهم، وكانت الأزبال منتشرة في كل مكان، وقد أخذت المياه القذرة تفيض على البيوت، لقد كانت الإنارة معدمة، وشارع خليل باشا صورة من صور الخراب الملحمي:

دكاكين محطمة، أثاث يبرز بين الجدران المهدمة، شراشف، ملاحف، بطانيات تحت الأنقاض، مطابخ وسراديب انهدمت في مكانها، لقد هد الأتراك البيوت والدكاكين على رؤوس أصحابها لشق الجادة الجديدة، وقد اقنع رؤوف الجادرجي الناس وقال لهم:

(بشرفي انعوضكم..) وذهب شرفه ويمينه أدراج الرياح، قال عاصم ابن الخياطة:

(شق الشارع حتى تصير خربة بيته من جهة الحيدرخانة عليها.. ابن الجادرجي يلطم على الهريسة ما يلطم على الحسين..).

وقد وافق خليل باشا على شق الجادة الجديدة وهدم البيوت



والدكاكين والمحلات على رؤوس أصحابها، وافق وأمر بشق الجادة الجديدة مثلما نصحه مدير البلدية رؤوف الجادرجي الذي حلف للمواطنين وقال لهم (بشرفي انعوضكم. .) وافق خليل باشا حتى تسير قواته القادمة من الشمال وتواجه جيش الإنكليز في الجنوب وتمر من هناك مدافعه وعرباته وخيوله، وقد فغر محمود بك فمه حين رأى الجيش الإنكليزي الذي جاء من الجنوب وسار في الجادة الجديدة حتى يلاحق فلول العثمانيين الهاربة من الشمال، لقد قام خليل باشا بتسهيل مهمة الجيش الإنكليزي ومروره واحتلال بغداد، فسار الجنود والضباط الإنكليز في الجادة الجديدة هم ومدافعهم وعرباتهم وخيولهم، بعد أن هرب خليل باشا في سيارته الفورد أم اللوكية إلى سامراء، ساروا أمام محمود بك وهو يفغر فمه وينظر من نافذة البرج، ينظر إليهم وقد دخلوا من السدة المخربة، من البوابة الجنوبية، استداروا يسارا فوجدوا أنفسهم بمواجهة طلائع البيوت الكبيرة على ضفة نهر دجلة، وكان هنالك جمع من الناس يتفرجون بذهول إلى الفصائل الكولنيالية المحتلة.

نظر محمود بك إلى بطريات المدفعية التي تجرها الخيول، إلى الضباط بخوذهم الحديدية وجزمهم المطاطية السود، إلى الخيالة والهجانة الإنكليزية، صورة طالما حلم بها الأفندية ومنذ زمن طويل، صورة السوبرمان الذي سيحط بجناحيه على بغداد وسيرفع قصبته الساحرة ويضرب بها على صندوق العجائب، صورة المارد الأشقر والوسيم الذي سيرتفع مثل دخان أزرق من قمقمه وسيقول:

(شبيك لبيك. . . عبدك بين يديك. . . تريدون بغداد تصير مثل لوندرة لو تريدونها تصير مثل باريز).

رؤوف الجادرجي يريدها مثل لوندرة، الزهاوي يريدها مثل باريز، منيب أفندي يريدها مثل لوندرة، فهمي المدرس يريدها مثل باريز، كاظم الدجيلي يريدها مثل لوندرة، انستاز الكرملي يريدها مثل باريز، ابن غنيمة يريدها مثل لوندرة، داود صليوة يريدها مثل باريز، وكان الجنود الإنكليز



يسيرون في البازارات الخالية التي صادر الأتراك كل بضائعها للميري، يسيرون أمام قرون من الاستبداد القديم، وفي كل محلة وعقد نصبت عشرات المنصات للخوازيق والمشانق وأزهقت أرواح آلاف الضحايا، كانوا يسيرون ويتقابلون وجها لوجه مع اللصوص والسراق الذين يحملون الشبابيك والمناضد وأسرة النوم الثقيلة المصنوعة من الخشب والحديد على ظهورهم، ويحملون كذلك المقاعد وأسيجة الحدائق، فما أن يرون الإنكليزي بسلاحه وقبعته الحديدية ومنظاره الأسود على صدره حتى يرمون البضائع من أيديهم ويفرون.

*

تراجع محمود بك من النافذة خطوتين للوراء، ذهب إلى الحائط المقابل للنافذة وتناول طربوشه الأحمر الذي علقه على مسمار مدقوق ووضعه على رأسه، ثم تناول البطانية الصوفية من السرير وتلفلف بها، فتح باب البرج بهدوء وهبط السلم الحجري بخطوات مرتجفة، نزل إلى الساحة المعبدة الخالية وكانت تصفر من الوحشة، لم يعد هناك جندرمة بكروشهم وطرابيشهم وبساطيرهم المبعجة، ولا سائس الاصطبلات، ولا البكجية الحراس، ولا الضباط، ولا شيخ الإسلام، ولا الباشا، ولا السلاحدار، ولا الدفتردار، ولا الططر، ولا أي واحد آخر، كانت البوابة الحديدية الكبيرة شبه مفتوحة، وهنالك مجموعة من الشرطة الإنكليزية الذين يحملون العصي الغليظة بأيديهم ويجوبون الشوارع ويطاردون اللصوص.

نظر من البوابة الحديدية الكبيرة لمبنى القشلة همايوني يمينا وشمالا، كان الشارع خاليا تماما ما خلا مجموعة من الضباط الإنكليز بملابسهم الكاكية وخوذهم الحديدية التي شدوها بسيور نحيفة إلى ذقونهم، وبأحذيتهم الصلبة والرباطات الملفوفة على سيقانهم، والجنود السيخ بلحاهم وملابسهم المميزة وعمائمهم الهندية جاءوا يهرولون من الشارع المقابل لمبنى القلعة باتجاه السراي، ومن بعيد كانت سرايا الخيالة



والهجانة تدخل العقود والمحلات وتتجه نحو الجادات الرئيسية لمحاصرة مباني الحكومة من كل مكان، تلفلف محمود بك بالبطانية ومد عنقه من البوابة الحديدية مرة أخرى ثم هرول بسرعة نحو الزقاق وجلس على الأرض بعد أن أحنى رأسه، دقائق وهو يسمع دربكة حدوات الخيول وحمحماتها وصهيلها يأتيه من كل مكان، والكلمات الإنكليزية ترن في الفضاء أول مرة:

(هولت.. ستوب.. هنز آب.. هاري آب..). ويتردد صداها بين الأزقة الخالية.

رفع رأسه وتأكد من خلو المكان، فسار في الطريق بخطوات حذرة وسريعة ومرتبكة نحو شارع الأكمكخانة، سار بجوار الحائط تماما، ثم أخذ يهرول بسرعة وهو يتلفت وراءه، هرول متجها إلى محلة قنبر علي، وهو يلمح كلما التفت إلى الوراء فصيلا من الجنود الإنكليز يدخلون القشلة همايوني وكلهم شاكي السلاح، كانوا يهرولون بضربات أقدامهم المنتظمة على الأرض يتقدمهم ترجمانهم، وبعد أن اجتاز الشارع نحو الجادة الجديدة واجهه فصيل آخر من الجنود الإنكليز قادما من جهة منزل رؤوف الجادرجي قرب جامع الحيدرخانة، فسرت رعدة خفيفة في جسده وأخذه الخوف والرعب، وقد عرف في تلك اللحظة أن لا مفر له، لقد أصبح وجها لوجه أمام ما كان يهرب منه، أصبح وجها لوجه لا أمام فصيل الجنود الإنكليز الذين يهرولون بأسلحتهم وخوذهم الحديدية وخيولهم إنما أمام أوربا برمتها، لقد أصبح تلك اللحظة أمام السوبرمان الذي تطور وترقى من فصيلة القرود إلى البشر، ومن البشر إلى السوبرمان الأشقر الذي جاءهم طائرا بغير جناح وبألف سلاح، السوبرمان الذي كان ينتظره الأفندية في بغداد ودمشق والبصرة وحلب وبيروت.

توقف، استدار وأخذ يهرول بالاتجاه المعاكس من أمامهم، صاح به آمر الفصيل بصوت عال وواضح تماما، بصوت منتصر وفاتح وواثق من نفسه: (هولت..).



فتردد صدى كلمته بين الجدران في الشوارع والأزقة الترابية الخالية: (هولت.. هولت..).

توقف محمود بك مرتعشا منتصف الطريق وهو يسمع قعقعة سلاحهم وصوت أقدامهم التي تتقدم بإيقاع ثابت نحوه، وقال بصوت خفيض، بعد أن غطس رأسه تحت البطانية: (فريند.. فريند).

تقدموا منه، وأحاطوا به، كان آمر الفصيل ملازما شابا بعينين خضراوين يحمل في يده مسدسا، وكان خلفه جنديان بريطانيان وخمسة أو ستة من الهنود والكركة والبنغال وكلهم شاكي السلاح، أزاح البطانية بيده عنه، ورماها على الأرض، كان كل شيء فيه يكشف عن تاريخه القديم، يكشف عن عالم هارب ومتقهقر ومتهم ومنبوذ، أمام عالم قوي ومنتصر ومرغوب ومشتهى.

لقد شعر بهذه الصورة الطباقية واضحة، أكيدة، فقد تعرفوا هم فيه على ملابسه الجندرمية العثمانية المتهمة بكل الفظائع والفضائح والشناعات، وقد تعرف هو على ملابسهم العسكرية التي يدعي الأفندية أنها من البازار الألهي الذي يحمل الأمن والحضارة للناس، لقد هبط الملاك على بغداد بعينيه الزرقاوين وشعره الأشقر وهو يحمل في يده سوط المعلم، وفي الخلفية نزعته الطليقة والأباحية، جاء وهو يحمل معه وعود العمران والنسوان كما فكر بها الأفندية ذلك الزمان:

(تريدون عمران هاكم عمران... تريدون نسوان هاكم نسوان).

أمر آمر الفصيل أحد الهنود بخلع ملابسه، ووثاق يديه إلى الخلف.

سحبوه من كتفه، حل العريف سيور الركاب وترجل عن جواده، وبعد ذلك فك الشكيمة وأنزلها تماما، وقام بمساعدته على الصعود وهو موثوق اليدين دون ملابسه الأنيقة اللائقة عليه، دون طربوشه الأحمر الذي كان بلون دم الديك، دون سلاحه الذي أخاف بغداد برمتها أيام السفربرلك، سحب الهندي الجواد من لجامه وهرول أمامه ومحمود بك



يصعد ويهبط على دربكة الحصان، وهو عار تماما، بينما خرجت بغداد كلها لتتفرج عليه.

*

جلس محمود بك دون سرج على الحصان، جلس عاريا باستقامة تامة، كان ظهره إلى جهة جدار القشلة همايوني ووجهه يتجه إلى بغداد التي خرجت عن بكرة أبيها لتتفرج عليه، كان نحيفا نحافة ظهرت من بروز أضلاعه وعظم القص في صدره الذي اندفع للأمام، كان وجهه الأسمر النحيف والممصوص قد شحب شحوبا بالغا، وكان شعره الأسود الجعد منكوشا، وشواربه التي كانت مرفوعة إلى الأعلى تهدلت وتبعثرت في منتصف وجهه، أما آذانه فهي آذان بغدادي اتسعت وورشت، وسقط أنفه الطويل في فمه.

أجال محمود بك نظره ببغداد وكأنه يراها للمرة الأولى، أجال نظره بالمدينة الموحشة بمآذنها المشيدة بالقيشاني الأزرق والبنفسجي، بقبابها المطلية بالذهب على الطراز الفارسي، بنوافذها المزججة التي تتلألأ عند سطوع الشمس وتتقد، بينما تبقى أسفلها سطوح المنازل قذرة وموحشة وحشة كئيبة.

أجال محمود بك نظره بالمصابيح والقناديل المعلقة، والشناشيل المتدلية وهي أشبه بالرواسب التي تتدلى من أعالي الكهوف، نظر إلى زخارف القهوخانات التركية والعربية، أجال نظره بأروقة مفعمة بالألواح المنحوتة من المرمر والمزوقة على شكل فني بالأزهار والأصص، بالحصران والسجاد التي يتقلب عليها دراويش القلندرية، وهو يتخيلها كيف ستتحول إلى مدينة عصرية مثل أوربا، أوربا التي وصفها الرحالة المسلمون: من رفاعة الطهطاوي إلى الشدياق، من كاتب جلبي إلى أبي طالب خان، من محب أفندي إلى سيد وحيد، فجن جنون الأفندية وأرادوا عواصمهم أن تكون مثلها.

وقف هناك وقد هرع أمامه الجنود الإنكليز ودخلوا مبنى القشلة



همايوني، فتحوا باب ديوان الحرس ودخلوا، بينما سار من أمامه فوج من الجنود المسلحين واتجهوا إلى الجادة الجديدة جادة خليل باشا، فسارت وراءهم السيارات المسلحة والجنود الخيالة وبطريات المدافع، اندفعت مجموعة من الضباط والجنود السيخ والكركة إلى السراي المدني ثم السراي العسكري، ثم ثكنات الجنود المشاة، ومحكمة العدل، ومجلس الولاية، ومكاتب الحكومة، كان محمود بك هناك وهو يسمع من الاصطبلات المهار المجلوبة من نجد وهي تحمحم، يقف هناك وينظر إلى الجنود الإنكليز والهنود والسيخ والكركة والبنغال والعرب الذين يقاتلون في الثورة العربية، وقد تجمعوا في ساحة القشلة بعد أن عبروا النهر بالقفف والمراكب التي أحضرها البغداديون الذين نثر عليهم الضباط الإنكليز آلاف الروبيات.

خرج صالح الطعمة ومعه سوادي الطبال الذي كان برفقة عبد الرحمن الحكيم وهو يدق بطبله المصنوع من جلد الإبل ويصيح بصوت عال:

(أمان.. أمان.. المستر مود قائد الجيش الإنكليزي... أعطاكم الأمان... بس لا تتعرضون لجنوده.. وكل تهمة سقطت مع العصمليين... وعلى كل فار من الجيش والجندرمة تسليم نفسه... وكل تهمة سقطت عنهم إلا تهمة المجرم محمود بك..).

*

كان محمود بك على الجواد الذي يميل برأسه كلما حامت حول أنفه ذبابة، ينظر مرور الممرضات الإنكليزيات الشقراوات على الخيول، ينظر إلى المساعدات العسكريات وهن يرتدين الملابس الكاكية والخوذ الحديدية الحربية ويضحكن ويدخن مثل الرجال، كن يمررن به وهو عار على الجواد، يمنحنه نظرة خفيفة لا مبالية، ويتجهن نحو ساحة القشلة المعبدة التي وصلها الجنرال تومسن في الصباح وعين هوكر حاكما عسكريا على بغداد.



سار هوكر بخوذته الكاكية وقد وضع المونوكول على عينه اليسرى، سار بهدوء بقمصلته الكاكية ذات الأزرار المعدنية وبنطلونه الذي ينتهي بجزمته السوداء التي تصل إلى الركبتين، وقد سار خلفه منيب أفندي ترجمانه الجديد، وجنديان مسلحان من الهنود، سار هوكر أمام الجواد الذي يمتطيه محمود بك بهدوء، وقد منحه نظر لا مبالية أول الأمر، نظرة إنكليزي منتصر ومتعجرف، أخرج غليونه من جيبه وأخذ يدخن، التفت إليه وقد سار منيب أفندي وراءه، قال كلاما للترجمان وأشار على محمود بك، فنظر منيب أفندي إلى محمود بك بابتسامة مبتهجة وقال:

(قرر المستر أن يعطيك أن تختار شي واحد قبل إعدامك..)

ولكن الترجمان لم يكتف بالنقل الحرفي لجملة المستر، وهذا أمر درج عليه الأفندية كلما أصبحوا ترجمانات أو وسائط بين الثقافتين، لقد تدخل الترجمان وأضاف:

(شوف الفرق من كنتو تعدمون ما تلبون للمعدوم طلب.. كنتم تعدمونه رأسا... شوف الإنسانية والحرية.. والله لو آني من المستر هوكر كان سحلتك سحل ونعلت والديك..).

ثم فقد منيب أفندي أعصابه وهجم على محمود الجالس على الحصان بالسب والشتم:

(قندرة ابن القندرة.. شسويتوا بالناس..).

صاح هوكر بمنيب أفندي وعنفه، وطلب منه أن يترجم كلامه حرفيا ولا يتدخل، قال له بوضوح أن يذكر طلبه الأخير:

(يا لله قول طلبك.. طلب واحد وبس..). قال منيب أفندي لمحمود الصامت أمامه.

(أريد أنام..) قال محمود، وهو يحاول أن يفتح عينيه المتعبتين والمحمرتين من سهرة الليلة الفائتة، ثم تهالك من الإعياء وهو على الفرس وكاد يسقط على الأرض فتلقفه الهنديان اللذان كانا مع العميد



هوكر وأنزلاه من الفرس إلى الأرض، حلا وثاقه ثم سحباه من كتفيه بقوة وأصعداه سلم البرج الحجري إلى الأعلى، فتحا الباب ورمياه على سريره القديم ببطانياته وفرشه البيض، فوضع رأسه على الوسادة ونام نوما عميقا.

*

انفتح باب البرج، فظهر الحارس الإنكليزي أمام محمود بك وبرفقته منيب أفندي الترجمان، دخلوا عليه، قدموا له صينية من الطعام فيها لحم الضأن وليمونادة وخبز إنكليزي ومجموعة من الصحف، قال منيب أفندي بعد أن عدل برنيطته الأوربية على رأسه:

(شوف العدالة والإنسانية.. أكل زين وصحف.. حتى الحبل اللي راح يشنقوك بيه ناعم مثل الحرير... والله العظيم ناعم مثل الحرير.. مو مثل هذا الحبل الخشن اللي يجرح الرقبة اللي كنتم تعدمون بيه الناس..).

أغلق الحارس الباب وراءه، وخرجا.

أكل محمود بك هذا الطعام الشهي والنظيف وشرب الليمونادة وتمنى أن يعود للحياة بعد مائة عام ويرى بغداد وقد أصبحت مثل لوندرة أو مثل باريز كما تخيلها الأفندية في زمانه، وحين قلب الصحف وجدها ذاتها كما كانت أيام الدولة العثمانية مع تغييرات عديدة مثلا: صحيفة صدى الإسلام التي كان يصدرها العثمانيون أصبحت صدى بابل التي يصدرها الإنكليز، وأصبح الزهاوي وداود صليوة وأكثر الذين كانوا يكتبون عن انتصارات الجيش العثماني على أوربا الكافرة، يتكلمون اليوم عن أوربا العظيمة والمتطورة وانتصاراتها على الدولة الاستبدادية والظالمة، نهض من مكانه واتجه إلى النافذة ونظر إلى بغداد نظرة أخرى:

لقد توقفت العاصفة تماما، وأخذ الجو يبرد شيئا فشيئا، بعد أن أخذت السماء تنث نثيثا متواصلا، لقد نثت مطرا رماديا موحلا، ونقت



الجو وصفته، وكان محمود بك يسمع من برج القشلة الموصدة بالسلاسل صوت الشكائم والركب الإنكليزية ترن في ساحة القشلة المعبدة، وقد استبدلت الطرابيش بالخوذ الحديدية الكاكية، مجموعة من النساء ركبن الجياد والمهارى، وارتدين الملابس العسكرية وضحكن بأصوات خفيفة ومتلاحقة، بينما كانت المستودعات من ورائهن تبعث رائحة الليمون المبلل، وحين يتكلمن يهب من أفواههن ضباب رمادي يتلاشى على الفور.

كان ينظر إلى البنادق الموترز والجزم المطاطية والخوذ الحديدية والرقع الجلدية والبدلات الجاهزة، ثمة مسقى جديد، ومعلف حجري جلبوه معهم، وبالقرب من السرادقات هنود يغسلون ملابسهم البيض، وآخرون يجلسون على الدكات التي كان يجلس عليها الحراس الأتراك، وكل واحد منهم ينحني على السطل الموضوع أمامه صامتا وهو يفرك فوقه شكيمته وركابيه، يفرك بيديه وخوذته موضوعة على رأسه، بينما امتلأت ساحة القشلة همايوني بالمتقدمين الجدد للأشغال: محاسبون وكتبة ومتعهدو تياتروات يهود، موظفون وسائسو خيول ومكارية مسلمون، نادلون مسيحيون وقد جلبوا زوجاتهم خادمات.

ثلاثة نساء شقراوات واقفات عند الاصطبل، وقفن جنب الجياد التي تأكل من المعلف الحجري، وهنالك ثلاثة أخرى يتنزهن قرب مقر القائد بسراويل الفرسان، والجزم الطويلة السود، ويضربن بعصي صغيرة على أفخاذهن، ثمة مجموعة أخرى كانت تسير وتضحك بأعلى أصواتها دون أن يجرؤ أحد بالتعرض لها أو أن يقول لها: (أش. . ترا القائد إهنا. .).

خرج القائد من مكتبه، وهو ينظر إلى النساء ويبتسم ابتسامة متذللة، أحني رأسه لهن للتحية، في تلك اللحظة تذكر محمود بك المحظيات اللواتي رماهن من جسر الدوب، تذكر المحظيات اللواتي أمره الباشا بقتلن بسبب كلمة، أو حتى من دون كلمة.

لقد نظر إلى الإنكليزية ذلك اليوم لا كامرأة يمكنه أن يمتلكها،



ويقتحمها، ويركبها، وهي تتنهد بين يديه مذعورة، إنما كمخلوقة عجيبة، مخلوقة يمكنها أن تمتلكه وتقتحمه وتركبه، بسبب واقعها الاجتماعي والكولنيالي والإحتلالي أيضا، وهو أمر كان يرتعب منه أكثر الرحالة والمقيمين المسلمين في أوربا، كانوا يرتعبون من هذا الأمر: من رفاعة رافع الطهطاوي إلى أحمد فارس الشدياق، من أبي طالب خان إلى عبد الحسين الكرادي، من محمد أفندي إلى سيد وحيد أفندي.

نظر محمود بك إلى الساحة التي تتوسط السراي، كانت فيلم الراقصة الآثورية تحضن أحد الضباط وتضحك معه، وكان منيب أفندي يقف أمامهما ويترجم كلامها عن خليل باشا، يترجم حديثها الساخر عن قضيبه القصير، وعن رائحته الكريهة، عن تبلبله واضطرابه يوم قصفت الأوجاقات بغداد بالبومبا، عن خوفه ورعبه من دخول الإنكليز إلى بغداد، كانت تمثل لهما كيف نام معها قبل هروبه بساعات، نام معها وهو يرتجف وقد أهداها خاتمه الألماز هدية، وواعدها أن تأتيه إلى استنبول، أو أن تلتحق به في المكان الذي سيذهب إليه، ثم كيف صعد سيارته الفورد وهو يرتجف، كانت فيلم تتحدث وتمثل ومنيب أفندي يترجم وكانت ضحكات الضابط الإنكليزي يرن صداها في ساحة السراي الخالية.

تجمع اليهود هناك وأخذوا يوزعون الورود على المحتل الجديد، جاء صراف باشي الدولة العثمانية وتبرع لهوكر أن يعمل صرافا بحكومته، ثمة مسيحيون يحضنون الإنكليزي ويقولون بصوت عال وواضح:

(شلونك يا ابن عمي..).

تطوع بعض شيوخ الجوامع وعاظا للجنود الهنود المسلمين والبنغاليين، ودخلوا القشلة بمسوحهم الدينية وصافحوا الضباط الإنكليز هناك، بينما بقي آخرون في باحات مساجدهم يهمسون للناس سرا أن الأتراك سيعودون، مثلما عادوا في جبهة الكوت يوم انكسرت واستسلمت الحامية الإنكليزية وسينتقمون من الذين تعاملوا مع الإنكليز، وهو أمر



كذبه الضباط الذين كانوا يخدمون في الجيش العثماني وبعد ذلك انظموا للثورة العربية مثل علي جودت ونوري السعيد ومولود مخلص وساروا وراء الجنرالات الإنكليز ودخلوا معهم الاجتماعات في القشلة، وقد اندهش محمود بك من الأفندية الذين قبلوا بوظيفة الترجمان والدفاع عما يترجمونه دون تفكير، والمعممون قبلوا بوظيفة الدفاع عما وصل إليهم من السلف دون تفكير، والإنكليز وجدوا مصلحتهم لا مع هذا ولا مع ذاك، إنما مع الضباط العثمانيين وهم الوجه المقابل بالرهان لمحمود بك الذي راهن على الشيخ أمين، والفرق إنهم راهنوا على الإنكليز، وكسبوا الرهان وخسر محمود بك.

كان الزهاوي هناك ينظم القصائد العصماء في مدح الإنكليز وذم العثمانيين، وحين تم إنزال العلم التركي من السراي بكى أكثر الناس الذي رأوا من الواجب توديع جلاديهم بالدموع، وحين رفع العلم البريطاني صفق أكثر الناس لأنهم رأوا من الواجب استقبال محتليهم بالتصفيق، وتذكر محمود بك جملة الرصافي حين لخص فكرة حكمته الفلسفية:

(تريد دين هاك دين تريد دنيا هاك دنيا).

ونسج واحدة في نفسه على منوالها:

(تريدهم عثمانيين هاك عثمانيين.. تريدهم إنكليز هاك إنكليز..).

والرصافي ذاته وقف إلى جانب العثمانيين وذم الفكرة العربية، ونادى بالجامعة الإسلامية وكان ذلك اليوم سكرانا، ولم ير في ذلك لا تناقض ولا بطيخ، ذلك لأنه أراد بالجامعة الإسلامية الدين، وأراد بالسكر والعربدة الدنيا، وخشي أن يقبل بالإنكليز، وليس لدى الإنكليز سوى الدنيا، فأراد العثمانيين في مرحلتهم الأخيرة مثلما أراد المصلحون: (هم دين.. هم دنيا..).

*



نظر إلى الشارع المقابل لجادة قنبر علي، كان أفراد الشرطة الإنكليزية يجوبون الشوارع بملابسهم الكاكية وهم يحملون بأيديهم عصيا غليظة وأسلحة خفيفة، كانوا يجوبون الشوارع والطرق بانتظام، فارتعب اللصوص وأخذوا يلقون المسروقات من الذهب والحاجيات الثمينة في الشوارع والأزقة بينما يخرج المسلوبون ليسترجعوا ما سرق منهم، كانت مجموعة منهم أخذت ترقم الدور والمحلات والأزقة والعقود باللون الأصفر، بينما أخذ رجال الإطفاء الإنكليز والممرضات الشقراوات بتطعيم الناس ضد الأمراض.

وفي الطريق المقابل للجادة الجديدة، جادة خليل باشا، والتي أطلق عليه الإنكليز شارع هندنبرك كان أنستاز ماري الكرملي يسير بلحيته الطويلة البيضاء، وطاقيته السوداء على رأسه، يسير بسرعة وقد أحنى ظهره، وكان برفقته مجموعة من الشرطة الإنكليزية بقيادة الميجر هنري، كانوا يطوفون على البيوت يفتشون عن كتب الكرملي المسروقة، وقد قال نعمان الأعظمي إن الكرملي استرجع بدلا من المكتبة المسروقة مكتبتين من كتب الناس.

كان محمود بك يصغي لصوت منيرة اليهودية، يصغي إلى الصوت ذاته الذي كان يغني في قهوة طويق في المصبغة، عن الظلم الذي لحق بالبصرة بعد أن احتلها الإنكليز وجعلوا الهندي حاكما فيها، صوت منيرة اليهودية ذاته وهو يغني اليوم أغنية أخرى:

(أهلا وسهلا بيك يالنكليزي... تمت بقايا الروح يا ربي ييزي).

وقد سكر الجنود والضباط الإنكليز ورقصوا مع الراقصات الحلبيات واليهوديات والبصراويات وتطوحوا حتى الصباح.

نظر محمود بك إلى العربات التي دخلت القشلة همايوني وهي تحمل الوجهاء البلديين وشيوخ العشائر والتجار والبزركانية والنقباء والجلبية والأثرياء والموظفين الكبار الذين كانوا يخدمون في الدولة



العثمانية والذين جاءوا للتسليم على الجنرالات الإنكليز في السراي، جاءوا مثلما كانوا يجيئون قديما للتسليم على الولاة والباشوات العثمانيين يوم وصولهم للسراي، أو يوم قراءة الفرمان الهمايوني بتنصيبهم على بغداد، جاء الوجهاء البلديون والتجار والموظفون القدماء للتسليم على هوكر، وهم يمتطون المهار المكسوة بالفرش المصنوعة من الحرير الذهبي، أو بالعربات الجميلة والثمينة المطلية مساندها بالذهب وبالفضة، وقد نجدت مقاعدها نجودا تركية أو نمساوية جميلة، جاء الوجهاء من محلات الأثرياء والأغنياء مثل طوبليان والحيدرخانة وجديد حسن باشا، وحين دقق محمود بك بوجوههم تعرف عليهم، لقد كانوا هم أنفسهم الذين حضروا حفلة ابن سوميخ للاحتفال بطونانمة الانتصار التي أمر بعملها وزير الحربية التركي، وقد حل محل الضباط الأتراك التجار الإيرانيون، وحل محل الألمان القنصل الأمريكي، وقد شاهد محمود بك من مكانه، وهو عار تماما، وصول مود في المركب، ومروره من هناك حتى وصوله إلى دار الاعتماد البريطاني.

*

لقد فرح الأفندية كثيرا، فرحوا وصفقوا غنوا، وتقلبوا بطرابيشهم الحمر وبرنيطاتهم الإفرنجية أمام الطبول، وأشاروا بأصابعهم النحيفة إلى محمود بك وهو واقف خلف النافذة في برج القشلة همايوني، كان واقفا يتفرج على الناس، يتفرج على الجماهير، فرجة لا تشبه كل مرة، فرجة خالية من أي هدف، بينما جاءت الجماهير للمرة الأولى تتفرج عليه، جاءت من كل عقد، ومحلة، وجادة، وبازار للتفرج عليه، لقد رفعوا أصابعهم وأشاروا نحوه:

(هذاك...).

قالوا هو السبب في كل ما حل بأهل البلاد، وهو الذي نظم اعتداءات الجندرمة على الناس.



التفت إلى الوراء، انفتح باب البرج ودخل منيب الترجمان مبتسما هو ومجموعة من الجنود الهنود يتقدمهم الميجر هنري بخوذته الكاكية المميزة، أمر الجنود بحمله عاريا وإنزاله إلى أسفل البرج في القشلة همايوني وقد فتحوا البوابة الكبيرة وأمروا الناس بالدخول إلى الساحة المعبدة بعد أن نصبوا مشنقة صغيرة في الوسط قبالة حجرة هوكر، ووضعوا منضدة محمود بك التي كانت في البرج، تحت الحبل مباشرة.

صعد محمود بك على المنضدة ويداه موثقتان إلى الخلف، صعد عاريا تماما، فأحنى رأسه حين وضع الهندي الحبل في رقبته، فنظر نظرة خالية أحدثها فزع الموت في عينيه إلى الجماهير التي أخذت ترقص وتتقلب على دق الطبول المصنوعة من جلود الإبل، ترقص على الإيقاع الذي أخذ يدق به سوادي الطبال، وهو الإيقاع ذاته الذي كان يضربه أيام طهور أبناء الولاة والباشوات، وهو الإيقاع ذاته الذي كان يضربه في الطونانمات التي كان يأمر بها وزير الحربية عند كل نصر يحققونه على الإنكليز.

أجال محمود بك بنظره على الجماهير وقد منحهم نظرته الأخيرة، وقد كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما من الدهشة، وكانت شواربه مبعثرة على وجهه، فلم يحتمل، لوى شفتيه أول الأمر ثم أطلق صرخ قوية، صرخة أخرست كل صوت، فقد توقفت الطبول، وسكت الزهاوي الذي كان يقرأ قصيدته في مدح الإنكليز، وتوقف الرقص، ونظرت الجماهير كلها نحوه:

صرخ بالزهاوي.. كما صرخ الشيخ أمين يوما من نافذة القطار في محطة حيدر باشا في الضاحية الآسيوية من استنبول، على منيب أفندي:

(منيب أفندي لقد أمضيت الليل كله وأنا أقرأ كتاب الزهاوي الذي أعطيتني إياه بالأمس... وأنا أتساءل لماذا لا نحرق الزهاوي مع كتبه؟).

صرخ محمود بك أمام الجماهير التي تجمعت واحتشدت في الساحة المعبدة في القشلة همايوني:



(جميل أفندي لقد قرأت كتبك كلها ولم أفهم الفكرة القردية إلا اليوم. . . الفكرة القردية هي أن تصير في زمن العثمانيين عثماني وفي زمن الإنكليز إنكليزي. .).

سحب الهندي الطاولة من تحت قدميه، فسقط وهو يلتف بالحبل بصورة ثابتة وتأرجحت جثته بالهواء، بينما عاد احتفال الجماهير مرة أخرى، وأخذ الأفندية يرقصون ويتقلبون أمام الطبول بطرابيشهم الحمر القانية والتي توهجت بلون دم الديك.





مكتبة
الفكر الجديد

ـ ٣ ـ

المكان والمجال




مكتبة
الفكر الجديد

في الواقع إن اللحظة التي سقط فيها محمود بك ميتا هي لحظة توقف رؤية الأحداث، وكان لزاما علي الالتزام بمطابقة معينة، هي مطابقة مجال رؤية الأحداث مع مجال سرد الأحداث، ولو إني تدخلت في مواضع معينة فكان السرد يفيض أحيانا عن مجال الرؤية ويحتم تدخلي المباشر، ولكن بقي التبئير وزاوية النظر تخص من يرى الأحداث لا من يسرد الأحداث، ومع ذلك هنالك مسألة تتعلق بالوقائع الشفهية للكتابة، وهي مسألة في غاية الأهمية من وجهة نظري، لأمرين، الأمر الأول هو إن مستخدم السلطة يفكر بالسلطة من جهة واحدة من جهة إمكانياتها لا من جهة تحققها، لذلك فإنه يغفل مبدأ المقاومة والمعارضة التي يمتلكها المواطن الأصلي أو الساكن المحلي والذي يطلق عليه بالأنديجن، حتى وإن كانت هذه المقاومة أو الممانعة لا تتم إلا عبر نوع من العنف الرمزي: التغوط في الشارع مثلا، من جهة أخرى أن مسألة تشكل وتحليل تكنلوجيا السلطة هنا مرت عبر حادثة صغيرة وقعت قبل ثلاثة أعوام:

كان لجهان فكرت أوليا، الشابة التركمانية، والتي تعرفت عليها في مطعم الجامعة في ظهيرة شتوية باردة من العام ١٩٩٩ أكبر الأثر في تنبيهي إلى العلاقة بين المكان والمجال، كانت جهان تحضر أطروحة



دكتوراه في آثار العمارة التركية على الطرز المعمارية في بغداد في القرون المتأخرة، وكان هذا الموضوع بعيدا جدا عن اهتمامي، فقد كنت أدرس في قسم اللغات الأوربية، وقد تعودنا أن ننظر إلى الأشياء من جهة واحدة، جهة أثر أوربا على الشرق، لا تأثير الشرق على الشرق، وحين كانت تتحدث لي عن المآذن المقرنصة أو المينا الزرقاء أو أحواض الحمّامات كنت أشغل نفسي بالنظر إلى عينيها التتريتين، إلى شفتيها المكتنزتين، إلى يديها الناعمتين، وإلى لهجتها التي تشوبها لكنة تركمانية كركوكلية واضحة، كنت أهتم بها أكثر من اهتمامي بحديثها الذي كان نسبة لي ذلك الوقت مثل الحديث عن أثر الصين في صناعة السلال في الهند، أو أثر الحضارة الفارسية على صناعة الخيزران عند شعوب القرن الأفريقي، أو أثر المطبخ الماليزي على حساء تأكله بعض القبائل في جنوب أندونسيا، وما إلى ذلك، فكانت هذه المواضيع بالرغم من واقعيتها تعتمد اعتمادا كليا على الغاية أكثر من اعتمادها على الأهمية، ذلك لأن العصر الكولنيالي كان حاسما في آثاره على جميع المجتمعات، وقد امتص وبشكل لا يقبل اللبس كل أثر آخر، وكنت مؤمنا إيمانا كاملا بأن كل ممارساتنا الحيوية لا يمكن عزلها عن التاريخ الإمبريالي الذي أنتج الصيغة المعاصرة للأمة، والتي نحياها الآن، وكل الآثار القديمة انعدمت أهميتها لأننا أصبحنا ببساطة جزءا من تأريخ آخر، جزءا من هذا التاريخ الإمبريالي الذي نرفضه ولكنه يهيمن علينا بصورة مباشرة.

خرجنا من المطعم، وسرنا في ممر صغير مزروع بالآس والصفصاف ومعبد ببلاطات صفر كبيرة مبللة، فوضعت كاب قمصلتها على شعرها الأشقر لتتفادى الرذاذ الذي يتساقط من شجر الصفصاف علينا حين تهزه الرياح، أما أنا فقد انشغلت بإشعال سيجارة والنظر إلى تقاطيع وجهها، وملامحها التي هي مزيج مثير بين ملامح تترية وأوربية، أما ملابسها وماكياجها فتشبه الإعلانات التي تجتاح الفاترينات في بوتيكات الملابس النسائية القريبة من الجامعة، وحين وصلنا إلى الشارع



الخارجي، أخذت السماء تمطر مطرا غزيرا فتوقفنا عند إفريز أحمر يخرج من بقالية صغيرة قبالة موقف السيارات، في الواقع لم أعرف إلى الآن ما الذي أوحى لها أن تتحدث لي ونحن نسير في الشارع عن اكتشافاتها الصغيرة والتي لا تدخل كثيرا في مجال اطروحتها، وهي العلاقة بين الجنس والمكان.

لقد كانت لكنتها التركمانية مميزة بسهولة في حديثها، وما جذبني إليها حقيقة لا جمالها وهو أمر لا يستهان به، ولا أطروحتها التي لم تكن تعني لي شيئا ذلك الوقت، إنما طريقة حديثها وطلاقتها في الربط بين برتوكول المواقعة الجنسية للولاة والسلاطين والباشوات مع المحظيات والإماء والزوجات وأسلوب بناء الحرمرلك أو غرف النساء والحريم، كانت تتحدث بطريقة ذكية، طليقة، مغرية، جذابة، وهنالك تأكيد على أكثر الأشياء أباحية فيما يفعله أغاسي البنات في إعداد المحظية لتكون جاهزة لمواقعة الباشا.

بعد شهرين من تعرفي على جهان كنت فصلت من الجامعة، فأصبح لي وقت كثير قد أهدرته بسخاء في التعرف على موضوعها، كان من المهم نسبة لي الاحتفاظ بصداقتها والتقرب منها وكانت الوسيلة الوحيدة ذلك الوقت هو الانشغال بما يشغلها، كي لا أكون عبئا عليها، وهكذا عشت أكثر اللحظات توترا وانفعالا في البحث عن الوثائق والمستندات التي تخص تلك المرحلة، وفي النظر إلى ما يحيط بي من بناء وعمارة لم تكن وليدة للحظة الكولنيالية الأوربية، لقد تغيرت قليلا، واكتشفت أن هناك مؤثرات في حياتنا ما زالت تعمل ولم تستطع أكبر اللحظات الأوربية قوة من امتصاصها أو محوها، وهكذا كنا نسير في الحارات والأزقة والعقود الضيقة ونحن نتراجع نحو الحائط عند مرور حصان أو بغل، وفي الأعلى كانت الشبابيك المتقوسة الواسعة والتي تغطي عادة واجهات البيوت على وشك أن تلتقي ببعضها، وهناك نسوة يطللن من كل شباك من هذه الشبابيك، وبإمكان العاشقين أن يتحادثا منها بهمس، وكان من



السهل أن نقف في مكان نتحدث فيه فيمد بغل فمه من ظهرنا إلى حقيبتي أو إلى شعر جهان أو كنزتها فتصرخ بصوت مفزوع وتركض بعيدا، وكان من الطبيعي أن نسير في الأزقة الضيقة بمياهها الآسنة ونحن نعبر الدجاج الذي يلقط الحب من الأرض، والخراف المتروكة للطريق، والأبقار التي تعلس كل شيء في طريقها من علب المقوى إلى الأحذية القديمة المرمية في الزبالة، وكان من الطبيعي أيضا أن نرى أحد المجانين وهو نصف عار، يقابلنا بابتسامة جذابة، أو وهو يولول على عتبة دارهم.

كانت جهان تحاول أن تدلني على اللون الأزرق والذهب القديم اللذين يغطيان المساجد والمنارات بفسيفساء براقة، تدلني على هذا الوهج في بلد اختفت ألوانه بسبب التراب وبسبب الشمس الحادة والقوية التي تبخر الألوان، كانت تقف عند المقبرة مثلا، ووسط رائحة التعفن الجافة للهياكل العظمية والعظام المتكدسة، كانت تشير لي إلى قبر السيدة زبيدة بمنارته الطويلة المحززة التي تشبه شجرة التنوب المخروطية الشكل، كنت أتكلف الاهتمام وأنا أنظر إلى هذه المعمارية الجميلة التي تكبرني بعام واحد، وأتخيل صدرها البض مثل تفاحتين خلف كنزتها الصوفية البيضاء.

كنا وقفنا تحت سدرة كبيرة في بستان قديم، وقد لمست شفاهها وصدرها على صوت اهتزاز السعف، وزقزقات البلابل، وصوت البط، وهي الأشياء الوحيدة التي تذكر بالحياة في هذه المدينة الميتة، مانعت أول الأمر، ثم استسلمت إلى قبلة طويلة مرتعشة، فسقطت حقيبتها من يدها، وسقط المثلث الخشبي الذي كانت تحمله، وقد أحيينا في تلك اللحظة مدينة ماتت رومانسياتها وأساطيرها وذبلت، وأحيينا كل حكايات الإيحاء الجنسي في ألف ليلة وليلة والتي لم تعد موجودة على الإطلاق.

مرت شهور ونحن نبحث في أحياء بغداد القديمة عن هذه المدينة العريقة والمهدمة والمليئة بالأزبال، كنا نبحث في المنازل المزدحمة والتي يعاودها الصباح كل يوم ببحر من الفرش فوق السطوح وأسرة



النوم، والذباب، والحشرات التي تهرش الجلد، والفقراء الذين ينامون على الدكات القوية والذين يلتفون باللحف والبطانيات، وكانت جهان مبتهجة لأنها وجدت المدينة وقد تغيرت طفيفا عن القرن التاسع عشر وبذلك ستكون مادتها المعمارية والسوسيولوجية مهمة، وكنت أفكر بالمثقفين الذين كانوا يتخيلون مستقبل المدينة بعد قرن من الزمان، بالتأكيد لم يكن في توقعهم أن الناس ما زالت إلى الآن تنام مع الخراف وعلي شيش والدجاج والبط، وحين نظرنا إلى منارة جامع سوق الغزل وقد انتصب عليها لقلق ووقف بساق واحدة، فلا بد أن جد هذا اللقلق كان واقفا بالمكان ذاته قبل قرن تقريبا أمام الزهاوي وهو يمر على حماره من هذا المكان.

طالما سرنا جهان وأنا، للنظر إلى البدو الذين يقتربون من حدود بغداد كما كانوا منذ مئات السنين وقد نصبوا خيامهم وسرادقاتهم على الرمال هناك، وكان صهيل الجياد وصياح الجمال ودخان المساء ووميض المصابيح الشفافة عبر القماشة المشطبة للسرادقات تأتينا في الظلام وكأنها قادمة من مئات السنين، وقد شعرنا بالحنين إلى الحياة البدوية- جهان وأنا- لأن كلانا من أصل بدوي، هي من البدو التركمان وأنا من البدو العرب-ولا بد أننا رأينا فيهم أجدادنا وهم يركبون على السروج ويبحثون عن النار الصغيرة المهجورة التي ما زالت تدخن، رأينا فيهم الجنود المسلمين الذين يقودون الحمير الصغيرة والخيول والإبل بالسيوف والسكاكين والخناجر وقد شدوا حبال الصوف حول جباههم، كنا نرى فيهم فتيانا رعاة يعزفون على المزامير، وبالقرب منهم - كما هي الآن بالقرب منا-صفوف الورد وهي ترصع الصخور ببقع حمر ووردية، كنا ننظر إلى خيولهم بسروج عربية وتترية، وبغالهم التي لها عدة مبرقشة باللؤلؤ والقواقع، وحميرهم الصغيرة، مثل بغال أجدادنا وحميرهم، ولقد اشتقنا أن نرمي أنفسنا في النهر كما كان أجدادنا يفعلون وهم يتمرغون في الوحول بكسل مع الجواميس التي تتمرغ بكسل في الوحول، مع



الجواميس التي تدير عيونها المبقعة، ومشافرها المائلة للسواد، كنا نرى في النساء جداتنا اللواتي تخرم الأقراط أنوفهن، ويخط الوشم الغريب خدودهن ورقابهن، وآباؤنا وهم أطفال عراة يجلسون أو يركبون فوق الكتل المهدمة وبعض الماعز السود بآذانها المنحنية تتسلق وتصعد إلى جانبهم.

كنا نسير كل يوم- جهان وأنا- بملابسنا الأوربية بطبيعة الأمر-مثل سائحين أو مستشرقين- في الأحياء القديمة: قنبر علي، أبو دودو، عقد النصارى، آت أغاجي، الصدرية، كوك نزر، الحيدرخانة، لنمسح بأحاديثنا طبقة خفيفة من الغبار الذي تجمع على واجهات المساجد والمنارات ذات الآجر الأزرق، ونحن ننظر بإعجاب شديد إلى الدشاديش والعرقشينات والعباءات النسائية السود، الداخلة والخارجة من المنازل التي تشبه الجحور، فقد كانت النساء تقف لتكنس عتبات المنازل بسعف النخيل، وكان الرجال يجلسون متكأين على الجدران الكالحة، يدخنون سجائر اللف على نحو حزين ورصين، وكنا نتعرف من تحت عرقشيناتهم وغطرهم على التعبير الضاري لهيئاتهم الذكورية، فنمسك لحظتها بخيوط الشمس المائلة-وهي الشمس ذاتها قبل قرن تقريبا- والتي تجعل لون النهر يتبدد تدريجيا من البرتقالي إلى لون متقد، في حين نرسم للأشجار في خيالنا صورة ظلية جوار سماء صافية ذات لون رمادي داكن، وكنا متفقين-جهان وأنا-لو أزيلت هذه المنازل لضاعت هويتنا، وكنا نأسف لزحف المنازل الحديثة عليها، ولا بد أن جهان قد تخيلتني لحظتها وأنا أرتدي العرقشين البيضاء مائلة على رأسي، وقد حزمت الدشداشة بحزام عريض، ووضعت الغطرة المخططة على كتفي، والخنجر في الحزام وقدت قطيع الدجاج وعلي شيش أمام المنزل إلى المقبرة المقابلة لمنزلنا، مثلما تخيلتها بالعباءة السوداء والفوطة التي لفت شعرها الأشقر ووضعت الخزامة في طرف الأنف، وهبط الوشم من ذقنها إلى صدرها، ولا بد أنها تخيلتني مثلما تخيلتها وهي تغمز لي بعينيها الواسعتين لنصعد إلى



السطح ساعة غرام هناك، وقد نمت عليها دون قبلات فهي لا تحتاجها، ولأن البغدادي أيضا لا يخلع الدشداشة حين يطارح زوجته الغرام، إنما يرفعها إلى خصره ويعظها من طرفها، وبذلك سيكون فمه مشغولا بعظ الدشداشة لا بالقبلة.

حين رآنا الناس هرعوا إلينا، كانوا يتصوروننا بأننا جئنا من أجل إنقاذهم من هذه البرك الآسنة والمنازل شبه المنهارة، ولا بد أنهم أطلقوا دعاية أو دعايتين من قبيل خطة كبيرة وواسعة لهدم هذه المنازل القديمة وردم البرك الآسنة التي تطلق الروائح الكريهة وبناء مساكن حديثة على الطريقة الأوربية، وتصوروا بأننا المهندسون الممثلون لهذا المشروع، وحين حدثونا عن ذلك، صمتنا، لوينا شفاهنا، وعبرنا عن امتعاضنا لفكرتهم التي لا تتطابق مع فكرتنا، واستهجاننا لهؤلاء الناس الذين يفتقرون للحس التاريخي، فهم لم يدركوا العظمة التاريخية لهذه البرك التي مات فيها سائسو الخيول، والحوذيون، والسقائون عبر التأريخ، ولم يدركوا العظمة التاريخية لأجساد الجنود الجرحى التي تفسخت بالقرب من منازلهم، ومنازلهم ذاتها التي تعرضت للنهب والسلب، وأجدادهم الذين حطمهم الطاعون والفيضان والمجاعة والحروب.

قلنا لهم: (هذه ثروة تاريخية يجب الاحتفاظ بها.. ألا تعرفون مغزى التاريخ.. ؟).

قالوا: (نعم.. نعم ولكن ماذا عنا..).

قلنا لهم: (أنتم كذلك ثرة تاريخية يجب الاحتفاظ بكم..).

كنا نبحث في ألوان الدواوين الزاهية البراقة التي كلحت وغشيها الغبار المتراكم، نبحث في الغلايين التي ما يزال بعض منها مليئا جزئيا بالتبوغ، وهي ملقاة قبالة الأرائك، وقد تركت إلى جانبها أقداح القهوة المكفتة بالذهب وهي نصف ملأى، كنا نبحث في الدكاكين شبه المنهارة ونتخيل نظارتها القديمة، والتاجر السمين الذي كان يحمل بيده مروحة وهو جالس على الدكة المصبوبة في الوسط وينظر بعين ثابتة إلى أمام،



دون أن ينظر الزبون أول الأمر، وهو يضع في فمه النارجيلة أو الغليون وفي يده فنجان القهوة، كنا نبحث في نقوش الشبابيك المتآكلة والأبواب المرصعة بالمسامير، وبالمطارق النحاسية الجذابة، وفي الطرق ذات الأقواس وفي السراديب عن صورة قديمة ما زالت تعمل في هذه الصورة المتآكلة، من أجل استخدامها في الصورة المعاصرة والمبتكرة للعمارة الحديثة، وهكذا فبغداد التي كان يريدها الأفندية مثل لوندرة -اقرأ لندن- وباريز-اقرأ باريس- لم تصبح مثل لوندرة وباريز، ومع ذلك فإن الأفندية-جهان وأنا نموذجها المعاصر بامتياز- نبحث عن صورة قديمة: الهوية، الأصل، الجذور، لتلطيف اللحظة الكولنيالية المعاصرة ورد الفعل المباشر للهيمنة وتأثيرها.

لقد تجاوزنا عملنا قليلا، وذلك بالبحث عن نوع من الانشباك الشخصي مع عملية إنتاج المعنى الثقافي في إطار الهيمنة، أية هيمنة، وقد اكتشفنا عبر المكان خلق التراتبات الزائفة، والنوازع اللاتاريخية، والقراءات الخاطئة، وأشكال الإسكات بوساطة الفخامة وحجر القوة والطرز المعمارية الصلبة، وحين أمضينا شهرا تقريبا في مبنى القشلة همايوني، وعبر القبل الطويلة والملامسات الناعمة وكل أشكال المداعبات الجنسية في الزوايا الكثيرة والحجر الفارغة وفي غفلة من موظفي وحراس المكان، كنا أكدنا -كما أقنعنا أنفسنا- على حضورنا المعاصر، وعلى تمردنا الجسدي، وعلى رفضنا للنصية التي تقوم عليها السلطة، ولكل أشكال المحو والتشويه والاحتواء التاريخي، وهي أمور تشغل المثقفين -الأفندية على الدوام.

*

في يوم صعدت إلى مبنى القشلة برفقتها، كانت قد جلستَ على دكة من الطابوق الفرشي القديم أخرجت سيجارة من حقيبتها المصنوعة من حياكة البسط البغدادية الملونة وأخذت تدخن، جلست إلى جانبها، فأخذتْ ساقها الرشيقة تحت قماشة البنطلون الجنز تحتك بساقي،



وصوبنا أنظارنا إلى المدينة القديمة التي لم تتغير -في أكثرها- منذ القرن التاسع عشر، إنما أصبحت المدينة الحديثة المشيدة على الطراز الأوربي تحيط بها وتفيض عليها، غير أنها ليست حديثة، مثلما يمكننا أن نقول أن المدينة القديمة لم تعد قديمة، وهكذا أصبح كل شيء على النصف، أو كولاج صنعه فنان فاقد للذوق ويفتقر للحس الفني، كولاج كبير يشبه كولاج الأفكار والأخبار والحياة الاجتماعية، وكل شيء تقريبا.

كنا ننظر من السور العالي إلى بغداد، ومن هناك اكتشفنا حقيقة المكان الذي تمت من خلاله مراقبة المدينة الآسيوية في القرن التاسع عشر، من خلال الموقع الذي تحظى به القشلة همايوني والسراي والقلعة وهو مجمع السلطة والسيطرة والحكم في بغداد.

في الواقع يبين هذا الموقع على نحو معماري عمل التكنلوجيا السياسية على الجسد الاجتماعي، فهذا المركز الذي يضع النهر في ظهره ويتجه باتجاه المدينة المحصورة بالسور والبوابات التي يتحكم بفتحها وإغلاقها يمتلك فعالية دقيقة بالرقابة الجماعية، فهذا البناء الفخم الذي يتموضع في مكان مهم نسبة للمدينة التي تقع تحته في الارتفاع، يبين على نحو مكشوف العلاقة اللازمة بين المكان وتكنلوجيا السلطة ذاتها، فقد استفادت السلطة السياسية من تنظيم المكان بتوسيع شبكة العلاقات التأديبية، وسمحت عن طريق هذا المعمار بممارسة هيمنتها، ففضلا عما كانت تفعله السلطة من فرمانات واعية وتوقعات ومؤامرات وتنسيق للأنشطة السياسية وتطبيق العقوبات الصارمة كان لها فعل خفي أيضا، فهذا المعمار المهيب كان يكسبها قوة خفية، وأتاح لها أوسع فعالية تنظيمية ممكنة، فكانت الناس تتصرف كما لو كانت مراقبتها دائمة ولا متناهية، وبلغت قوة مجال السلطة حدا جعلت منها تواصل عملها بغياب السلطة ذاتها، فكان المجرمون يحومون حول القشلة همايوني ولكنهم لا يجرءون على الدخول، لأنها ما زالت تعمل حتى وإن غادرها المنفذون والمؤدبون، وبقيت سلطة تأديبية دائمة قوية وخفية ومغفلة.



ومن الملفت للنظر أن هذه المدينة هي الأخرى تعمل بميكانزماتها التأديبية الخاصة، فلحظة اختفاء القمع الخارجي والذي تشكله السلطة السياسية في القشلة همايوني سرعان ما تنتج قمعا داخليا موجها نحو آخر- أي آخر-فالفراغ الذي خلفه اختفاء الجندرمة والحراس والجيش والهيكل التنظيمي والإداري للسلطة العثمانية حلت محله شبكات تأديبية وعقابية يمارسها الأفراد والجماعات على بعضهم: السلب والنهب والسرقة والاغتصاب وهو نوع من التماهي بين الممارسات التأديبية ذاتها التي كانت تمارسها الجندرمة العثمانية أزاء الخارجين، والسلوك الاجتماعي والأخلاقي للحياة الغزوية للبدو.

وما يجعل هذا الأمر متكررا هو أن هذه المدينة لم تكن يوما مدينة بالمعنى الدقيق أبدا، لقد كانت مثل الفندق أو معسكر الهجرات الكبير الذي تدخله القوافل والمهاجرون والزوار من مختلف الأجناس يحطون به فترات تطول أو تقصر، ثم يرحلون إما بالموت أو بالأوبئة أو بالفيضانات أو بالحروب أو بالهجرات، لذلك كانت هذه المدينة تتبدل من زمن إلى آخر تبدلا كليا تقريبا وهذا ما جعلها تفتقر على الدوام للأخلاق الحضرية والمدنية الثابتة.

لقد اكتشفنا أن مكان السلطة يكره الفراغ، لذلك فهو يخترع المجال يقويه وينميه، فمن غير المعقول أن يترك الإنكليز هذا المكان الحيوي شاغرا بعد الاحتلال، فطالما حلت سلطة أخرى لها أدواتها التنفيذية الخاصة بها، فلا بد أنها أفادت من هذا البرج للسيطرة والتحكم، ومن هنا كان على الرؤية أن تتبدل، وأصبح الأمر يتعلق مرة أخرى بمن يرى الأحداث:

صعد الجندي الإنكليزي إلى برج القشلة، توقف في المكان ذاته الذي كان يقف فيه محمود بك، رفع منظاره إلى عينيه وأخذ ينظر، سحب كرسيا بمواجهة النافذة وأراح ظهره وهو يراقب مشهد الشمس التي بزغت فظهرت بغداد وكأنها وسط فضاء دافئ أبيض، كانت تلوينات



الصباح الوردية تحيط قباب جوامعها المذهبة ومآذنها البنفسجية، وكانت معالم القصور الشرقية وعظمتها تبزغ من بعيد بأشكالها المتباينة وقد أطلت على النهر، وعلى الطريق الترابي الذي يتعرج وراء السور كانت القوافل القادمة من كرمنشاه تعسكر منذ الليل على مقربة من خان كبير، بينما كان الرجال منشغلين بإنزال الأحمال والبضائع عن ظهور الإبل والخيل والحمير.

نظر إلى اليمين كانت بضعة أبل باركة وهي محملة بالأثقال ومجموعة أخرى يقودها صبي كانت تستمتع بقضم سعف النخيل، وهناك مجموعة من الهنود يجلسون فوق السور وقد علقوا فوق رؤوسهم بنادقهم ومحفظات بارودها، لقد كانت بوابة السور المبنية من الآجر كبيرة، وقد أخذ الجيش الجديد يضع فوقها مدافعه الكبيرة ويوزع جوارها نقاط الحراس، كانت الجادة الجديدة التي أطلقوا عليها شارع هندنبرك مزدحمة بعربات النقل والقوات والأسلحة، وكانت بعض وجوه الرجال والنساء المفزوعة تخرج من السراديب المهدومة.

كان الفندق الذي يطل على نهر دجلة والمشيد على الطراز الفرنسي قد رفع لافتة جديدة مكتوب عليها أوتيل مود على اسم قائد الجيوش الإنكليزية المحتلة، وكانت القصور والقنصليات التي تطل مباشرة على النهر فوق أرصفة متينة تشبه الحصون أصبحت نظيفة منذ الاحتلال وعادت لها نظارتها وحفلاتها وعرباتها المذهبة التي كانت تقف بالقرب من الحدائق الصغيرة التي تصل حد النهر، وقد وقف الخدم البغداديون والهنود والسيخ والكركة تحت ممرات تقوسها أغصان الأشجار، وعلى مقربة منها كانت صبايا المدينة يتقدمن نحو حديقة القنصلية ليأخذن الماء الصافي بجرار نحاسية ذات أعناق طويلة محززة، وقد أفلس السقائون الذين كانوا يملئون قربهم من النهر ويحملونها على ظهور حميرهم البيض.

*



من غير شك أن بغداد الواقعية لم تكن نسبة لمود ولا تومسن ولا هوكر ولا أي جندي إنكليزي هي التراب الذهبي الذي صورته ترجمة ريتشارد برتن في ألف ليلة وليلة، كما أنها لم تكن نسبة للهنود المسلمين الذين جاءوا مع الجيش المحتل هي عاصمة المسلمين التي طالما حلموا برؤيتها عبر ما كتبه عنها سيد أحمد خان في كتابه (غرة العباد في معرفة بغداد) الذي طبعه في كلكتا في القرن الثامن عشر، إنما مدينة أخرى، مدينة خربتها بغال الجندرمة، ومدافع المحتلين، والأوبئة، والحروب، والفيضانات، ولا بد أنهم أدركوا كم هي محظوظة هذه المدينة التي صنعتها الأساطير، مدينة صنعتها الأوهام والأحلام والأساطير الكاذبة، وصورتها أقرب إلى الخرافة من حقيقتها، حقيقة مائها العكر، وسكانها الفقراء، وهوائها المسموم، وطعامها الغث، وقذارتها، ووسخها، وسوادها، وتعفنها، فلم تكن هناك في الطرقات المتربة الرمادية سوى التيجان اليابسة الصلبة التي لا يمكن للخيول ولا للخرفان ولا حتى الماعز أن ترعى بها، وكان الناس ينامون في الاصطبلات بعد أن أرغموا أنفسهم على بيع جيادهم بقليل من الليرات، وقد حدثت معارك ضارية بين أصحاب الدور الكبيرة واللصوص، وكان مشهد القتل متكررا، كثيرا ما مر الجنود الإنكليز من منزل فرأوا جثة صاحبها وجثة أحد اللصوص ملقاتين على الأرض معا، يمسك اللص بيده اليسرى سكينا أصابت خاصرة صاحب الدار، وقد أغمد صاحب الدار خنجره في صدر اللص ثم خر الاثنان صريعين، وقد تمددا جنبا إلى جنب.

*

كانت السماء اللؤلؤية صافية، ومازالت بضعة غيوم متفرقة تنتشر هنا وهناك، سار العميد هوكر على جواده القصير بهدوء، وقد وضع جزمتيه الصغيرتين اللماعتين بالركائب التي تهبط من السرج، خرج من بوابة القشلة همايوني، وقد أدى له بعض الضباط والجنود المتوقفين هناك بمناظيرهم العسكرية السود، وخوذهم الكاكية التحية العسكرية.



سار وراءه ضابطان برتبة أدنى وعشرة جنود إنكليز وهنود وبنغال مسلمين، وكان منيب أفندي، الترجمان البغدادي وراءه، وقد ارتدى بذلته الإفرنجية السوداء، ووضع البرنيطة على رأسه، ساروا في الفسحة الخضراء التي تؤدي إلى النهر مباشرة، وقد شاهدوا عند الضفة الأخرى من دجلة انسحاب الأتراك مروعا، فلم يكن هناك سوى خط التمير الطلسمي الرهيب، وشاحنة ألمانية محترقة، ورجال إطفاء إنكليز يتوقفون عند مسناية النهر التي تنعطف على مرسى زوارق شركة لنج الإنكليزية، وعلى مقربة منهم بضعة خيول جريحة، وثلاثة أخرى نافقة على الطريق، وبين هذين الطريقين الترابيين كانت الفضلات تنتشر في كل مكان، وكانت الخنادق التركية لا تبعث سوى رائحة الجثث المتفسخة، وروائح الخرق المحروقة، والبطولة التقليدية لشعب لم يعد يملك منها شيئا، وقد كانت آثار تهديم البيوت واضحة في كل مكان، وأما الجدران والأعمدة ذات الآجر المفتت فلا تزال منتصبة.

قافلة من الجمال تسير في الطريق المترب، امرأة محجبة حافية وخلفها كلبها، وعند مفازة من الأزهار وقف رجل يرتدي دشداشة بيضاء وعرقشينا جعلها مائلة على رأسه وقد لف الغطرة المخططة ووضعها على كتفه، مسح شاربه الكث بيده، تلفت يمينا شمالا، رفع دشداشته إلى خصره، خلع سرواله وجلس ليتغوط قرب زهرة الجوري، كان الهواء عذبا يأتيه من جهة النهر، وكان صوت أحد أصحاب الزوارق الذي أخذ يغني وهو يرمي الشباك في النهر يصدح في الفضاء، وقد حامت النوارس البيضاء حوله.

وصل موكب الحاكم العسكري وقد ارتفع الغبار خلف جيادهم، كانت أصوات الحدوات منتظمة على الطريق الترابي الذي يحاذي النهر، وقد تقدمهم هوكر بقيافته الكاكية وخوذته ورتبه الموضوعة على الأكتاف، حين رأى البغدادي جالسا على قارعة الطريق، ومستسلما بالكلية لتغوطه، وقد رفع دشداشته وأمال عرقشينه على جبهته، حين رآه مسترخيا كليا ولم



ينهض بعد وصول موكبه، لم يقفز من مكانه كما توقع، لم يرد على نفسه دشداشته، كان ببساطة غير مكترث لا للجنرال ولا للخيول ولا للضباط ولا للترجمان، كان مستسلما لتغوطه، للهواء العذب الهاب من جهة النهر، لصوت السماك وهو يلقي الشباك في النهر، ولصيحات النوارس البيض التي تصرخ فيتردد صداها بين صفحة الماء وجبهة النهر الترابية.

رفع هوكر يده وأوقف موكبه:

(هولت..).

توقف الموكب، نظر بحقد للجالس عند الأزهار، وصرخ به بعنجهيته الإنكليزية، فأصبح الترجمان عصبيا هو الآخر وصرخ على الجالس هناك وأمره بالقدوم، دون أن ينهض البغدادي من مكانه، قال لمنيب الترجمان بهدوء:

(أخلص وأجيه..)

فقد الحاكم العسكري أعصابه، ضرب بعصاه القصيرة على فخذه، فسرت حمى عصبيته ألى الضباط الإنكليز، إلى الجنود الهنود والبنغال، وإلى الترجمان أيضا، فالتفت إلى الجنود الذين تهيئوا وأمرهم بجلبه، رفعوه من أكتافه بعنف، بعد أن ضربوه على مؤخرته بالعصا الغليظة التي يطلقون عليها الدونكي وجروه بقوة، أخذ يصرخ متعجبا من هذا الاهتمام المبالغ به:

(مستر.. هي خرية.. انت اشبيك صاير عصبي..).

أصدر الحاكم العسكري أمره بفرض غرامة عشر روبيات على التغوط في الشارع وخمس ربيات على التبول.

*

شمس تميل إلى الغروب، وعلى الضفة الأخرى من النهر بضعة نساء يحملن الجرار الخزفية ويضعنها على الأكتاف ويسرن في الطريق المترب الذي يقود إلى الجادة الجديدة، وعند النخلة الوحيدة التي تتوسط



الطريق، كانت هنالك مجموعة من الشرطة الإنكليزية الذين يرتدون الملابس الكاكية ويحملون الهراوات ويتربصون برجل يرتدي الكاورية على رأسه، جلس بعد أن رفع دشداشته وأخذ يتغوط في منتصف الطريق، قفز نحوه الشرطي بعصاه الغليظة وقبعته، كاد أن يقبض عليه إلا أنه فلت من يديه، وضع يده على كاوريته التي فوق رأسه، أمسك ذيل دشداشته بيده وأطلق ساقيه للريح، والشرطي يصرخ وراءه وهو يركض ويضع يده على قبعته:

(ستوب.. ستوب..).

عند شارع هندنبرك، مجموعة أخرى من الشرطة الإنكليزية تركض وتصفر بالصفارة وراء أحد البغداديين الذي كان يرفع دشداشته بيده ويضع يده على طربوشه الأحمر ويركض بسرعة خاطفة، وفي مكان آخر قبضوا على شخص آخر وقادوه إلى الضابط الذي أخذ يكتب على ورقة صغيرة غرامته، بينما أخذ الهنود فحصه فيما إذا كان تغوطا بعشر ربيات، أم تبولا بخمس ربيات.

حين خلا الشارع تماما، خرج شخص من بين الأنقاض، وهو ينظر إلى مجموعة من الشرطة الإنكليزية وقد ابتعدت، ومجموعة أخرى تلاحق شخصا آخر يرفع دشداشته وقد انحدر نحو موقع القفف والقوارب عند النهر، تلفت يمينا وشمالا، رفع دشداشته- كان دون سروال - وجلس بهدوء وأخذ يتغوط في المكان ذاته، وهو يتلمظ بلسانه شاعرا بسعادة مضاعفة.

بغداد

٢٠٠٢




مكتبة
الفكر الجديد

الفهرس



هـذا الكتـاب

كان منيب أفندي القادم من محلة الحيدر خانة في بغداد - وسيما بعينيه السوداوين ووجهه الحنطي، وكانت سترته البنية جديدة، وبنطلونه الصوفي يكشف عن حذائه المصنوع من الجلد الثمين، وما يميزه عن الآخرين هو أنه من دون شوارب، لقد كان متؤربا لا بملابسه وبالأناقة التي يظهرها حسب، إنما كان على طراز الشباب الشرقيين الذين تأثروا بالأوربيين والذين كانوا يقطنون الأستانة أوانذاك، مثل جميل أفندي الزهاوي، معروف أفندي الرصافي، وفهمي أفندي المدرس وغيرهم، وحين تصاعد صخب مواطنيه في العربة وشعر بأن الإنكليزية تضايقت من ذلك، عبر لها عن اختلافه: تأفف وهو ينظر نحوهم، هز رأسه هزات قصيرة، ثم التفت نحوها بأدب وتهذيب كبيرين، وقال لها بصوت مسموع وبإنجليزية فصيحة: (آم سوري..).

